حوار في العراق حول
اللغة كأداة للتعبير في عصر التكنولوجيا

نشرت جريدة التآخي في عددها الصادر بتاريخ 28 / 10 / 1970 مقالا بعنوان :
« اللغة كاداة للتعبير في عصر التكنولوجيا » ، والمقال يتضمن مجموعة من الآراء في الموضوع لعدد من رجال العلم والفكر واللغة والنقد من بينهم الدكاترة السادة : عبد اللطيف البدري رئيس جامعة بغداد وداود سلمان علي وحسن فهمي جمعة ، والاساتذة السادة : كوركيس عواد ، وجبرا ابراهيم جبرا ، وجرجيس فتح الله مدير تحرير التآخي .

وفيما يلي موجز للمقال المذكور :

اذا كان المقصود من الموضوع التعبير عن الافكار العلمية في قالب كتابي مستساغ وباللغة العربية فان مرد هذا الضعف هو لغوي اكثر مما هو علمي اذ ان اكثر الاختصاصات كالطب والهندسة والتكنولوجيا تدرس بلغة اجنبية ، فاذا ما حاول احدهم صياغة رأي ما او فكرة كتابة وفي اللغة العربية يعوزه الكثير من المصطلحات وهو ما لا يتوفر في معاجمنا العلمية الحديثة في الوقت الحاضر وان توفر فهنالك تباين شاسع او واسع بين ما يقر في بلد عربي عن بلد آخر . وبعد كل هذا فان الكتابة هي موهبة لا يتساوى جميع الناس في التعبير فيها . اما عن حل هذه المحنة او المشكلة فانه يتطلب وقتا غير قليل لتتفق المجامع على مصطلحات موحدة تنشر بين المتخصصين في العلوم ليمارسوا الكتابة فيها والزمن كفيل برفع مستوى التعبير نطقا وكتابة عند هؤلاء المتخصصين.

ومن جهة اخرى فاننا نرى اليوم جماعة من ذوي الاختصاص في العلوم ، كالطب والهندسة والفيزياء والكيمياء والرياضيات وما جرى مجراها يحاولون الكتابة بالعربية في موضوعات اختصاصاتهم فتتقاضى عليهم الكتابة ولا تستقيم لهم العبارة واذا كتبوا كانت لغتهم مختلفة لا تفي بما يرومون التعبير عنه . فما مرد ذلك ؟

لعل للغة العربية ضلعا في هذا النقص بسبب افتقارها الى كثير من مصطلحات تلك العلوم . ولكن في وسعنا القول ان كل لغات العالم الراقية تعاني مثل هذه المشكلة . فهي مشكلة لا تقتصر على العربية دون غيرها ، بل هي عامة تمس سائر اللغات الشرقية والغربية على حد سواء .

وهذه اللغة الانكليزية ، وهي في طليعة اللغات التي تحتضن ضروب التاليف في مختلف العلوم . كيف حلت تلك المشكلة ؟

انها لجات ـ في ما لجات اليه ـ الى «استعارة» كلمات لا تدخل تحت حصر من لغات اخرى لا سيما من اليونانية واللاتينية وادخلتها في صلب المصطلحات

التي تعد اليوم انكليزية بحتة . ولم تجد اللغة الانكليزية في تلك الاستعارة ضيرا ولا منقصة . بل ان ابناء تلك اللغة عدوا الاستعارة دليلا على مرونة لغتهم وقابليتها على ان « تطعم » بما تكنه اللغات الاخرى .

فما احرانا نحن ابناء العربية ان نسلك اليوم هذا السبيل فنستعير ما لا وجود له في لغتنا ، ونلبسه صيغة عربية مقبولة فنكتسب بذلك الوفا من الالفاظ الاصطلاحية المعربة .

ولسنا نقول ان « التعريب » هو العماد الوحيد الذي يركن اليه في هذا الباب . كلا ، فان في كتب التراث العربي من الالفاظ القديمة ما يجب العود اليه، ونفض غبار النسيان عنه ، واحياؤه بالاستعمال . اننا نعثر في كتب التراث القديم ، على الفاظ اصطلاحية غاية في الكثرة ، وقد تناثرت في معجمات اللغة وفي كتب العلوم المختلفة . والا فكيف تسنى لائمة العلماء القدامى كالفرابي وابن سينا وابن الهيثم والبيروني والزهراوي والخوارزمي ومن جرى مجراهم في ميادين العلم ، نعم كيف تسنى لهم ان يضعوا تلك التصانيف النفيسة في بابها ويعبروا فيها عن الحقائق العلمية بعبارة سليمة قويمة ؟

وفي هذا ما يبعد الشبهة عن ضعف اللغة العربية مع تسليمنا بفارق الزمن وبواقع الحال التي تتجلى اليوم في اتساع العلوم العصرية وترامي اطرافها . فلقد اخذ العلم الحديث يسير بخطى سريعة جدا لا تجارى الا بالجهد المتصل والداب المنسق .

لن يفوتنا التنويه بمزية تتحلى بها العربية ، وهي « الاشتقاق » فبينما نجد اللغات الغربية تعتمد كثيرا على « النحت » نجد العربية « لغة اشتقاقية » يتاح للباحث ان يستعين بهذه المزية العظيمة ويخرج منها بفوائد جمة تعود على لغة العلم باوفى الثمار .

وبعد هذا التحليل القيم عن دور اللغة في التعبير في عصر التكنولوجيا وشرح الاسباب الحقيقية التي تجعل كثيرا من الاختصاصيين في الميدان العلمي كالاطباء والمهندسين قاصرين عن الكتابة في ميادين اختصاصهم بلغة سليمة نجد سؤالا هاما آخر فرض نفسه في الموضوع ذاته وهو كيف استطاع الدكتور يعقوب صروف والاستاذ احمد زكي ان ينشرا عدة كتب ومقالات في موضوعات علمية عويصة في الفلك والرياضيات والجيولوجيا والنبات والكيمياء والفيزياء بلغة سليمة يستسيغها الذوق وترتضيها قواعد اللغة.

ان الجواب على ذلك يكمن في الحقائق التالية : ان الطبيب والمهندس والعالم المختص بأحد العلوم العصرية لا شك في انه قد اجتاز في اثناء دراسة مراحل دراسية : ابتدائية متوسطة ، اعدادية . لندع دراسته العالية ونقتصر على المراحل المذكورة الم يدرس في سنن هذه المراحل اللغة العربية صرفا ونحوا وانشاء؟ فاين ذهبت تلك الدراسة ؟ وهي لو احتفظ بها ، تفي في ما ارى بالغاية اللغوية التي يبتغيها العالم المختص . فلماذا نراه ، بعد ذلك يكتب باسلوب يعتوره ضعف ؟ ولماذا يخطىء في قواعد الصرف والنحو ، وهي امور سبقت له دراستها ؟

لعل من يقول ان هذا العالم المختص بعد ان تعمق في فرعه لم يعد يتسنى له الاستمرار على العناية بلغته فتركها وشانها انصرافا منه لفرعه . وقد يكون هذا صحيحا . اما ان نرجع ذلك النقص الى اللغة نفسها ونرميها بما ليست فيه ، فامر فيه كثير من التجني عليها .

وبديهي ان ذوي التخصص هم عادة اناس على قسط كبير من الذكاء والاطلاع ولعله من العبث ان يذكرهم المرء بان اداة التعبير نفسه ان يكون موفقا ومن العبث كذلك ان يذكرهم المرء بان العناية بالناحية الادبية من الفكر الانساني لا يجوز اهمالها مهما اهتم المتخصص بالقضية العلمية نفسها . وربما كان هذا بعض السبب في ان الكثير من الجامعات تصر على ان يدرس طلاب العلوم التكنولوجيا على الاقل موضوعا ادبيا واحدا كل سنة عليهم ان ينجحوا فيه بدرجة عالية . فضلا عن الناحية الانسانية التي بهذا يبقى العالم على صلة بها فانه يتمكن من تلك القوة التعبيرية ـ القوة اللفظية والاسلوبية ـ التي تجعله قادرا على صياغة افكاره العلمية في اشكال مستساغة . والذي اعرفه هو ان البعض من اقدر العلماء هو ايضا من اشد الناس فصاحة وقوة في التعبير ـ مما يجعلنا نتقول ان من كان ضئيل الحظ من الفصاحة وقوة التعبير وربما كان ايضا قليل الحظ من القدرة العلمية الحقيقية ـ ولو انه لا بد من رفض التعميم في مثل هذا المجال .

اما محنة التاليف والترجمة في العلوم عندنا فهي ذات شقين (او اكثر) ! : اولا ، محنة المؤلف النادر الذي يعشق ما يكتب او يترجم فيه بحيث يكون مستعدا للتضحية بوقته وجهده من اجل الكتابة والترجمة مهما تكن نتائج النشر . ثانيا ، محنة القارىء العربي الذي ما زال بعيدا عن الاقبال على الكتب

العلمية رغم دخول العصر التكنولوجي. كيف نعالج هاتين المحنتين ؟ لا بد من العودة بذلك الى الجامعة وما تيسره من فرص للتاليف وما تخلقه من حب حقيقي للعلم في نفوس الطلاب . القضية تربوية ، وحضارية معا . وتحتاج الى دراسة كثيرة الشعب لا تجدي معها اشارة سريعة في عجالة كهذه .

ولا ننكر ان الصعوبة التي يحسها المختصون في العلوم هي صعوبة حقيقية لا ينفعنا مطلقا محاولة التقليل من شانها . وقد اتضحت لي انا شخصيا ـ يقول الاستاذ جرجيس فتح الله ـ هذه الصعوبة عندما قمت بنقل كتاب ـ تراث الاسلام ـ المعروف الى العربية قبل ستة عشر عاما ، وبعدها اخذت اكتب واترجم الى العربية بعض الكتب والبحوث الخاصة بنظرية الموسيقى العربية وتراثها . فقد ادركت من الوهلة الاولى سبب وقوف ـ لجنة النشر للجامعيين ـ المصرية التي تالفت في العام 1935 لنقل الكتاب الاول الى العربية فاخفقت في منتصف الطريق ، اي عندما اصطدمت بابواب الطب والرياضيات والهندسة والقانون والتصوف الخ ...

وزيادة في الايضاح يجدر بنا ان نشير الى ان هناك اسبابا كثيرة تجعل من حملة الشهادات العالية المتخصصين في العلوم كالاطباء والمهندسين والتكنولوجيين في وضع لا يستطيعون فيه الكتابة في اختصاصاتهم بلغة سليمة بل حتى ان البعض منهم لا يستطيع التعبير عن افكاره العلمية في قالب كتابي مستساغ .

واول هذه الاسباب هو ضعف تعليم اللغة العربية في الدراسة الابتدائية والثانوية وهي المرحلة التي يتعلم فيها الطالب قواعد اللغة واسسها وحسب علمي ان وزارة التربية تتعاون في الوقت الحاضر مع مركز البحوث التربوية التابع لجامعة بغداد لوضع كتب جديدة لتعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية والثانوية .

والسبب الآخر هو ان تعليم هؤلاء في المرحلة الجامعية على الاغلب يكون بلغة اجنبية في العراق اذ لا زلنا نعتمد على المراجع العلمية الاجنبية ولعدم توفر هذه باللغة العربية اخذنا بطريقة التدريس بلغة اجنبية.

والسبب الثالث هو ان لغة البيت ولغة الشارع تختلف كثيرا من اللغة الفصحى ولو جرت محاولة لتقريب اللغة العامية من اللغة الفصحى وعدم استعمال الكلمات العربية ونشر الفصحى عن طريق الاذاعة والتلفزة فبعد مرور وقت طال وقصر سنجد ان اللغة العامية تقترب من الفصحى .

وهناك سبب رابع وهو عدم تشجيع التاليف باللغة العربية في المجالات العلمية ويجب ان يكون هذا من الشروط المطلوبة في الترقيات العلمية التي تتطلبها الجامعات من اعضاء الهيئة التدريسية .

العوامل الطارئة على اللغة
دراسة لقضايا اللحن والتصحيف والتوليد والتعريب ... في ضوء علم اللغة الحديث

الدكتور محمد عيد
كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

لكتابة هذا البحث حول معنى اللحن فى الكلام العربي وتطور استعماله ومقاومته ينبغي ـ كما هو واضح فى عنوانها ـ تناول الامور الآتية :

1 ـ معرفة المقصود باللحن وبيان مظاهره مع تقديم نماذج لها .

2 ـ بيان تطور استعماله فى الكلام العربي باختصار .

3 ـ حركة المقاومة العلمية التي تمثلت فى جهود العلماء لتنقية اللحن .

لقد بحث كثير من الدارسين فى كلمة « اللحن » وتعدد معانيها ، وتطور هذه المعاني ، ويذكر فى هذا الصدد ان من معانيها « الفطنة والذكاء » استنادا الى قول الرسول (لعل احدكم أن يكون الحن بحجته من بعض) او التظرف فى الحديث بخلطه بالكلام الاجنبي او الكلام المتعمد فيه الخطأ كما روى ابن دريد انه «قيل لمعاوية : ان عبد الله بن زياد يلحن فى كلامه ، فقال : اوليس بظريف ابن اخي يتكلم بالفارسية ، فظن معاوية ان الكلام بالفارسية لحن » ومن ذلك البيت المشهور للفزاري

منطق صائب وتلحن احيانا
وخير الحديث ما كان لحنا

ومن معانيها ايضا « التورية » باستخدام معنى قريب وارادة معنى بعيد ، وعلى ذلك الف ابن دريد كتابه « الملاحن » قاصدا به استخدام الكلمات وارادة معان اخرى لا تخطر لاول وهلة على الذهن عند سماع الكلمة ، وفى مجال المعنى ايضا اطلقت على الخطأ فى المعاني ، وذلك باستعمال الكلمة او التركيب كله على غير وجهه الذى قرره له العلماء ، وقد الف المفضل ابن سلمه كتابه « الفاخر فيما تلحن فيه العامة » من هذا النوع من الخطأ فى المعاني ، وجاء فى مقدمته قوله : « هذا كتاب معاني ما يجري على السن العامة فى امثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب ، وهم لايدرون

معنى ما يتكلمون به من ذلك ، فبيناه من وجوهه على اختلاف العلماء فى تفسيره » .

فهذه المعاني وغيرها تندرج تحت كلمة « لحن » وربما استعملت فى عصور متفاوتة خاضعة فى ذلك لتطور الدلالة كما هو شان الكلمات فى كل اللغات او استعملت بمعان متعددة فى عصر واحد بعد ان تجمعت حول الكلمة ، والذى يعين احد هذه المعاني ظروف الدلالة للنص الذى وردت فيه .

ولا علينا من ذلك كله ، فان اللحن الذى تقصده هنا هو « خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة فى بنية الكلام او تركيبه او اعرابه بفعل الاستعمال الذى يشيع اولا بين العامة من الناس ، ويتسرب بعد ذلك الى لغة الخاصة » واللحن بهذه الصفات امر طارىء على اللغة الفصحى ، اذ أن المفترض فى نطق العرب لها اولا هو الصحة والسلامة اعتمادا على الفطرة والسليقة ، فهذا هو الاصل ، فما حاد عن هذا الاصل الفطري المتوارث فهو خطا ، ويوصف نطقه حينئذ بانه « لحن » وغالبا ما يضاف « اللحن » الى « العوام » او « العامة » تنبيها على الاصل الذى جاء منه الخطا فى الاستعمال.

— قال ابن دريد : فاما اللحن فى العربية ، لانك اذا قلت (ضرب عبد الله زيد) لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب ، فكانك قد عدلته عن وجهه ، فاذا اعربت عن معناك فهم (1) عنك .

— سمع ابو عمرو بن العلاء ان ابا حنيفة يبطل القود الا ما كان قتلا بحديد ، فقال له ابو عمرو: ارايت ان ضربه بكذا ، ارايت ان ضربه بكذا ، قال لو ضربه بأبو قبيس لم يكن عليه قود ، فقال ابو عمرو: هذا كلام شنع ، قال : وما الشنع ؟! قال : ولا تعرف الشنع ايضا !! (2)

— روى الزجاجي : كان سيبويه مستمليا لحماد بن سلمة — وكان حماد فصيحا — فاستملاه يوما قول رسول الله (ص) : ليس من اصحابي احد الا ولو شئت اخذت عليه ليس ابا الدرداء ، فقال سيبويه (ليس ابو الدرداء) فصاح به حماد : لحنت يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت وانما هو استثناء ، فقال سيبويه : لا جرم والله لاطلبن علما لا تلحنني معه ، فمضى ، ولزم مجلس الاخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين (3) .

— قال ابن الجوزي : واعلم ان غلط العامة يتنوع ، فتارة يضمون المكسور ، وتارة يكسرون المضموم وتارة يمدون المقصور ، وتارة يقصرون الممدود ، وتارة يشددون المخفف ، وتارة يخففون المشدد وتارة يزيدون فى الكلمة ، وتارة ينقصون منها ، وتارة يضعونها فى غير موضعها ، الى غير ذلك من الاقسام (4) .

ويستنبط من النماذج السابقة الدلالة على السمات التى يوصف الكلام من أجلها « باللحن والخطا » فابن دريد يرى الاخلال بالاعراب فى مثل (ضرب عبد الله زيد) لحنا فى العربية ، وهذا حق ويفسره بالعدول عن الوجه فيه من نصب (زيد) فى العبارة السابقة ، وهذا حق ايضا لكنه يتوسع فى فهم العدول عن الوجه فى الكلام بما يشمل الدلالة ايضا « لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب فاذا اعربته فهم عنك » وهذه وجهة لفهم اللحن فى المعنى، ويصادفها المرء كثيرا فى الكتب التى تناولته بالدراسة، وان لم تصل الى الفهم الشائع عنه من الخطا فى الاعراب .

وابو عمرو بن العلاء يصف نطق ابي حنيفة (ضربه بأبو قبيس) بانه « كلام شنع » مستخدما صيغة المبالغة فى وصف الخطا الاعرابي فى الكلام الذى هو «اللحن» وهو ما ذكره صراحة حماد ابن سلمة لسيبويه حين اخطا فى مثل ما اخطا فيه ابو حنيفة من قوله (ليس ابو الدرداء) ، اذ صاح به حماد (لحنت يا سيبويه) فمن ذلك يتضح ان اللحن يطلق على الخطا فى الاعراب اذا حدث فى اللغة الفصحى ، فاستعمل فيها تاثرا بما شاع بين العوام وفى الكلام الدارج ، كما انه يشمل ايضا ما عده ابن الجوزي من ضم المكسور وكسر المضموم الخ.. وهذا فى معظمه يتعلق ببنية الكلمات، وقد سماه « غلط العامة » ايضا .

---

(1) الملاحن ص 6 .
(2) مجالس العلماء ص 110 .
(3) السابق ص 154 .
(4) تقويم اللسان ورقة /2 .

ومما ذكره ابن الجوزي قوله « وتارة يضعون الكلمات في غير مواضعها » وافهم من ذلك ما يشمل تاليف الكلام العربي ورصف الكلمات في التراكيب اللغوية ، وما يشمل معاني الكلمات في استخدامها على غير ما قرره لها علماء اللغة ، وهذا الاخير جانب اطلق العلماء عليه ايضا انه « لحن وخطا » وان لم يكن من الكثرة والشهرة ما للاخلال بالاعراب او بنية الكلمات .

فقد اندرج تحت ما اطلق عليه « اللحن » أمور ثلاث ، اقلها شهرة واهتماما الخطأ في المعنى باستعمال اللفظ او التركيب في غير ما هو له من المعنى ، واعظمها شهرة وكثرة واهتماما من علمائنا الخطا في بنية الالفاظ او الاعراب ، وساقدم هنا امثلة قليلة لهذه المظاهر الثلاثة ، الهدف منها تقديم النماذج لا الاستقصاء ، فان مؤلفات اللحن وحدها — فيما استقرائه — بلغت اكثر من اربعين مؤلفا ، تحوي مادة لغوية ضخمة لهذه المظاهر الثلاثة ، وسياتي عرض ذلك فيما بعد .

اولا : من نماذج الخطا في المعاني :

1 — مما تضعه العامة في غير موضعه قولهم (خرجنا نتنزه) اذا خرجوا الى البساتين وانما (التنزه) التباعد عن المياه والارياف ، ومنه قيل : فلان يتنزه عن الاقذار ، اي يتباعد منها ومنه قول الهذلي :

اقب طريد بنزه الفلاة لا يرد الماء الا انتيابا (1)

2 — ومن ذلك (الطرب) يذهب الناس الى انه في الفرح دون الجزع ، وليس كذلك انما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور او لشدة الجزع ، قال الشاعر وهو النابغة الجعدي :

واراني طربا في اثرهم
طرب الواله او كالمختبل (2)

3 — ومن ذلك (الحشمة) يضعها الناس موضع الاستحياء ، قال الاصمعي ، وليس كذلك انما هي بمعنى الغضب ، وحكى عن بعض فصحاء العرب انه قال : ان ذلك لما يحشم بني فلان ، اي يغضبهم (3) .

4 — ويقولون (بكرت اليك) بمعنى غدوت خاصة ، وقال ابو بكر (ابن دريد) البكور التعجل في جميع اوقات الليل والنهار ، يقال : انا ابكر اليك العشية ، وانشد ابو زيد لضمرة بن ضمرة :

بكرت تلومك بعد وهن في الندى
بسل عليك ملامتي وعقابي

يقال : بعد وهن ، يعني حينا من الليل (4)

5 — قولهم للثوب (وشاح) قال محمد (الزبيدي) والوشاح نظمان من لؤلؤ يخالف بينهما ، ويعطف احدهما على الآخر ، وتتوشح به المراة على كشحها (5) .

6 — ويقولون (ذو نفع وضر) فيضمون ، قال محمد (الزبيدي) والصواب (ضر) بالفتح ، واما (للضر) فهو السقم ، قال الله عز وجل : « وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) (6) .

7 — ومن ذلك (الاستحمام)يكون عندهم بالماء الحاروالبارد ، وليس كذلك ، انما الاستحمام بالماء الحار خاصة (7) .

8 — قول المتكلمين (هذه المحسوسات) خطا ، والصواب (المحسات) لانه يقال : احسست الشيء بمعنى ادركته ، فاما المحسوس فهو المقتول ، ممن حسه اذا قتله (8) .

9 — وتقول (استخفيت من فلان) والعامة تقول (اختفيت منه) وانما الاختفاء الاستخراج ومنه قيل للنباش (مختف) (9) .

10 — وتقول (اصبح القوم) اذا صاحوا وجلبوا، والعامة تقول (ضجوا) وانما يقال (ضجوا) اذا جزعوا (10) .

---

(1) اصلاح المنطق ص 287 .
(2 — 3) ادب الكاتب ص 18 — 19 .
(4 — 5 — 6) انظر لحن العوام ص 137 — 206 — 244 .
(7) لحن العوام ص 256 .
(8) ذيل الفصيح ص 102 .
(9 — 10) رسالة في اغلاط العوام ورقة 101 .

ويكفي هذه الامثلة العشرة لهذا النوع من الخطأ في المعنى ، او ما وصف بانه « لحن العوام » والملاحظ على هذه الامثلة ـ وشبهها كثير ـ ان الحكم عليها باللحن كان من زاوية الاستعمال في فترة خاصة ، فالتزم هذا الاستعمال وتوقف ، ولم يؤخذ في الاعتبار بالنسبة لها تطور الدلالة التي قد تتغير من جيل لجيل ، فالكلمات ليست احجارا جامدة ، ولكنها وسيلة اجتماعية يطرأ عليها التغيير في معانيها ، والتطور في دلالاتها بحسب العرف اللغوي الذي يستخدمها ، ومن المفيد ان نلاحظ ايضا ان معاني هذه الكلمات العشر التي حكم عليها بالخطأ ظلت منذ القديم سائدة حتى الوقت الحاضر ـ وانه لا يخطر ببال احد استعمالها بالعرف الذي راى العلماء انه هو العرف الصحيح ، فمن ذا الذي يفهم من (خرجنا نتنزه) التباعد عن المياه والارياف ، ومن (الطرب) الحزن والسرور معا ، ومن (الحشمة) معنى الغضب لا الاستحياء ، ومن (البكور) التعجل عامة ، ومن (الوشاح) نظمان من لؤلؤ لا الثوب ؟! ومن الذي يستخدم (الضر) بالفتح في مقابل النفع، ويترك (الضر) بالضم ويفهم من (الاستحمام) انه للماء الحار خاصة ، ومن (الاختفاء) الاستخراج لا التواري عن العيون !! فمن الواضح ان تفكير علماء اللغة على هذا النحو تفكير التزم التقعيد والتحديد ولم يأخذ في اعتباره المرونة والتطور ، فبقيت دراستهم في واد والاستعمال في واد آخر ، ولست مغاليا ان قلت : ان هذه الجهود كلها افادت من حيث الدراسة في ذاتها ، لكنها لم تتفق مع طبيعة اللغة ، ولذلك لم تفد كثيرا في تعديل ما أطلق عليه (اللحن) في عصرهم او بعد عصرهم .

ثانيا : من نماذج الخطأ في بنية الكلمات :

1 ـ قولهم (دخل في غمار الناس) هذا مما يخلط فيه العامة ، والعرب تقول (دخل في خمار الناس) اي فيما يواريه ويستره منهم حتى لا يبين (1)

2 ـ ويقولون (مقداف السفينة) قال محمد (الزبيدي) والصواب (المجداف) ومنه جدف الطائر بجناحيه يجدف جدوفا ، اذا كان مقصوصا ، فرايته كانه يرد جناحيه الى خلفه ويدارك الضرب (2) .

وواضح ان الخطأ في هذين المثالين سببه التطور الصوتي ، لقرب المخرج بين كل من الخاء والغين في (خمار وغمار) وكذلك بين كل من الجيم والقاف في (مجداف ومقداف) وربما نطقت الجيم اولا (ج) ثم تطورت الى القاف .

3 ـ قال الجاحظ : كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان ، فجعلا يلحنان ، فقال الحاجب (قوما فقد اوذيتما امير المؤمنين) قال عمر : انت آذى لي منهما (3) .

4 ـ قال ابو عمرو : يقال : ازللت له زلة ولا يقال (زلنت) وقد اغلقت الباب فهو مغلق ، ولا يقال (مغلوق) وقد اقفلته فهو مقفل ولا يقال (مقفول) (4).

5 ـ ويقولون (هبت الارياح) مقايسة على قولهم (رياح) وهو خطأ بين ، والصواب ان يقال (هبت الارواح) كما قال ذو الرمة :

اذا هبت الارواح من نحو جانب
به اهل مي هاج قلبي هبوبها

والعلة في ذلك ان اصل (ريح) (روح) لاشتقاقها من (الروح) وانما ابدلت الواو ياء في (ريح ورياح) للكسرة التي قبلها ، فاذا جمعت على (ارواح) فقد سكن ما قبل الواو ، وزالت العلة (5) .

6 ـ ويقولون للمطهرة (ميضة) وبعضهم يقول (ميضاه) والصواب (ميضاة) بالهمزة ، والجمع (مواضيء) (6) .

---

(1) الفاخر فيما تلحن فيه العامة ص 246 .
(2) لحن العوام ص 69 .
(3) البيان والتبيين جـ 3 ص 24 .
(4) اصلاح المنطق ص 227 .
(5 ـ 6) لحن العوام ص 169 ـ 174 .

7 ـ ويقولون (يوم مهول) ، والصواب (يوم هائل) و (امر هائل) يقال : هالني الشيء يهولني هولا ، فهو هائل (1) .

8 ـ يقولون(استهتر الرجل فهو مستهتر)(بالكسر) والصواب(استهتر فهو مستهتر)(بالفتح)وهوالذي يخلط في اقواله وافعاله ، حتى كانه بلا عقل (2) .

9 ـ وتقول : هذه مروحة ومخدة ومقنعة ومنحفة وملة ومدبة ومغرفة ومقطرة ومطرقة ومدقة ومقرعة ومنطقة ومبرد ومطرد ومبضع ومنديل والمساح ـ موضع بطريق مكة ـ والمرنج ـ النجم ـ كله بكسر الميم والعامة تفتحها (3) .

10 ـ ويقولون في جمع بيضاء وصفراء وسوداء ، بيضاوات وصفراوات وسوداوات ، وهو لحن فاحش ، لان العرب لم تجمع فعلاء التي هي مؤنث افعل بالالف والتاء ، بل جمعته على (فعل) نحو بيض وصفر وسود ، كما جاء في القرآن (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود) وفي قول امريء القيس :

وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا
من الوحش او بيضا بميثاء محلال (4)

فالنماذج العشر السابقة ـ ومثلها كثير ـ تتعلق ببنية الكلمة العربية ، وتدخل تحت مباحث علم الصرف ، وترتب على ذلك ان الحكم عليها « باللحن والخطا » جاء في ضوء القواعد الصرفية فبعضها يتعلق باخلال بنطق حروف الكلمة بوضع حرف مكان آخر في (غمار وخمار) و (مقداف ومجداف) أو باجراء الاعلال وتركه على غير مقتضى قوانين الاعلال والابدال كما في (ازللت وزللت) او صياغة المشتقات على غير الطريقة المحددة لها في شكل الحروف وكميتها مثل (مغلق ومغلوق ـ مقفل ومقفول مهول وهائل ـ مروحة ومروحة .. الخ) . او في الهمز والتسهيل كما في (ميضاه وميضاة) او بناء الفعل للمعلوم والمجهول حسبما ورد عن العرب وقررته كتب الصرف كما في (استهتر واستهتر واستضحك واستضحك) او في صيغة الجمع للمفرد كما في (بيضاوات وبيض) . فكل هذه المباحث قرر لها علماء النحو والتصريف مباديء محددة ، وفي ضوء هذه المباديء غالبا نظروا الى طريقة استعمال اللغة على مدى العصور ، فكل ما وجدوه مخالفا لها ، حكموا عليه « باللحن » ونسبوه الى العوام .

ومن المفيد ان يعرف ان هذا النوع من الخطا قد حظي بعناية العلماء عناية فائقة في « كتب لحن العامة» مما لم ينل مثله المظهران الآخران من مظاهر اللحن اللذان يتعلقان بالمعاني او التراكيب والاعراب، ولعل ذلك يرجع الى الاعتقاد بان هذا المظهر من اللحن اشد خطورة على اللغة من المظهرين الآخرين لما يترتب عليه من « تشويه اللغة » وطمس المعاني واضطرابها ، بالاضافة الى ما اطمانوا اليه من ضخامة الجهود النحوية التي تقي من « اللحن » في الاعراب بالنسبة للجهود في بنية الكلمات ووضع القوانين لها .

ثالثا : من نماذج الخطا في التركيب والاعراب :

1 ـ تقول (شكرت لك ونصحت لك) ولا يقال (شكرتك ونصحتك) وقد نصح لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب ، قال الله تعالى (واشكروا لي ولا تكفرون) (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم (5) .

2 ـ قال الاخفش : اخبرني المبرد قال : انشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه :

وقد مضت لي عشرونان ثنتان

فقلت له : ايها الامير ، هذا لحن ، لان اعرابا لا يدخل على اعراب (6) .

3 ـ من اللحن قولهم (العوام) فيه تبارك وتعالى (هذه صفة ذاته ، وهو مباين بالذات) قال محمد (الزبيدي) ولا يجوز ان يلحق الالف واللام (ذو ولا ذات) في حال افراد ولا تثنية ولا جمع ، ولا تضاف الى المضمرات ، وانما تقع ابدا مضافة الى

(1،2) لحن لعوام ص 253 ـ 255 .
(3) تقويم اللسان ورقة 25 .
(4) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة ـ 104 .
(5) ما تلحن فيه العوام ص 25 .
(6) الوشح ص 357 .

الظاهر ، ــ الا ترى انك لا تقول (اللو ولا الذوان ولا الذون ولا الذات ولا الذوات ولا ذوك ولا ذوه ولا ذوهما ولا ذوهن ولا ذواتها ، ولا تقول : مررت بذاتــه ولا بذاتك) وقد غلط في ذلك اهل الكلام واكثر المحدثين من الشعراء والكتاب والفقهاء (1) .

4 ــ قال أبو زيد الانصاري : لقيت ابا حنيفة ، فحدثني بحديث فيه (يدخل الجنة قوم حفاة عــراة منتنين قد احمشتهم النار) فقلــت له : انما هــو (منتنون قد محشتهم النار) فقال : ممّن انت؟؟ فقلت: من أهل البصرة ، فقال : اكل اصحابك مثلك ؟؟ قلت: بل انا اخسهم حظا في العلم ، فقال : طوبى لقوم يكون مثلك اخسهم حظا (2) .

5 ــ ويقولون (ادخل باللص السجن) والصواب ان يقولوا (ادخل اللص السجــن) لان الفعل تــارة يعدى بهمزة النقل كقولك (خرج واخرجته) وتــارة بالباء ، كقولك (خرج وخرجت به) فاما الجمع بينهما فممتنع (3) .

6 ــ العامة تقول (فعل الغير ذاك) فيدخلــون على (غير) اداة التعريف ، والمحققون من النحويين يمنعون من ادخال الالف واللام عليــه ، لان المقصــود بدخول آلة التعريف على النكرة ان تخصصــه لعينه ، فاذا قيل (الغير) اشتملت هذه اللفظة على ما لا يحصى كثرة (4) .

7 ــ والعامــة تقول (لا افعل هــذا قط) في المستقبل (ولا افعله ابدا) وهو غلط ، والصواب ان تقوله في الماضي (ما فعلت هذا قط) اي فيما انقطع من عمري (5) .

8 ــ (غيــر) اسم ملازم للاضافة في المعنى ، ويجوز ان يقطع عنها لفظا ، ان فهم المعنــى وتقدمت عليها كلمة (ليــس) ، وقولهم (لا غير) لحن ، ويقال (قبضت عشرة ليس غيرها (6) .

9 ــ (عند) لا تقع الا ظرفا او مجرورة بمن ، وقول العامة (ذهبت الى عنده) لحن (7) .

10 ــ وتقول (ما رايته من امس ومن ايام) وهو غلط ، لان (من) تخــص المكان ومذ ومنذ يختصــان الزمان (8) .

ويلاحظ على الامثلة العشرة السابقة ان الكثير منها يتعلق بتاليف التركيب العربي ، والامــر الذى استقر عليه هذا التاليف بين النحاة ، وما جاء مخالفا للطرائق المنظمة لذلك ، ينبغي ان يدخل دائرة «اللحن والخطا» كما هو واضح تماما في (ادخــل باللــص السجن) و (شكرت لك ونصحت لك) و (لا افعــل هذا قط) والصحيح فيه (ما فعلت هذا قط) وكذلك (لا غير) والقواعد تقضي بأن التعبير الصحيح هــو (ليس غير) ــ كما ان بعض الاخطاء تعود ــ في نظر النحاة ــ الى استخدام الادوات بطريقة غير ما استقر عليه الامر ــ وبخاصة حروف الجر ــ كما في (ذهبت الى عنده) وصحتها (جئت عنده) و (جئت من عنده) وكذلك (ما رايته من امس) وتقضي القواعد استخدام (منذ) في هذا الموضع ــ كما يعود اللحن هنا كذلك الى الشكل الاعرابي ، وخروج الكلام عن مقتضاه ، كما في (عشرونان) اذ قال المبرد منبها على الخطأ فيها « ايها الامير ، هذا لحن ، لان اعرابا لا يدخل على اعراب » وكذلك قول ابي حنيفة (يدخل الجنة قوم حفاة عراة منتنين) حيث صححها له ابو زيد الانصاري بقوله (منتنون) تنبيها على الخطــأ الاعــرابي فــي الصفــة .

وطريقــة تاليــف الكــلام واستخــدام الادوات النحوية والاعراب كلها من المباحث التي يتناولها النحو مع غيرها من المباحث التي تتعلق بالتركيب اللغــوي واسراره .

والذى افهمه ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية في دراســة « لحن العامة » هو ايــراد لما حــدث في « اللغة الفصحى » وفي الاستعمال الخاص لهذه اللغة

---

(1) لحن العوام ص 12 .
(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 38 .
(3 ــ 4) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة 59 ــ 240 .
(5) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقــة 254 .
(6) المغني ج 1 ص 157 .
(7) المغني ج 1 ص 651 .
(8) رسالة في اغلاط العوام ورقة 122 .

في مجالات المواقف الجادة من القول بين العلماء والخاصة ، ويصح بناء على ذلك قبول ما رآه بعض الدارسين من ان « العوام » الذين اضيف اليهم « اللحن » في كتب « لحن العوام » هم عوام العلماء والخاصة ، فهو راي يقبل عن هذه الاخطاء القليلة التي تتعلق بالتركيب والاعراب اما غير ذلك من مظاهر اللحن المتعلقة بالمعاني او بنية الكلمات، وكذلك في هذا المظهر في اضافته الى العامة من الناس العاديين ، فالغلب ظني ان كل ذلك كان شائعا الى حد الكثرة ، وانه لم يكد القرن الثاني ينقضي حتى تنوعت العاميات وكثرت الاخطاء بين الناس العاديين والمتخصصين على سواء .

لكن : متى بدا اللحن في الكلام العربي وكيف تطور ؟

لا يستطاع الوصول الى حقيقة حاسمة عن هذه الظاهرة في العصر الجاهلي ـ شانها في ذلك شان كثير من ظواهر اللغة والادب من هذا العصر ـ فان كثيرا من شؤون الجاهلية تكاد تكون مطموسة تماما ، او على الاقل غير مؤكدة ، اذ تعتمد على الظن الغالب لا الادلة المقنعة ، والغالب ان اللغة العربية في العصر الجاهلي كان لها مستويات متعددة ، تختلف فيما بينها باختلاف القبائل وعرف كل قبيلة في لهجتها ، وان اللغة العامة التي كانت وسيلة التفاهم بين الجميع حدث فيها احيانا اللحن والخطأ ، ولو صح ان الاهتمام باللغة ودراستها قد تقدم به الزمن الى العصر الجاهلي ، لجاءتنا كتب في «لحن العامة» عن هذا العصر كما حدث في القرن الثاني الهجري وما تلاه حين نضجت الدراسة وتنوعت ، وكان اللحن احد المظاهر التي اهتمت بها . وقد روى ان طرفة بن العبد قال وهو صغير :

يا لك من قبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري
قد رفع الفخ فماذا تحذري

لا بد يوما ان تصادى فاصبري (1)

فما هو الوصف الذي كان من المتوقع ان يطلقه النحاة على عبارة (ماذا تحذري) غير الضرورة او اللحن على ان النحاة انفسهم قد خطاوا فيما بعد قول النابغة الذبياني :

فبت كأني ساورتني ضئيلة
من الرقش في انيابها السم ناقع

وقالوا : كان حقه ان يقول (ناقعا) لا (ناقع) فان النكرة لا تصف المعرفة .

وعلى كل حال فان كلمة «اللحن» قد ترددت بين العرب مع ظهور الاسلام فيما نقل عن عهده المبكر ، اذ نقل ان الرسول (ص) قال : انا من قريش ، ونشات في بني سعد فاني لي اللحن ، ونقل عن الصديق (ص) قوله : لان اقرا فاسقط احب الي من ان اقرا فالحن . و«ان قصة الكتاب المشهور الذي بعث به من العراق ابو موسى الاشعري الى عمر بن الخطاب وجاء فيه « من ابو موسى الاشعري » وما رد عليه عمر من قوله: اضرب كاتبك سوطا واحدا واجز عطاءه سنة (2) .

فان هذه الروايات المتناثرة ـ ان صحت ـ تدل على معرفة اللحن في ذلك العصر وفيما قبل ذلك العصر الاسلامي المبكر ، اذ ان استخدام اللفظة في ذلك الوقت المبكر وفهم المقصود منها حينذاك قد سبقه ما يسوغ هذا الاستخدام وذلك الفهم ، وفي ذلك دلالة غير مباشرة على حدوث ذلك في الجاهلية وان لم ينقل ذلك وتتناقل مظاهره .

وحين تاخر الزمن قليلا ـ في عهد الامويين في القرن الاول الهجري ـ اصبح اللحن قضية ذات خطر في استعمال اللغة ، وهذا طبيعي ! اذ اتسعت الدولة الاسلامية ، وكثرت دواعي الاختلاط بالاجانب من الحرب والجوار والخدمة والمعايشة ، وجاءت عن ذلك روايات تصور مواقف حدث فيها اللحن بين الخاصة وفي حضرة الخلفاء ؛ وهي لهذا السبب نفسه استحقت الرواية والتناقل ، ولنا ان نتخيل الاخطاء الكثيرة مما لم ينقله احد او يعني به ، لانه كان يحدث بين الناس العاديين من جمهرة العرب والمسلمين ، واكبر الدلالة على ضخامة ذلك وكثرته انه كان سببا في بداية النحو العربي حول النصف الاول من القرن الاول الهجري على اختلاف الرواة فيمن تنسب اليه تلك النشأة .

---

(1) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب جـ 3 ص 110 .
(2) انظر : مراتب النحويين ص 5 ـ 6 .

* كان لخالد بن يزيد بن معاوية اخ ، فجاءه يوما فقال : ان الوليد بن عبد الملك يعبث بي ويحتقرني ، فدخل خالد على عبد الملك ـ والوليد عنده ـ فقال : يا امير المؤمنين ، ان الوليد قد احتقر ابن عمه عبد الله واستصغره ـ وعبد الملك مطرق ـ فرفع رأسه وقال : (ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها ـ الآية) فقال خالد (واذا اردنا ان نهلك قرية ـ الآية) فقال عبد الملك : اني عبد الله تكلمني وقد دخل علي فما اقام لسانه لحنا !! فقال خالد : افعلى الوليد تعول !؟ فقال عبد الملك : ان كان الوليد يلحن ، فان اخاه سليمان ، فقال خالد : وان كان عبد الله يلحن ، فان اخاه خالد ـ في كلام كثير طويل (1) .

* تكلمت هند بنت اسماء بن خارجة ، فلحنت وهي عند الحجاج ، فقال لها : أتلحنين وانت شريفة في بيت قيس !! فقالت : اما سمعت قول اخي مالك لامرأته الانصارية ؟ قال : ما هو ؟! قالت :

منطق صائب وتلحن احيانا
وخير الحديث ما كان لحنا

فقال لها الحجاج : انما عنى اخوك اللحن في القول ـ اذا كنى المحدث عما يريد ـ ولم يعن اللحن في العربية فاصلحي لسانك (2).

* وروي عن الاصمعي قوله : اربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل ، الشعبي وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج افصحهم (3) .

والواضح من هذه الروايات الثلاث انها جاءت عن شخصيات لها تميزها في العصر الاموي سواء من حدثت منه او من حدثت في حضرته او من قيلت منه ، ويعود هذا التميز الى انهم من اصحاب الحكم او من اهل العلم في العصر الاموي ، فكيف كان الامر بين العوام من الناس ؟! ومع ذلك فانها تدل على العار والاحتقار اللذين يتعرض لهما من « يلحن » في حديثه ، كما هو واضح في تلك الملاحاة الحادة بين خالد بن يزيد وعبد الملك عن عبد الله بن يزيد والوليد ابن عبد الملك كما ان فيها دلالة على التشدد والعنف مع من يلحن في كلامه كما هو واضح في ذلك الانكار والردع من الحجاج لهند بنت اسماء ـ كما تدل في الجانب المقابل على ان «الخلو من اللحن» يمثل الجانب الشريف الذي يستحق به صاحبه الفخر والثناء ، كما هو واضح من اسلوب الاعجاب الذي يقرر به الاصمعي هذه الحقيقة عن الشعبي وعبد الملك والحجاج وابن القرية .

فما روي من « مواقف اللحن » في القرن الاول الهجري قد لابسه العار والاحتقار او الانكار والردع، او استحقاق من يعري عنه الفخر وحسن الذكر مما يفهم منه ان اللحن كان يمثل في ذلك الوقت امرا جديدا خطيرا ، او بعبارة ادق : ان شيوعه بين الناس كان ظاهرة جديدة خطرة يستحق من يبرأ منها الثناء والشكران ، كما يستحق مرتكبها الزجر والنكران .

فاذا ما تأخر الزمن الى القرن الثاني الهجري ـ وبخاصة النصف الثاني منه وما تلاه ـ اصبح ما كان احساسا بالخطر خطرا حقيقيا ملموسا ، وما كان مواقف متناثرة تذكر فتنكر امرا شائعا بين الناس من غير نكير ، وترتب على ذلك نشاط علمي متنوع ، ففي رواية اللغة رحل العلماء للبادية ، وانصرفوا عن الحضر بعد ان شاع فيه اللحن ، فلم تعد اللغة ـ في نظرهم ـ اهلا للنقل والاحتجاج ، وفي الدراسة اللغوية نشطت حركة التنقية التي بدأت في هذه الفترة بكتاب الكسائي الذي لا يزال موجودا بين ايدينا للآن عن « ما تلحن فيه العامة »

* قال الرشيد يوما لبنيه : ما ضر احدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ، أيسر احدكم ان يكون لسانه كلسان عبده او امته (4) !! .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلام لحن فيه ، فقال جعفر بن يحيى : يا امير المؤمنين انه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : أتلحن يا يحيى ؟! فقال : يا امير المؤمنين : ان طباع اهل البدو الاعراب ، وطباع اهل الحضر اللحن ، فاذا حفظت او كتبت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه (5) .

---

(1) صبح الاعشى ج 1 ص 168 .
(2) امالي المرتضى ـ القسم الاول ص 15 .
(3) امالي الزجاجي ص 20 .
(4) صبح الاعشى ج 1 ص 168 .
(5) صبح الاعشى ج 1 ص 173 .

* وكان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات اذا ركبها، وكان يتاذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فوجه الى ابي العتاهية — وهو سجين — فصنع لهم « زهديته » التى ابكت الرشيد حين سمعها منهم ، وفيها :

نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنوح
لتموتن وان عمرت ما عمر نوح (1)

وقد اخترت هذه النماذج الثلاثة قصدا عن « عهد الرشيد » الذى عاصر الفترة الاخيرة من القرن الثاني ، وهي تدل على الامور الآتية :

ان اجادة الفصحى اصبحت صناعة يحث الرشيد ابناءه على الاخذ منها بما يصلح النسان كيلا يكونوا كمن يخالطونهم من العبيد والاماء فى اللحن والخطأ .

وان العلماء انفسهم كانوا يلحنون فى حياتهم العادية ، ولم يروا ذلك عيبا يغض من شأنهم ، وقد اعترف بذلك الفراء قائلا « اذا حفظت او كتبت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع ، لحنت » ونال هذا الاعتراف استحسان الرشيد ، لانه الحقيقة .

وان العامة كانوا اشد من ذلك لحنا ، ويمثلهم هؤلاء الملاحون فى الزلالات الذين يغنون على مقتضى طبيعتهم ، فيعجب غناؤهم الرشيد لكنه يتاذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فمنع عن نفسه التاذي بتقديم الكلام الفصيح لهم لكن من السدى يمنع ذلك منهم او عن غيرهم حين يغنون او يتكلمون فى غياب الرشيد !!

وقد استمرت موجة اللحن قوية مندفعة ، واطرد نموها بتاخر الزمن ، فالقرن الثالث اقل حظا فى الفصاحة من القرن الثاني ، وفى الجانب المقابل عظم اللحن اكثر من ذى قبل .

وقد روى الجاحظ نوادر كثيرة من « اللحن فى القرن الثالث » فى كتابه البيان والتبيين مما سمعه ووصفه ، وعابه على من يتكلفون الفصاحة من علماء اللغة والاعراب، فقال : « ان اقبح اللحن لحن اصحاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورية والتفخيم ، واقبح من ذلك لحن الاعاريب النازلين على طرق السابلة ، وبقرب مجامع الاسواق (2) » واذا كان اللحن قد امتد الى هؤلاء الاعراب والعلماء المتقعرين فى نطق اللغة ، فلنا ان نتصور ما كان بين عامة الناس الذين لا يجيدون اللغة بالطبع او بالصنعة.

اما فى القرن الرابع الهجري — الذى انهى فى آخره الاستشهاد — فقد وصل الامر الى مده ، وطغى اللحن على الخاصة والعامة وعلى اصحاب الطبع فى البادية واصحاب الصنعة فى الحضر .

* يقول الآمدي : والمتاخرون لا يكادون يسلمون من اللحن ، وهذا فى اشعارهم كثير جدا (3).

* ويقول ابو جعفر النحاس : وقد صار اكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا حتى انهم يحتجون بما يزعمون ان القاسم بن مخيمرة قال : النحو اوله شغل ، وآخره بغي (4) .

والآمدي وابو جعفر النحاس من علماء القرن الرابع الهجري الذين عاصروا فترة نهاية الاستشهاد باللغة الذى كان من اهم عوامله شيوع اللحن بين الناس حتى الشعراء انفسهم ، واصبح اللحن لا يكاد احد من المتاخرين يسلم منه — كما يقول الآمدي عن معاصريه — وصار اكثر الناس يطعن على متعلمي العربية جهلا وتعديا — كما يقول النحاس — ومن قبل كان تعلم العربية من الامور التى يتواصى بها الناس ، ويحض عليها الخلفاء والحكام ، وهكذا انقلب الامر ، فاصبح تعلم العربية عن طريق الصناعة النحوية موضع سخرية الناس « والنحو اوله شغل وآخره بغي » — تماما كما كنا نعيش اليوم فى عصرنا الحاضر .

وليس من المفيد كثيرا ان نتابع تطور « قضية اللحن » بعد عصر الاستشهاد ، فقد اصبح «اللحن» هو القاعدة بين الناس فى حياتهم العامة ، وتسرب الى التاليف العلمي نفسه ، كما هو واضح فى بعض موسوعات التاريخ فى القرن السادس وما بعده — وسنأتي نماذج من ذلك — حتى قال احد المتاخرين « ان اللحن قد فشا فى الناس والالسنة قد تغيرت ، حتى صار التكلم بالاعراب عيبا ، والنطق بالكلام الفصيح عيا (5) » .

فماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

---

(1) انظر : الاغاني جـ 3 ص 171 .
(2) البيان والتبيين جـ 1 ص 146
(3) الموازنة جـ 1 ص 416 .
(4) صبح الاعشى جـ 1 ص 171 .
(5) صبح الاعشى جـ 1 ص 173 .

لقد نظر علماء اللغة اليه من زاوية « الخطا » فقاوموه بعنف ، ومع ذلك لم ينتصروا في معركتهم معه ، بل أن العكس هو الصحيح ، اذ انتصر اللحن بغلبة الاستعمال وقهر المجتمع اللغوي المتطور باستمرار .

وقد بدات هذه المقاومة منذ القرن الثاني الهجري ، واستمرت فيما تلا ذلك من عصور والجدول الآتي « لكتب لحن العوام » ومؤلفيها ـ مما عرفته على قدر جهدي ـ يوضح ذلك :

اسم الكتاب	المؤلف وتاريخ وفاته		الاشارة الى ما هو موجود
1 ـ ما تلحن فيه العوام	علي بن حمزة الكسائي	(172)	مطبوع
2 ـ ما يلحن فيه العامة	يحيى بن زياد الفراء	(207)	
3 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي عبيدة معمر بن المثني	(210)	
4 ـ ما يلحن فيه العامة	لابن نصر احمد بن حاتم الباهلي	(231)	
5 ـ اصلاح المنطق	لابي السكيت يعقوب بن اسحاق	(244)	مطبوع
6 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي عثمان المازني	(248)	
7 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي حاتم السجستاني	(250)	
8 ـ تقويم اللسان (ادب الكاتب)	لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة	(276)	مطبوع
9 ـ لحن العامة	لابي حنيفة احمد الدينوري	(290)	
10 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي العباس احمد بن يحيى ثعلب	(291)	
11 ـ ما يلحن فيه العامة	لابي الهيذام كلاب بن حمزة العقيلي	(300)	
12 ـ اللحن الخفي	هاشم بن احمد الحلبي	(377)	
13 ـ لحن العوام	لابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي	(380)	مطبوع
14 ـ لحن الخاصة	لابي هلال العسكري	(395)	
15 ـ تثقيف اللسان	عمر بن مكي الصقلي	(501)	مطبوع
16 ـ درة الغواص	لابي محمد القاسم بن علي الحريري	(516)	مطبوع
17 ـ تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة	لابي منصور الجواليقي	(539)	مطبوع
18 ـ تقويم النسان	لابي الفرج عبد الرحمن الجوزي	(597)	مصور
19 ـ لحن العامة	ابن هشام محمد بن احمد اللخمي	(600)	مصور
20 ـ ناظر انسان عين المعاني	محمد بن احمد بن جامع	(727)	مصور
21 ـ لحن العامة	لابن هاني محمد بن علي السبتي	(733)	
22 ـ غلطات العوام	جلال الدين السيوطي	(911)	مخطوط
23 ـ التنبيه على غلط الجاهل والنبيه	لابن كمال احمد بن سليمان	(940)	مطبوع
24 ـ بحر العوام فيما اصاب فيه العوام	رضى الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي	(971)	مطبوع
25 ـ غلطات العوام	مصطفى بن محمد خسرو زاده	(1000)	مصور
26 ـ لف القماط لتصحيح ما استعملته العامة	محمد صديق بن حسن البخاري	(1307)	مطبوع
27 ـ اغلاط العوام والخواص	(مجهول)		مصور
28 ـ سقطات العوام	(مجهول)		مصور
29 ـ اصول الكلمات العامية	حسن توفيق العدل	(1322)	مطبوع
30 ـ تهذيب العامي والمحرف	حسن علي البدراوي	( )	مطبوع

ملاحظات على مقاومة العلماء اللحن :

1 ـ بنظرة واحدة الى الجدول السابق الذى امكنني معرفة مافيه من كتب لحن العوام ـ الموجود منها والمفقود ـ يتضح ان مقاومة العامية كان شديدا فى القرن الثاني والثالث والرابع ثم بدا يقل تدريجيا بعد ذلك ، ولهذا دلالته ، حيث قاوم العلماء بقوة مظاهر اللحن فى الفترة التى كانت اللغة موردا للدراسة ، والصلة قريبة بين المادة التى اعتقدوا نقاوتها حين ترد من البادية ، وبين تنقية الفصحى المستخدمة فى الحضر قياسا عليها .

2 ـ كان من المفترض ان تعتمد التنقية على استقراء لاستعمال اللغة التى يعاصرها المؤلف والتى تستعمل بين الناس فى عصره ، ولكن الذى حدث ـ فيما اطلعت عليه منها ـ لم يكن كذلك، بل اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، فكانوا ينقلون غالبا ما اورده من سبقوهم فى كتبهم وعلى سبيل المثال اعتمد ابن قتيبة فى « تقويم اللسان» على ابن السكيت فى «اصلاح المنطق» واعتمد الزبيدي فى «لحن العوام» على من سبقه من العلماء ، فكان يذكر اسماءهم دون كتبهم ـ واعتمد ابن الجوزي فى «تقويم اللسان» على كتب من سبقوه ، وذكر فى مقدمة الكتاب انه جمع فيه ما رآه مبددا فى كتب من سبقوه ، وانتخب من ذلك ما تمم به الباوى دون ما يشذ استعماله ويندر ، ونقل السيوطي كتاب ابن الجوزي برمته ، ونسبه لنفسه تحت عنوان « غلطات العوام » .

3 ـ يلاحظ انه يقصد بالعوام والعامة فيما اطلعت عليه من تلك الكتب الناس العاديون بدليل النص احيانا على الخواص والخاصة ، ولكن الذى قصدوه بالتنقية هو اللغة الفصحى بعد ان اصبحت تستعمل فى مستوى خاص ، وتسرب اليها « لحن العوام » فبقيت النسبة الى العوام، وان كان المقصود بذلك ما حدث فى اللغة الفصحى التى يستعملها الخاصة ، وبذلك نفهم قول الزبيدي (فى مقدمة كتابه « لحن العوام » ص 8) « فهذا مما افسدته العامة عندنا ، فاحالوا لفظه او وضعوه غير موضعه ، وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة ، حتى ضمنته الشعراء اشعارهم ، واستعمله جلة الكتاب وعنية الخدمة فى رسائلهم ، وتلاقوا به فى محافلهم ، فرايت ان انبه عليه ، وابين وجه الصواب فيه » .

وعلى ذلك فانه لا معنى للتكلف بتوجيه معنى (العامة) الى «عامة العلماء» كما حاول ذلك بعض الدارسين فى العصر الحديث .

4 ـ تمنيت ان اجد فى احد هذه الكتب حديثا عن « اللحن » فكرة وموضوعا ، لكن لم تتحقق لي تلك الامنية فى احدها ، اذ يتجه الحديث فيها مباشرة ـ بعد مقدمة قصيرة ـ الى ايراد الكلمات وبيان خطئها او صحتها اعتمادا على النقل فى غالب الاحيان كما سبق ذلك .

5 ـ ومع نظرة الى هذه الجهود الطيبة المخلصة فى الجدول السابق ـ والى غيرها مما لم اعرفه ـ يتساءل المرء : هل نجحت كل هذه الجهود فى حل قضية اللحن ، وايقاف تياره المتدفق ؟

تساؤل يتضح المقصود منه فى الفقرة التالية ان شاء الله .

نظرة النحاة الى اللحن بين القواعد والاستعمال :

ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير لا عسر فيه ، فقد نظروا اليه من زاوية « الخطا » واعتبروه انحرافا عن الطريقة الصحيحة التى ينبغي ان يأتي عليها النطق العربي السليم ، ولم يأخذ فى الاعتبار لديهم قوة الاستعمال وقهره ، وما يترتب على ذلك من تطور وتغير ، فان اللغة ـ شانها شان الظواهر الاجتماعية كلها ـ تتطور باستمرار فى معانيها وبنيتها وتراكيبها ولا تخضع طويلا للقواعد المنسقة والنظام الجميل ، لان اللغة نظامها الذى يفرضه استعمالها بين المتكلمين بها ، وعمل الباحث اللغوي ملاحقة التطور لا مصادرته ، وملاحظته لا تجميده ، فان المصادرة والتجميد لا يمكن تحقيقهما بالنسبة للغة نفسها ، وان امكن ذلك بالنسبة لدراستها ومن يدرسونها .

ونظرة النحاة لما اسموه «اللحن» من زاوية «الخطا» كان سندها « القواعد الحادة » التى وضعوها والزموا انفسهم بها ، وان لم يستطيعوا فرضها على الاستعمال المتطور باستمرار .

ويمكن توضيح ذلك وتاييده بالامور الثلاثة الآتية :

1 ـ جهود النحاة في مقاومة اللحن ودورانها حول القواعد .

2 ـ خضوع النحاة انفسهم لسطوة اللحن مع انهم حراس القواعد .

3 ـ التصاعد الذى قام ـ واستمر قائما ـ بين القواعد المصنوعة وواقع الاستعمال .

لقد ارتبطت بداية النحو بحدوث اللحن ، والروايات التى رويت عن ذلك كلها تقرر هذه الفكرة صراحة او تمثيلا بوصف صورة النطق الملحون فيه والذي كان الدافع المباشر لوضع القواعد،ويبدو انهذه الصلة بين القواعد واللحن فى فترة البداية ظلت قائمة بعد ذلك مع تقدم الزمن ونضج الدراسة ، وهي صلة قوامها التنافر بين القواعد وما خرج عن هذه القواعد من مظاهر اللحن ، على ان تكون القواعد ـ من وجهة نظر النحاة ـ هي الحكم فى هذه المظاهر ، او بعبارة اخرى ان القواعد هي « الصواب » وان ما لا يتفق معها من مظاهر الاستعمال هو « الخطأ » .

* قال ابن سلام : اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية ، فكان سراة الناس يلحنون ، ووجوه الناس ، فوضع ابو الاسود باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم (1) .

* وروى القفطي عن ابي الاسود قال : دخلت على امير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ فاخرج لي رقعة فيها (الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) قال : فقلت : ما دعاك الى هذا ؟ قال : رايت فسادا فى كلام بعض اهلي ، فاحببت أن ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطأ ، فاخذ ابو الاسود النحو عن علي ـ عليه السلام ـ ولم يظهره لاحد (2) ، ثم اظهره فيما بعد .

وينبغي التوقف فى فهم هاتين الروايتين عن نشأة النحو عند عبارتين فيهما هما (غلبت السليقة ولم تكن نحوية) و (رايت فسادا فى كلام بعض اهلي فاحببت أن ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطأ) فان هاتين الروايتين تؤيدان ما نزعمه عن طبيعة الصلة بين القواعد والسليقة غير النحوية التى يطلق عليها « اللحن » منذ البداية ، واتخاذ القواعد ـ منذ البداية ايضا ـ سلطة للتمييز بين « الصواب والخطأ » كما قال ـ عليه السلام ـ ان صحت نسبة الرواية الثانية .

وقد بقي هذا الفهم نفسه قائما على مدى الزمن ، اذ طبقة الدارسون ، وخضع له الناطقون بل ازداد مع تقدم الزمن قوة وثباتا ، وفى الوقت نفسه اطرد نمو طرفي القضية من « القواعد » و « السليقة غير النحوية » فزادت مؤلفات النحو تضخما ، وفى الجانب المقابل كان اللحن يزداد انتشارا ، وحين الف سيبويه « كتابه » كان اللحن فى الحضر خطرا صرف العلماء عن لغته الى البادية .

كما انه بالاطلاع على الكتب التى الفت نصا فى مقاومة اللحن ـ مر جدول عرضها فى الفقرة السابقة ـ يتضح فيها هذا الفهم نفسه الذى يجعل القواعد مقياسا للصواب فيما وسم باللحن والخطأ من معاني الكلمات وبنيتها وتراكيبها ، ويتبين ذلك فى طريقة العرض او فى ذكر القواعد احيانا لتصحيح الخطأ .

* قال الكسائي : وتقول : شكرت لك ونصحت لك ، ولا يقال : شكرتك ونصحتك وقد نصح فلان لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب (3) .

* وقال ابن السكيت : باب ما جاء على (فعلت) بالفتح مما تكسره العامة او تضمه يقال (ما عسيت ان اصنع) قال الله جل ذكره (فهل عسيتم ان توليتم) ولا ينطق منها باستقبال (4) .

* وقال الحريري : يقولون : (انضاف الشيء اليه وانفسد الامر عليه) وكلا اللفظين ليستا من كلام

(1) طبقات فحول الشعراء ص 12 .
(2) انباه الرواه جـ 1 ص 5 .
(3) ما تلحن فيه العامة ص 25 .
(4) اصلاح المنطق ص 188 .

العرب ، وانما يقال (اضيف الشيء اليه وفسد الامر عليه) فلا يأتي منهما ذلك (1) .

فهذه نماذج يتبين منها كيفية الطريقة التي سلكها العلماء في جهودهم لمقاومة اللحن ، واذا كان الكسائي يصحح الخطأ قائلا (هذا كلام العرب) فابن السكيت والحريري يذكران « القواعد » مقاييس التصويب للاستعمال الموسوم بالخطأ واللحن ، فقاعدة ابن السكيت في المثال السابق هي « ما جاء على فعلت بالفتح مما تكسره العامة او تضمه » وقاعدة الحريري « المطاوعة تأتي من الثلاثي المتعدي ، اما الثلاثي اللازم فلا يأتي منه ذلك .

هذا هو طابع الجهد الذي بذل في مقاومة اللحن، يلخصه انه « التمسك بالقواعد اساسا للتصويب ، وايراد ما لا يوافق من مادة اللغة للحكم عليه بالتخطئة»

اما الامر الثاني الذي يدل على سطوة القواعد على اذهان الدارسين بمقدار ما يدل على سطوة الاستعمال على السنة المتكلمين فيمثله تلك المفارقة الطريفة عن افراد من علماء النحاة نسب الى بعضهم انه كان يتقعر ويغرب في حديثه على الناس حتى لا يكاد يفهم ، ونسب الى البعض الآخر انه كان يلحن في كلامه ، وربما امترف احيانا بوقوع ذلك منه ، ولم يعتبره شيئا ينقص من شأنه .

وعلى الرغم من ان هذين المظهرين يمثلان طرفين متباعدين في الكلام فان النظرة المدققة تكشف انهما يصدران عن ظرف لغوي واحد هو «سطوة الاستعمال» الذي وصفه ابن سلام بقوله « غلبت السليقة، ولم تكن نحوية» فقد دفع ذلك بعض النحاة التي التظاهر احيانا من التمكن من تلك السليقة النحوية : فاغربوا في حديثهم وفخموه ، واستسلم آخرون للاستعمال اللغوي الشائع ، فخضعوا له معترفين بانه الواقع وان خالف قوانين النحو وقواعد الاعراب .

ومن النحاة الاول الذين روي عنهم التقعر والاغراب عيسى بن عمر الثقفي (ت 149) الذي روي عنه ذلك في كتب الطبقات التي ترجمت له ، ومن ذلك هذا الموقف الطريف الذي كان يضرب فيه بالسياط لوديعة اضاعها وهو يصيح قائلا : « والله ما كان الا اليابا في اسيفاط قبضها عشاروك (2) »

وروي ذلك ايضا عن ابي علقمة النحوي الذي ساق السيوطي عنه المشهد الطريف التالي :

* مر ابو علقمة يوما على عبد حبشي وصقلبي ، فاذا الحبشي قد ضرب بالصقلبي الارض فادخل ركبتيه في بطنه ، واصابعه في عينيه ، وعض اذنيه ، وضربه بعصا فشجه ، وسال دمه ، فقال الصقلبي لابي علقمة : اشهد لي ، فمضوا الى الامير : فقال له الامير : بم تشهد ؟! فقال : اصلح الله الامير، بينا انا اسير على كودني ، اذ مررت بهذين العبدين ، فرايت الاسحم قد مال على هذا الابقع ، فحطاه على قدقد ، ثم ضغطه برضفتيه في احشائه ، حتى ظننت انه تدمج جوفه ، وجعل يلج بشناتره في جحمتيه يكاد يفقؤهما ، وقبض على صنارتيه بميرمه، وكاد يحدهما ، ثم علاه بمنساة كانت معه ، فمجفه بها ، وهذا اثر الجريان عليه بينا .

فقال الامير : والله ما فهمت مما قلت شيئا .

فقال ابو علقمة : قد فهمناك ان فهمت ، واعلمناك ان علمت ، واديت اليك ما علمت وما اقدر ان اتكلم الفارسية .

فجهد الامير في كشف الكلام حتى ضاق صدره، ثم كشف الامير راسه ، وقال للصقلبي : شجني خمسا ، واعفني من شهادة هذا (3) .

وقد يثير هذا المشهد ابتسامة الشفقة على ابي علقمة الذي يحمل نفسه هذا الجهد الثقيل من التقعر والاغراب ، امام الامير الذي يعاصره ولكنه لا يستطيع فهم كلامه ، لانه يمثل الاستعمال العادي للكلام ، ومع ذلك فان لابي علقمة من ظروفه الخاصة ومن ظروف عصره ما يقدم له العذر في طريقته الغريبة ، فهو نحوي قام في نفسه ان الكلام العادي داخله الفساد ، ومن حقه ان يستعمل طريقة توافق لغة النحو التي يستنبط منها قواعده .

اما لحن علماء النحو في حياتهم العادية واعترافهم بذلك ، فهو مظهر مهم ، اذ ان في هذا الاعتراف نفسه دلالة على سطوة الاستعمال حتى

---

(1) درة الغواص ص 22 .
(2) معجم الادباء جـ 16 ص 149 .
(3) بغية الوعاة جـ 2 ص 139

على النحاة الذين يناصرون القواعد ، ويفرضون سلطانها على الاستعمال اللغوي .

* اورد الاصفهاني ان مروان بن ابي حفصه وجه كلامه لحماد الرواية في حضرة الوليد بن يزيد فقال : ما كلام هذا في مجلس امير المؤمنين وهو لحانة !! فتهافت الشيخ ، ثم قال : يا ابن اخي ، انا رجل اكلم العامة ، واتكلم بكلامها (1) .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلم لحن فيه ، فقال له جعفر بن يحيى : يا امير المؤمنين انه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : اتلحن يا يحيى !! فقال : يا امير المؤمنين ، ان طباع اهل البدو الاعراب وطباع اهل الحضر اللحن ، فاذا حفظت او كتبت لم الحن ، واذا رجعت الى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه (2) .

* وقال ابو الطيب اللغوي : كان على المديني لا يغير الحديث وان كان لحنا ، الا ان يكون من لفظ النبي (ص) فكانه يجوز اللحن على من سواه (3) .

فهذه المواقف المتناثرة ـ على قلتها ـ قد اعترف فيها بعض النحاة على انفسهم باللحن وانهم يخضعون له جريا على استعمال بقية الناس ، لكنهم في مجال الدراسة ، لم ياخذوا ذلك في الاعتبار ، بل حكموا القواعد في ذلك ، وحكموا على مظاهر اللحن بالخطا

اما الامر الثالث والاخير ـ فيما نحن بصدده ـ فهو التصدع بين القواعد المصنوعة واستعمال اللغة ، وهذا امر حدث مبكرا ، ونقلت الينا بعض نماذجه في المشاحنات التي كانت تحدث بين العلماء والشعراء ، ومن ذلك ما حدث بين ابي اسحاق والفرزدق وبين الاخفش وبشار وبين ابن خالويه والمتنبي ـ ونماذجه اشهر من ان تذكر ـ وفي هذه المواقف ـ على قلتها ـ يتمثل ايضا الصراع بين القواعد في يد النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يخضع لتلك القواعد .

واذا كانت تلك المواقف القليلة تمثل هذه الظاهرة فقط ، فان واقع الامر اخطر من ذلك واكثر ، اذ ان مظهر الصراع بين القواعد التي استمسك بها النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يتوافق مع تلك القواعد ـ على الاقل منذ القرن الثاني الهجري ـ ترتب عليه اتساع الهوة دائما بين طرفي القضية ، فعانى النحاة من ذلك قديما ، وما زالت هذه المعاناة قائمة حتى اليوم .

اخيرا :

يتضح من عرض الامور الثلاثة السابقة لموقف النحاة مما اطلق عليه « اللحن » تاييد ما افتتحت به هذه الفقرة من رؤياهم له من زاوية « الخطا » وان الذي وجه هذه الرؤية هو مقياس (القواعد لا الاستعمال) وضح ذلك في جهودهم اللغوية ، وبعض مواقف حياتهم الشخصية ، وفي هذا الفراق والخصومة القائمة بين كلا الامرين القواعد والاستعمال .

تلك وجهة نظرهم ، اما مدى توفيقهم فيها ، فله حديث آخر في القسم الاخير من هذا البحث ان شاء الله .

— * —

« التصحيف والتحريف »

معنى التصحيف والتحريف وعلاقاتها باختلاف المعنى والبنية والاعراب :

« التصحيف والتحريف» لفظتان بينهما صلة حميمة ، وقد جمعهما العلماء احيانا عنوانا لمؤلف واحد ، كما فعل ابو احمد العسكري في مؤلفه « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » وكما فعل من بعده الصفدي في كتابه الموسوعي « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف» وقد شرح « التهانوي » في « كشاف اصطلاحات الفنون » المقصود منهما في مكان واحد .

وتعود الصلة بين اللفظتين ـ مع التجاوز عما فيهما من جناس لفظي ـ الى ان مجال البحث فيهما ـ كما فهمه المتقدمون من العلماء ـ واحد ، وهو البحث عن الخطا الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطا الاملائي في قراءة الحروف المكتوبة ، سواء اكان الخطا في نقط الحروف او شكلها او تبادلها الامكنة .

فالتصحيف والتحريف مظهران للخطا في قراءة الخط المكتوب ، ويترتب على ذلك نطق كلمة جديدة

(1) الاغاني جـ 14 ص 110 .
(2) صبح الاعشى جـ 1 ص 173 .
(3) مراتب النحويين ص 6 .

قد تكون صحيحة لغة ومعنى ، لكنها غير الكلمة التى قصدها صاحبها حين نطق بكلامه ، او نطق كلمة ذات بنية محرفة فى صيغتها ، ويرجع انحرافها الى التغيير فى حروفها او الشكل الداخلي لها ، بل ان مؤلفات « التصحيف والتحريف » قد ورد فيها احياناً أمثلة ــ وان كانت قليلة ــ لاخطاء اعرابية تعود ايضا الى الخطأ فى الكتابة او التوسع فى فهم ما يطلق عليه « التحريف » بما يشمل ما يطلق عليه اسم « اللحن » ويتضح هذا المظهر الاخير فى كتاب الصفدي (ت 764) « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » اذ اورد كثيرا من امثلة «اللحن» فى كتابه، ويؤيد هذا نصا ما أورده فى بداية كتابه من انه نقله من السابقين عليه ، وقال « لم يكن لي فى هذا غير التهذيب وحسن الرصف فى التبويب الا ما يتخلل اثناء ذلك من تفسير وتقييد وتقرير وتمهيد» وقد عدد ما اعتمد عليه من كتب السابقين ، وكان منها ما هو نص فى « لحن العوام » مثل «ما تلحن فيه العامة» للزبيدي ، و « تثقيف اللسان » لابن مكي و « درة الغواص » للحريري ، و«تقويم اللسان» لابن الجوزي الخ .. فما صنعه الصفدي يحتمل امرين ، الرغبة فى تضخيم كتابه فأورد فيه ما يتعلق « باللحن » ايضا وان لم يكن من «التصحيف والتحريف» او التوسع فى فهم المقصود « بالتحريف » بما يشمل اللحن ايضا، وسواء اكان هذا او ذاك ، فان ما يهم فى هذا الموضع ان الصفدي قد اورد فى كتابه كثيرا من امثلة « اللحن » وان غيره من سابقيه قد ورد ذلك عندهم على قلة .

لكن « ليس معني ما تقدم إن كل واحدة من اللفظتين « التصحيف والتحريف» لم تكن تستخدم الا ومعها الاخرى ملازمة لها ، فان لفظة « التصحيف » استخدمت وحدها كثيرا فى مواقف الخطأ فى القراءة التى رويت امثلتها عن علماء القرن الثاني الهجري مما نقلته الينا كتب الادب العامة او الكتب المؤلفة نصا فى موضوع « التصحيف والتحريف » فيما بعد ، وقد جاءتنا عناوين تلك المؤلفات مقتصرة على تلك اللفظة وحدها واقدمها ــ فيما اعلم ــ ما صحف فيه الكوفيون للصولى (ت 335) و « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الاصبهاني (ت 360) ويبدو ان كلمة « التصحيف » استخدمت وحدها اولا فى وصف خطأ القراءة لما هو مكتوب ، ثم انضمت اليها فيما بعد كلمة « التحريف » مع تداخل المقصود منهما او تخصيص كل واحدة منهما بنوع من خطأ القراءة كما سيتبين بتفصيل فيما بعد .

هذه مقدمة عامة عن لفظتي « التصحيف والتحريف » من حيث الصلة بين معنييهما واستخدام العلماء لهما ، لندرج من ذلك الى بيان الامور الآتية عن هذين المظهرين من مظاهر الخطأ فى اللغة من وجهة نظر علمائنا الاقدمين :

1 ــ التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحريف .

2 ــ سبب وقوع ذلك فى الكتابة العربية خاصة .

3 ــ علاقة مظاهر الخطأ التى ترتبت على ذلك فى المعنى والبنية والاعراب والبحث فى اللغة مع انها تعود اصلا الى رسم الكتابة .

قبل سوق ما ذكره العلماء عن معنى «التصحيف والتحريف » ينبغي اولا معرفة انواع التغيير التى يمكن ان تحدث فى قراءة الكتابة العربية ، ويترتب عليها رواية خاطئة ، وهي اربعة يوضحها الجدول الآتي :

تغيير فى النقط		تغيير فى الحركات		تغيير فى الحروف		تغيير فى الاعراب
الكلمة	مقابلها	الكلمة	تغييرها	الكلمة	تغييرها	لو قرأ قارىء فى المصحف (أن الله
الثوم	النوم	جمهور	جمهور	المباس	المباط	بريء من
العسل	الفسل	دمشق	دمشق	ببغان	بغبغان	المشركين ورسوله)
رحل	رجل	عفريت	عفريت	رجل	راجل	بكسر اللام فى
هم	غم	رصاص	رصاص	عن الله عن	عن إلله عن	(رسوله)
القاضية	القاضية	قنديل	قنديل	وخيل سراطية	رجيل شواتيه	

وهذه النماذج السابقة قد ورد لها مواقف ونصوص تؤيدها ليس هنا مجال ذكرها ، فان القصد من ذكرها هنا ايضاح انواع التغيير تمهيدا لايراد آراء العلماء عن التصحيف والتحريف .

* قال حمزة الاصفهاني : أجاب اهل المعاني في معاني التصحيف فقالوا : ان يقرا الشيء بخلاف ما اراده كاتبه ، وعلى غير ما اصطلح عليه في تسميته ، واما لفظ (التصحيف) فان اصله ، ـ فيما زعموا ـ ان قوما كانوا اخذوا العلم عن الصحف من غير ان يلقوا فيه العلماء ، فكان يقع فيما يروونه التغيير ، فيقال عندها : قد صحفوا فيه ، اي : رووه عن الصحف ، ومصدره (التصحيف) مفعوله (مصحف) فاما (المصحف) فماخوذ من (اصحف اصحافا) واصله ان الصحف جمعت فيه ، فقيل : قد اصحف ـ ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز (1) .

* قال ابو احمد العسكري : فاما معنى قولهم (الصحفي والتصحيف) فقد قال الخليل : ان الصحفي الذي يروي الخطا على قراءة الصحف باشباه الحروف . (2)

* قال المراكشي : المخالفة في الحديث ان كانت بتغيير حرف او حروف مع بقاء صور الخط ، فان كان ذلك بالنسبة للنقط فالمصحف ، وان كان بالنسبة للشكل فالمحرف .. واما اللحن فمما يرجع للاعراب (3)

* قال التهانوي : قالوا : مخالفة الراوي للثقات ان كانت بتغيير الحروف او الحروف مع بقاء صورة الخط في السياق ، فان كل ذلك بالنسبة الى النقط يسمى ذلك الحديث (مصحفا) وان كان بالنسبة الى الشكل والاعراب سمي (محرفا) ـ وابن الصلاح وغيره سمي القسمين (محرفا) . (4)

ومن هذه الروايات الاربع لا يخرج المرء بتحديد حاسم موحد للمقصود بكل من التصحيف والتحريف، ولا يخرج كذلك بتحديد حاسم لما يشمله التصحيف والتحريف من انواع التغيير السابقة اذ ان الذي يفهم من حديث الاصفهاني والعسكري عن (التصحيف) انه كما قال اولهما نصا « ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز » فهو اذا مطلق تغيير او تبديل في قراءة الشيء على غير ما اراده كاتبه ـ كما عرفه الاصفهاني ـ او رواية الخطا على قراءة الصحف باشباه الحروف ـ كما عرفه العسكري رواية عن الخليل ـ سواء اكان ذلك في النقط او الشكل او الحروف .

لكن المراكشي يفرق فيما تناوله من التغيير الذي يحدث للحديث بين التصحيف والتحريف ، بان اولهما يكون في تغيير النقط فقط ، واما ثانيهما فيكون في الشكل ، ويتوقف عند هذا الحد ويزيد عليه التهانوي ان التحريف يكون في الشكل والاعراب ايضا ، وان بعض العلماء يسمي كل ما يحدث له تغيير « محرفا » .

والحقيقة ان المطلع على نماذج التصحيف والتحريف في مصادرها يلاحظ ان الامثلة التي ترد عن ذلك يتنوع التغيير فيها دون ان ينص على أن هذا تصحيف وذاك تحريف وان منها ما يتعلق بتغيير النقط او الشكل او الحروف واحيانا الاعراب .

ومن كل ذلك نستخلص الامور التالية دون تحديد حاسم :

اولا : ان كلا من التصحيف والتحريف يطلقان على رواية الخطا الناتج عن قراءة الرسم العربي ويدلان على مطلق التغيير والتبديل فيما يتعلق بذلك .

ثانيا : يكاد يكون من المتفق عليه ان التغيير الذي يحدث في النقط والشكل والحروف املائيا يندرج تحت « التصحيف والتحريف » اما التغيير في الشكل الاعرابي فالظاهر انه خارج عن هذا الموضوع ، فنماذجه قليلة في كتب المتقدمين الخاصة بالتصحيف والتحريف وان اكثر الصفدي ـ وهو متاخر ـ من

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 36
(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 13
(3) منح المغيث في جواز اللحن في الحديث ص 5
(4) كشاف اصطلاحات الفنون جـ 3 ص 836 .

هذه النماذج في كتابه « تحرير التحريف » لانه اعتمد فيه على كتب لحن العوام ، ونقل منها ما ضخم به كتابه .

ثالثا : ان كلمة « التصحيف » في هذا النوع من الخطأ ذات شهرة تفوق في ذلك كلمة « التحريف » وربما كان ذلك لقرب دلالتها على هذا النوع وارتباطها بسببه الذي هو القراءة من الصحف .

رابعا : الفرق بين « التصحيف والتحريف » و « اللحن » أن النوع الاول يتعلق بالخطأ المترتب على قراءة الخط ، أما الثاني فمنشؤه خطأ النطق لعدم اجادة اللغة .

لكن ما هو السبب أو الاسباب التي جعلت هذه الظاهرة تحدث في رواية اللغة ؟ !

والاجابة على ذلك بعبارة مختصرة هي « يرجع السبب الاساسي في ذلك الى الخط العربي وقابليته للتصحيف » ذلك أن حروفه متشابهة يميز بينها النقط التي توضع فوقها أو تحتها كما أن التمييز بين صيغ الكلمات يعتمد على الحركات التي اعتبرت تابعة للحروف، ولم تعتبر في الرسم العربي حروفا مستقلة، بل رسمت أولا نقطا فوق الحروف وتحتها وبين يديها ولما حدث الاعجام ـ وهو نقط كذلك ـ ومع تقدم الزمن ، أحدث الخليل بن احمد رسمها ابعاضا للحروف ، كما هي الصورة المستعملة حتى اليوم .

فالخط العربي في البداية لم يكن منقوطا ولا مشكولا ، كما حدث ذلك في المصاحف الخمسة التي كتبها عثمان للامصار ، واستمر الناس يقرؤون فيها ـ على هذه الصفة ـ ما يقرب من نصف قرن من الزمان، وفي عهد عبد الملك بن مروان ـ حين كثر الخطأ والتغيير ـ وضع نصر بن عاصم ـ فيما يقال ـ النقط على الحروف للدلالة على ما سمي فيما بعد «بالشكل» ثم كان الاعجام الذي يميز بين الحروف المتشابهة كالجيم والحاء مثلا ، وكانت نقط الشكل تباين في شكل المداد نقط الاعجام ، واستمر الامر كذلك على ما فيه من مشقة ـ الى أن أحدث الخليل ـ فيما يقال ـ الشكل الذي يرسم على هيئة ابعاض الحروف فاراح الناس بذلك من مشقة الكتابة بنوعين من النقط .

فطريقة الرسم العربي في تشابه حروفه وتمييزها بالنقط وضبط نطقها بحركات ـ لم يكن لها رسم خاص بها مطلقا ، ثم رسمت منفصلة وتابعة للحروف العربية ـ يعود اليها المسئولية الاولى من ظاهرة « التصحيف والتحريف » .

ومع ذلك فقد عاون على اشاعة هذه الظاهرة وخطرها « النساخ » الذين يسمون « بالوراقين » اولئك الذين تنحصر جهودهم في احتراف الوراقة لنسخ الكتب العلمية وبيعها للناس ، ولم يكن النساخ والوراقون غالبا على علم باللغة ، حتى يتمكنوا من التمييز بدقة بين كلمة وكلمة يعتمد التمييز بينهما على نقطة او حركة او تغيير أحد الحروف ، وحينئذ يحدث الخلط بين ذلك في الكتابة ، وهذا نفسه معنى التصحيف والتحريف .

ويشترك في هذه المسؤولية ايضا ـ على قلة ـ علماء اللغة انفسهم، فان احدهم قد يفهم الكلمة فهما خاصا بسوقه السياق له ، أو بسوقه هو لنفسه ، ثم يقرؤها ويرويها كما فهم وان لم يتفق ذلك الفهم مع اصلها وما قصده منها صاحبها ، ويترتب على ذلك ايضا حدوث التصحيف ، ومما يؤيد ذلك عناية مؤلفات « التصحيف والتحريف » بايراد تصحيفات العلماء في قسم خاص بهم ، بل ان بعض هذه المؤلفات يفرق بين البصريين والكوفيين في ذلك ، فيذكر اشهر العلماء من الفريقين مع ذكر نماذج من تصحيفات كل واحد منهم ، وأول اثر في هذا الموضوع ـ فيما اعلم ـ هو كتاب الصولي، وعنوانه « ما صحف فيه الكوفيون » وقد أورد حمزة الاصفهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف» قسما خاصا للعلماء سماه « تصحيفات العلماء في شعر القدماء ص 68 وما بعدها » وعدد من علماء المصريين خمسة وعشرين عالما ، فأورد نماذج من تصحيفاتهم ، وفعل مثل ذلك ابو احمد العسكري ، فجعل قسما خاصا لـ(ما وهم فيه علماء البصريين) وقسما آخر عن « ما وهم فيه علماء الكوفيين » .

فهذه الامور الثلاثة السابقة ـ الرسم العربي والنساخ ووهم العلماء ـ يعود اليها مجتمعة مسئولية « التصحيف والتحريف » وان كان الرسم الكتابي اعظمها مسئولية في ذلك .

* قال حمزة الاصبهاني : الذي ابدع صور حروف كتابة العرب لم يضعها على حكمة ، ولا احتاط لمن يجيء بعده وذلك انه وضع لخمسة احرف صورة واحدة ، وهي (الباء والتاء والثاء والياء والنون) كلها

وجه الحكمة فيه أن يضع لكل حرف صورة مباينة للاخرى حتى يؤمن عليه التبديل (1) .

* وقال الجاحظ عن تحريف النساخ : لربما اراد مؤلف الكتاب ان يصلح تصحيفا او كلمة ساقطة فيكون انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني ايسر عليه من اتمام ذلك النقص ، حتى يرده الى موضعه من اتصال الكلام .... ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لانسان آخر فيسير فيه الوراق الثاني سيرة الوراق الاول ، ولا يزال الكتاب تتناوله الايدي الجانية والاعراض المفسدة حتى يصير غلطا صرفا وكذبا مصمتا (2) .

* وقال ابو احمد العسكري : فالاحتراس من التصحيف لا يدرك إلا بعلم غزير ورواية كثيرة وفهم كبير وبمعرفة مقدمات الكلام وما يصلح ان يأتي بعدها مما يشاكلها ،وما يستحيل مضامته لها ومقارنته بها ، ويمتنع من وقوعه بعدها ، وتمييز هذا مستصعب عسير (3) .

فهذه النصوص الثلاثة متجمعة تحتوي على العوامل التي يحدث بها التصحيف والخطأ في رواية اللغة بناء على ذلك ، واخطرها ما ذكره الاصبهاني من « اتخاذ الصورة الواحدة في الكتابة للدلالة على الحروف المتعددة » وهذا ـ في فهمي ـ نموذج للتشابه بين الحروف في الصورة .

يترتب عليه التغيير والتبديل الذي هو معنى التصحيف والتحريف بصورة عامة تشمل هذا النموذج وغيره من مظاهر التغيير في الكتابة .

والجاحظ يصور بمرارة واسف ما يحدث للنصوص والمؤلفات من جناية وفساد بسبب تداولها بين النساخ ـ ومن ذلك التحريف طبعا ـ وما يعانيه المؤلف ـ ومثله المحقق ـ من مشقة اذا اراد اصلاح ما فسد او اكمال ما نقص .

وضمانات الاحتراس من التصحيف تتلخص ـ من النص الاخير ـ في كثرة الرواية وسعة الفهم واليقظة لسياق الكلام اوله وآخره ، وكل ذلك ـ كما قال العسكري ـ مستصعب عسر حتى على العلماء ، ولا غرابة اذن في حدوث التصحيف منهم .

اما الفكرة الثالثة والاخيرة في هذه الفقرة فهي بيان الصلة بين خطأ التصحيف والتحريف ـ الذي يرجع في نشأته اساسا الى الرسم الكتابي ـ والبحث في اللغة .

ان الذي يرد على الذهن لاول وهلة ان هذا النوع من الخطأ يتعلق بالرسم الاملائي وقصور الكتابة العربية ، وينبغي بحثه في هذا النطاق ، ولا شأن لذلك بدراسة اللغة التي تتجه أصلا الى النطق لا الكتابة ، ويتفرع على ذلك أن الخطأ الذي يوجه باحث اللغة اليه اهتمامه هو خطأ اللغة حين تنطق ، أما الخطأ الذي يعود للكتابة ، فيتكفل به ما سماه ابن قتيبة في كتابه « ادب الكاتب » تقويم اليد » .

ذلك اعتراض وارد ، وفيه كثير من الحق ، فان قضية التصحيف والتحريف تعود الى الرسم العربي قبل أي شيء آخر ، ولو كان الامر مقتصرا على ذلك ما كان لها مكان في البحث عن الصواب والخطأ في اللغة ، لكن خطأ الكتابة لم يقتصر عليها ، بل تعدى ذلك الى اللغة المنطوقة ، وبدا ذلك في مظهرين :

الاول : ان رواية اللغة مشافهة كان لها صلة قوية بالكتابة .

الثاني : ان قراءة الكتابة ـ وهي نطق ـ حملت اخطاء التصحيف والتحريف في معاني الكلمات وبنيتها، بل ومخالفة قواعد النحو احيانا .

ان رواية اللغة بطريقة علمية منظمة بدأت نشاطها في القرن الثاني الهجري ، وأول الرواة العلماء ـ فيما هو مشهور ـ ابو عمرو بن العلاء (ت 154) وحماد الرواية (ت 155) ، وقد عاصرهم وجاء بعدهم رواة اللغة الذين يعود الفضل الى جهودهم الرائعة في جمع التراث اللغوي القديم كله ، ومن المعروف ان هؤلاء العلماء الرواة لم يقتصروا في رواية اللغة على ما عاصرهم فقط ، بل رووا الكثير عن العصور التي سبقتهم في الجاهلية والاسلام مما لم يعاصروه ، ولم يسمعوا قائليه ، وقد وصلهم ذلك من طرق متنوعة كان

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 36 .
(2) انظر : الحيوان ج 1 ص 79 .
(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 2 .

اهمها ـ كما قرر ذلك الباحثون في العصر الحديث(1) ـ ما كان مدونا بالرسم الكتابي وما دامت الكتابة لنصوص اللغة كانت مصدرا للرواية الشفهية التي تظاهر بها العلماء ، فقد انعكس خطأ التصحيف والتحريف بداهة على تلك الرواية الشفهية نطقا وقد اورد حمزة ابن الحسن الاصبهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » عبارة منطقية عن ارسطو تقول « كل كتابة تتشابه صور حروفها ، فهي على شرف تولد السهو والغلط والخطأ فيها ، لان ما في الخط دليل على ما في القول ، وما في القول دليل على ما في الفكر وما في الفكر دليل على ما في ذوات الاشياء » (2) ويصح فهم معنى هذه العبارة بطريقة اخرى بان نقول : ان ما في ذوات الاشياء ينعكس على الفكر ، وما في الفكر يعبر عنه القول والخط يثبت التعبير بالقول ويحافظ عليه، ويمكن الرجوع اليه حين ارادة النطق به مرة ثانية ، فاذا احتمل الخط الغلط والخطأ والوهم ، ظهر ذلك في النطق .

ويؤيد هذا الفهم النظري السابق ما حدث فعلا في كتب التصحيف والتحريف ، اذ ان وصفها لتحريف العلماء وتصحيفاتهم فيما اوردته من مواقف وامثلة جاء صريح الدلالة على ان ذلك قد حدث نطقا لا كتابة، وسماعا لا رسما .

ومما ساقه حمزة الاصبهاني عن العلماء المصحفين نصا قوله :

* ابو عبيدة : روى بيت امرىء القيس :

تجاوزت احراسا واهوال معشر
على حراص لو يسرون مقتلي

اي : اظهروا ، والصواب في رواية الاصمعي (لو يشرون مقتلي) ومعناها : يظهرون .

* ابو زيد : حكى ابن دريد عن ابي حاتم قال : انشدت الاصمعي :

(جايا ترى بليله مسجحا)

فقال : صحفت، وانما هو (ترى قليلة مسججا) ثم قال : من انشدك ؟! قلت : اعلم الناس فتغافل عني ـ وانما عنى ابو حاتم أبا زيد .

* اللحياني : املى اللحياني (مثقل استعان بذقنه) فقام اليه ابن السكيت ـ وهو حدث ـ فقال يا ابا الحسن ، انما تقول العرب (مثقل استعان بدفته) لان البعير اذا رام النهوض استعان بجنبيه ، فقطع الاملاء . (3) .

فالرواية والانشاد والاملاء كلها من صفات المشافهة لا من صفات الكتابة ، مما يدل على ما نحن بصدده من ان التصحيف والتحريف وان كان منشؤهما الرسم والكتابة ، فقد حمل خطاهما نطق اللغة وروايتها

ولقد سبق ان مظاهر التصحيف والتحريف تكون في تبادل الحروف المتميزة بالنقط ، او الشكل الذي يحدد نطق هذه الحروف ، ويفرق بين الصيغ ، او وضع حرف مكان آخر واحلاله محله مما يغير نطق الكلمة ، وينتج من ذلك احيانا مخالفة بعض الظواهر النحوية وان كان ذلك قليلا .

والذي يترتب على تبادل الحروف المتميزة بالنقط في التصحيف حدوث كلمات جديدة ذات معنى مخالف لما اراده منتج النص اصلا ، وقد تكون الكلمات المجدثة من التصحيف لا معنى لها على الاطلاق ، وانما هي هراء لغوي لا يفيد شيئا .

اما تغيير شكل الحروف فيترتب عليه في النطق امثلة جديدة تتدرج تحت صيغ صرفية مخالفة لما كانت عليه قبلا ، وقد تخرج عن صيغ الصرف ومقتضيات اللغة اصلا ، فيحكم عليها بالخطأ ، والاول من هذين النوعين انحراف في المعنى ، والثاني انحراف لغوي في بنية الكلمات .

وتغيير الحروف غير المميزة بالنقط يترتب عليه ايضا كلمات جديدة ذات معنى مغاير لما قصده منها صاحبها الاصلي ، او كلمات مجرفة البنية يحكم عليها ايضا بالخطأ .

---

(1) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، فقد تكفل البحث كله باثبات طرق نقل اللغة الى العلماء ومنها الكتابة . وساق لذلك ادلة مقنعة .
(2) التنبيه على حدوث التصحيف ص 37 .
(3) انظر : السابق ص 69 و 77 و 93 على التوالي .

واما ما يترتب على التصحيف والتحريف من خطأ النحو ، فيبدو اذا حدث التغيير في شكل آخر الكلمة او استخدام اداة في تركيب لغوي لا يتطلبها المعنى النحوي له ، وهذا الصنف وان كان قليلا الا انه يمثل جانبا يستحق الدراسة والاهتمام .

واليك نماذج قليلة تمثل الاصناف السابقة واحتمالاتها :

اولا : التغيير في الحروف المميزة بالنقط :

* عن ابي عمرو الشيباني قال : كنا بالرقة فانشد الاصمعي :

عنتا باطلا وظلما كما تعنز عن حجرة الربيض الظباء

فقلت له : انما هي (تعتر) من العتيرة. والعنز : الذبح ، فقال الاصمعي (تعنز) اي : تطعن بالعنزة ، وهي الحربة ، وجعل يصيح ويشغب ، فقلت : تكلم كلام النمل واصب ، والله لو نفخت في شبور يهودي، وصحت الى التناد ، ما نفعك شيء ، ولا كانت الا (تعتر) (1) .

* ومن الجاحظ قال : مررت بمعلم وهو يلقن صبيا :

يا ابا الفياش جشى
اخرج الفتيان غثا

لبش في الارض اياس
شرنوا املح مثا

فقلت : بالعبرانية هذا ؟ ! قال: لا ، هو بالعربية، فلما تاملته اذا هو مكتوب :

يا ابا العباس حبى
اخرج الفتيان عنا

ليس في الارض اناس
شربوا املح منا

فقلت : ايها المعلم ، انك ضائع بهذا البلد ، قال: نعم ، قذور ومرازيق (2) .

ففي النموذج الاول ترتب على تغيير نقط الحروف وجود كلمتين هما (تعتر) و (تعنز) تنازع حولهما الشيباني والاصمعي ، وكلاهما صحيح لغة ومعنى .

اما النموذج الثاني فان تغيير نقط حروف الكلمات فيه انتج كلمات لا معنى لها حتى ظنها الجاحظ كلاما « بالعبرانية » وقدم للمعلم بسببها النصح الساخر قائلا « ايها المعلم ، انك ضائع بهذا البلد .

ثانيا : التغيير في شكل الحروف :

* قال خلف الاحمر : انشد المفضل للمخبل :

واذا الم خيالها طرقت
عيني ، فماء شئونها سجم

فقلت : انما هو (طرفت) فلج ساعة ، ثم رجع عنه (3) .

* قال ابو احمد العسكري : ومما يقع فيه التصحيف حتى شك في ذلك بعض العلماء ، فجعل له تفسيرا آخر ـ روى ان النبي (ص) اتاه الملكان ، فشقا بطنه ، ثم قال احدهما (ايتني بالسكينة) فرواه بعضهم (ايتني بالسكينة) بكسر السين على انها مؤنث (سكين) وانما هي (السكينة) بفتح السين والكفاف غير المشددة .

قال : وقد فسره ابن الانباري على انه لغة في (السكين) واكثر اهل اللغة لا يعرفون ادخال الهاء فيها، وهذا ذهاب عن الصواب (4) .

ففي النموذج الاول غيرت (طرفت) الى (طرقت) فوجدت كلمة جديدة ، وكل منهما تختلف عن الاولى في الصيغة الصرفية ، علاوة على ما غير من النقط فيهما ، وكل منهما صحيحة من حيث الصيغة والمعنى.

اما الثاني فان التصحيف بتغيير الحركات انتج كلمة ليست من اللغة ، وحكم عليها العسكري بانها « ذهاب عن الصواب » .

---

(1) المزهر ج 2 ص 359 ـ شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 93 مع اختلاف يسير .
(2) محاضرات الادباء ج 1 ص 63 .
(3) التنبيه على حدوث التصحيف ص 78 .
(4) تصحيف المحدثين ص 126 .

ثالثا : التغيير في الحروف غير المنقوطة :

* روى الاصمعي بيت « اوس بن حجر »

اجون تدارك ناقتي بقرابهـــا
واكبر ظني ان جونا سيفعـــل

قال ابن الاعرابي : صحف الدعي ، انما هـــو (تدارك ناقتي بقرابها) اي : ما دمت اطمع فيها (1).

* ورد في كتاب « دليل لغة العرب » الكلمات الآتية والتعليق عليها .

الماس ــ الماظ تحريف

ببغان ــ بغبغلن تحريف (2)

وفي النموذج الاول واضح الفرق بين (قرى لها) و (قرابها) بسبب تغيير الباء باللام، واما الامثلة الاخيرة فالصورة الحادثة بالتحريف صورة خاطئة لغويا ، فالكلمتان حرفتا نتيجة تغيير السين ظاء في الاولى ، وتغيير الباء غينا في الثانية .

رابعا : ظواهر النحو في التصحيف :

* عن ابي عمرو قال : انشدت الفرزدق وبده في يدي لابن أحمر :

فاما زال ســـرح عن معـــــد
واجدر بالحوادث ان تكونـــا

فلا تصلى بمطـــروق اذا مـــا
سرى بالقوم اصبح مستكينـــا

فقال لي : ارشدك ام ادعك ؟ ! قلت : ترشدني ، قال : اذا كان ممن يسرى بالحى ، فليـــس بمطـــروق وانما هو (اذا سرى في الحى) فعلمت اني اخفلت ذالك، وان الامر كما قال .

وهذا من التحريف لا من التصحيف (3) .

فمن الواضح ان الخطا في الجملـة جـاء مـن استخدام حرف الجر (الباء) في الموضـع الـذي يقتضي فيه المقام حرف الجر (في) وهو خطا يعود الى المعاني التي ترد في النحو لاستخـدام حـروف الجر في مواطنها المناسبة ، وقد علق العسكري على ذلك بانه من التحريف لا من التصحيف ، ويبـدو ان هذا الفهم لما يشمله التحريف من بعض ظواهر النحو قد اتسع مداه فيما بعد حتى سوغ ذلك للصفدي في القرن الثامن الهجري ان يورد في كتابه « تصحيـح التصحيف وتحرير التحريف » ما يشمل مظاهر اللحن في النطق ، ولا يقتصر في ذلك على النطق المترتـب على الخطا في الكتابة .

واخيـــرا :

فان الذي سوغ لنا في البحث عـن الصـواب والخطا في اللغة ان نتعـرض لقضيـة « التصحيـف والتحريف » ــ مع انهما يرجعان اصلا لرسم الكلمـات وكتابتها ــ ما تبين مما سبق عرضه من الصلـة بين الكتابة والرواية الشفهية من ناحية ، وما ترتـب على الامرين معا من الخطا اللغـوي المنطـوق في معانـي الكلمات وبنيتها الصرفية ، وبعض الظواهر النحوية .

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف ص 74 .
(2) دليل لغة العرب ص 32 .
(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 77 .

تعليق ونقد

عدل الفاسي

الأستاذ بجامعة القرويين وبجامعة محمد الخامس

ان هذا البحث طريف وقيم تناول فيه الدكتور محمد عيد قضايا اللحن ، والتصحيف والتوليد والتعريب في ضوء علم اللغة الحديث .

تحدث اولا عن معنى « اللحن » في الكلام العربي والتطور الذى حدث في استعماله وفي وسائل مقاومته ، فقد عرف اللحن اولا بمعنى الفطنة والذكاء وبالتظرف في الحديث ، حينما يخلط بالكلام الاجنبي او الكلام الذى يتعمد فيه الخطأ .

ثم اطلق اللحن على التورية وهو الذى عمل له ابن دريد كتابه الملاحن .

ثم استعمل اللحن في الخطأ في المعاني . وفيه لف الفاضل بن سلمه كتابه الفاخر « فيما تلحن فيه العامة » ..

كل هذه الاطلاقات استعملت في معنى اللحن، فصلها المؤلف واستدل لها ولكنه لم يذكر تاريخ التطور الذي تحدث عنه بالمعنى الدقيق للتاريخ .وعلى كل حال فالبحث يتناول بالذات اللحن بمعنى خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة في بنية الكلام او تركيبه او اعرابه بفعل الاستعمال الذى يشيع اولا بين العامة ويتسرب بعد الى الخاصة .

ولا شك ان هذا اللحن امر طارىء على اللغة اذالمفروض في كلام العرب هو الصحة وما حاد عنه يعتبر خطأ .

ثم يتحدث المؤلف عن السمات التي يوصف من اجلها الكلام باللحن . ومنها الخطأ في الاعراب كنصب الفاعل ورفع المفعول . وكذلك وضع الكلمات في غير موضعها وخطأ المعاني كقولهم خرجنا نتنزه اذا خرجوا الى البساتين مع ان التنزه هو التباعد عن المياه والارياف ، ومنها استعمال الطرب في الفرح فقط والحشمة في الاستحياء .

وقد اوضح المؤلف سر اعتبار هذا لحنا ،وزعم انهم لم يراعوا تطور الدلالة في الكلمة ، مع ان الكلمات ليست احجارا جامدة .

ثم حاول تفسير الخطأ في احلال بعض الحروف محل بعضها كقولهم دخل في خمار الناس ، مع ان العرب تقول دخل في خمار الناس ـ بالخاء لا بالغين ـ بالتطور الصوتي . وبعد ان عدد عشرة امثلة تتعلق ببنية الكلمة قال : ان الحكم عليها بالخطأ جاء في ضوء القواعد الصرفية ، ثم اشار الى عناية العلماء بهذا النوع من الخطأ .

ثم ذكر امثلة عشرة ، لنماذج الخطأ في التركيب، لاعراب كقولهم شكرت لك ونصحت لك، والصواب شكرتك ونصحتك ، وبين ان الكثير منها يتعلق بتاليف التركيب العربي والامر الذي استقر عليه ، وهو من مباحث علم النحو . وقد اكد ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية في دراسة (لحن العامة) ايراد لما حدث في اللغة الفصحى ، ويكون مقصورا على اوساط العلماء وان اطلقوا عليهم العامة ، بخلاف النماذج الاخرى فانها عمت مختلف الطبقات .

وقد اوضح صعوبة الوصول الى معرفة تاريخ بدء اللحن وتطوره في العصر الجاهلي ، وان انتقد النحاة بعض العبارات الجاهلية لمغايرتها للقواعد النحوية والصرفية الموضوعتين من بعد .

ولكن اللحن تردد عند العرب مع ظهور الاسلام على انه كان معروفا . وفي عهد الامويين اصبح اللحن ظاهرة خطرة في استعمال اللغة ، وترتب عنها نشاط علمي متنوع . جاء بامثلة منه كالرحلة للبادية وتاليف الكسائي كتابه الذي لا يزال موجودا بين يدينا (ما يلحن فيه العامة) .. واستمرت موجة اللحن قوية مندفعة ، فالقرن الثالث اقل فصاحة من القرن الثاني واكثر لحنا . وفي القرن الرابع وصل اللحن الى مداه .

فماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

نظر العلماء الى هذه الظاهرة من جهة الخطأ ، فقاوموه بعنف ، وبدات مقاومتهم منذ القرن الثاني ، وهنا جاء بقائمة لاسماء العلماء الذين كتبوا في تقويم اللحن ، تصل حد الثلاثين كتابا .

ثم لاحظ ان هذه المقاومة كانت في القرون الثلاثة الاولى قوية ثم ضعفت بعد .

وقد اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، دون ان يحاولوا استشهادات جديدة وسماعات من العرب غالبا .

وقصدوا غالبا بالعامة الناس العاديين بدليل قولهم الخواص او الخاصة . وجهودهم كلها تنصرف الى تنقية اللغة الفصحى .

لا وجود في هذه الكتب لحديث عن اللحن فكرة وموضوعا .

ثم يتساءل هل نجحت هذه الجهود التي قام بها اولئك العلماء ؟

وفي فصل خاص يحلل هذا الموضوع ارادة الجواب عن السؤال ، ويقول ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير ، لانهم نظروا اليه من زاوية الخطأ واعتبروه انحرافا ولم ياخذوا في الاعتبار قوة الاستعمال وقهره والتطور الذي يمكن ترتبه على ذلك . مع ان لحن النحويين انفسهم في الاستعمال دلالة على خطورة الاستعمال . والخلاصة انه يؤكد في النهاية ان ما اطلق عليه النحاة منظور اليه من زاوية الخطأ ، وقبل ان يبين مدى نجاحهم فيما قصدوا اليه ، جاء بفصل في :

معنى التصحيف والتحريف وعلاقتهما باختلاف المعنى والبنية والاعراب، وانتهى الى القول بان مجال البحث في الكلمتين واحد ، وهو البحث عن الخطأ الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطأ الاملائي .

ولم تستعمل الكلمتان دائما في مكان واحد ، بل في معان لها صلة بالخطأ ، من جهة :

1 ـ من جهة التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحريف .
2 ـ سبب وقوع ذلك في الكتابة العربية خاصة .
3 ـ علاقة مظاهر الخطأ التي ترتبت على ذلك.

وقد فصل هذه الجهات الثلاث وارجع السبب في ذلك الى الخط العربي الذي لم يكن منقوطا ولا مشكولا . ثم ميزت حروفه بنقط وحركات منفصلة وتابعة للحروف العربية ، ويسال كذلك عن هذه

المسألة علماء اللغة الذين يعطون لانفسهم حرية روايةالكلمة كما فهموها من السياق .

فالمسؤول اذن الرسم العربي ، والنساخ ووهمالعلماء .

وبعد ان اتى بنماذج تمثل الاسباب السابقة ،عقد فصلا لمقاومة التصحيف والتحريف بأسلوب الرواية وتنقية الاخطاء فذكر تطور ذلك على ما يأتي :

1 ـ ضبط الكتابة العربية بالنقط والشكل .

2 ـ ضرورة المشافهة فى رواية اللغة .

3 ـ تنقية الاخطاء بجمعها فى مؤلفات .

وقد جاء بانتقادات للعلماء على هذه الاساليبالثلاثة وعدم كفايتها لوقاية اللغة من التصحيف والتحريف .

ولاحظ ان هذا الجانب الذى هو تنقية اللغةبجمع ما صحف وحرف فى مؤلفات جانب دراسي بدأ فى القرن الرابع الهجري. كتب فيه المؤلفون الذين لميكتفوا بنماذج التصحيف بل اضافوا الى ذلك تناول قضية التصحيف والتحريف من حيث نشأتهاوعواملها .

ثم تساءل : اكان هذا المجهود حلا للقضية ؟

وقبل الجواب عن ذلك عقد فصلا :

لمعنى التوليد فى الالفاظ ومصادره اللغوية .

1 ـ ثم جاء بعرض تاريخي للمولد من حيث استعمال اللفظ ودراسة العلماء لظاهره .

2 ـ وبالتحديد النظري لمعنى التوليد كما رواهالاقدمون .

3 ـ وتحدث عن مصادر التوليد فى الالفاظ ودراسة العلماء لنماذجه .

وبعد ان فصل هذه الموضوعات تساءل ايضا عن:

مدى توفيق العلماء فى مباحث التوليد ؟

وقبل الجواب عنه ايضا انتقل الى بحث عن :

حركة التعريب وتطورها استعمالا ودراسة .

وطبعا فانه يعني بالتعريب معناه الاصيل الذىهو ادخال كلمة اعجمية فى الكلام العربي وتبنيها ، لا بالمعنى الحديث الذى نستعمله حينما نطالب بتعريبالتعليم والادارة مثلا .

وقد بين فى هذه الفقرة :

1 ـ الصورة العلمية لحركة التعريب فى الكلامالعربي فى عصر الاستشهاد

2 ـ الصورة العلمية لدراسة المعرب فى الكلامالعربي بعد عصر الاستشهاد .

وقد اجاد فى بحث الموضوعين وما تفرع عنهماكوجود الدخيل فى القرآن ، وجاء بقائمة المؤلفات المهمة فى موضوع التعريب .

ولاحظ ان التأليف فى هذه الظاهرة تاخرنسبيا .

وضمنت فكرة التمهيد لذكر الكلمات المعربةبمقدمة علمية تتناول الافكار الخاصة بهذه الظاهرة .

3 ـ كلمة الدخيل جعلت عنوانا لبعض الكتبفى موضوع التعريب .

4 ـ من المؤلفات كتب فى التعريب وضعت اخيرا الامر الذى يدل على انه لا يريد تناول التعريب فى القديم فقط .

ـ اما الجانب اللغوي فقد عرض فيه نظر الاقدمين للمعرب وجهودهم فى اخضاعه لمسلك الصيغ العربية .

وقد فصل القول فى هذا الجانب واتى بتدقيقات مهمة .

ثم تساءل ماذا يستنتج من موقف علمائنا الاقدمين ازاء النقل من اللغات الاجنبية ؟

يتلخص ذلك فى امرين :

1 ـ قصر المعرب على العرب وحدهم الذين عاشوا فى فترة زمنية خاصة .

2 ـ فرض قواعد الصيغ العربية على استعمال المعرب من لغات متعددة .

ولتقييم ذلك احال المؤلف على القسم الاخير الذى يجيب فيه عن الاسئلة المتقدمة .

وفي هذا القسم تناول راي علم اللغة الحديث عن :

1 ـ اللحن بين تحكم القواعد وتطور الاستعمال

2 ـ التصحيف والتحريف من مظاهر الرسم العربي .

3 ـ الالفاظ المولدة فى ضوء تطور اللغة .

4 ـ التعريب بين قيود النحاة وحاجة الاستعمال .

وقد فصل آراء العلماء اللغويين المعاصرين فى هذه النقط وبين ميزة التسامح التى ظهروا بها ازاء المسألة الاولى ، وادلى بآراء اللسنيين عرب واعاجم ودعا الى :

1 ـ تنحية الفكرة القديمة عن المجموعة المدونة فيما تلحن فيه العوام واعتبارها تطورا يهدينا الى دراستها فى مراحل استعمالها

2 ـ النظر فى هذه المادة ودراستها مع غيرها من النصوص الموثقة فى عصرها ليعلم مدى انتشارها فى الاستعمال فيقبل منها ما تحقق له ذلك . وتناول بعد ذلك امر التصحيف والتحريف وابدى اعجابه بجهود العلماء فيها وقال : ان العلماء بعد ان عرفوا الضعف الموجود فى الرسم العربي لم يحاولوا تغييره ، وقال ان الرسم العربي شان غيره فى اللغات الاخرى قد يشتمل على عيوب ، وهذه العيوب ينبغي احتمالها والرضا عنها ارتكابا لاخف الضررين ، واستدل على ذلك بنص للعالم اللسني فندريس .

اما من المولد فقد اعتبر ان الالفاظ المولدة مظهر لتطور اللغة .

وان موقف النحاة من هذه الالفاظ قد تحكمت فيه اعتبارات اعترفوا بها ثم استسلموا لها ، وينتقد عليهم خروجهم عن واجب الاستقراء الى الحكم بالاباحة او المنع على الالفاظ واعتبر ان الحق المعطى لبعض الناس فى ظروف معينة ينبغي ان يعمم على كل جماعة وكل عصر فيقبل ما ولدوه من كلمات دعت اليها حاجة اللغة وهدت اليها سليقتها .

ثم انتهى باستخلاص نظرة المحدثين للعوامل الطارئة على اللغة .

1 ـ اعتبار التطور فى اللغة من اسس النظرية الحديثة للمستوى اللغوي ، وتفسير هذا التطور حسب راي ـ فيرس ـ التغيير المستمر بين عناصر اللغة .

2 ـ لا تتطابق الكتابة لاية لغة مع نطق هذه اللغة فنحن ، كما يقول فندريس ، لا نكتب كما نتكلم بل نكتب كما يكتب غيرنا .

3 ـ ان تغير الظروف الاجتماعية ينعكس تاثيره على الالفاظ من حيث اختفاء بعضها واندثاره وحدوث الاضر واستعماله .

4 ـ نقل الالفاظ من اللغات الاجنبية يخضع للحاجات الاجتماعية المتجددة للناطقين انفسهم ، وهذا امر عادي لا خطر فيه .

اعتبر ان هذا الكتاب يكون بحثا قيما خاضعا لمناهج البحث اللغوي الحديثة متسلسلا في افكاره وموضوعاته وفي الاستنتاجات المترتبة عليها ، وانه استقرا باختصار مباحث الاقدمين عن العوامل الطارئة على اللغة بكيفية لم يسبق جمعها في كتاب حديث ، ثم اعاد تقييمها على ضوء آراء علماء اللسنيات ، ومباحث العرب التي شغلت اوقات المجامع العربية ازيد من نصف قرن ، ولم يتقدم المؤلف باقتراحات تلقائية في تجديد اللغة خارجة عما ورد على السنة الباحثين المجمعين في الشرق العربي . ويظهر ان المؤلف لم يطلع على بعض البحوث التي قام بها المغاربة المختصون لاسيما في اصلاح الرسم العربي الذي وضعه الاستاذ الاخضر والذي يسعدني ان اقول مرة اخرى انه يصلح من عيوب الرسم العربي الشيء الكثير ، كما انه فيما يظهر لم يطلع على جهود مكتب التعريب المغربي ومحاولته لاحصاء كلمات الحضارة واستقرائها والاكتفاء بما هو موجود منها في كتب اللغة او في المجتمعات العربية عن اتخاذ الدخيل الذي ينزع اليه عند عدم وجود الاصيل .

والكتاب بهذه الصفة جيد وجدير لقبوله من اللجنة المحترمة واجازته ، وبالمقارنة مع المباحث الاخرى وآراء المقررين فيها يقع التفاضل ويتم الترجيح ، وان كنت اوصي بكل اخلاص بمجازاة هذا المؤلف على جهده المشرف وطبع رسالته .

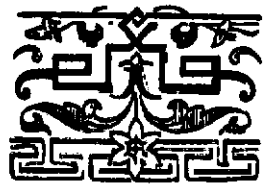

الأضداد في اللغة

الأستاذ حسنين محمد (القاهرة)

ونحن ننشر في هذا العدد من مجلتنا القسم الاول من البحث «حول الاختلاف في مفهوم الاضداد» مرجئين الى العدد المقبل بحول الله القسم الثاني حول «جمع الاضداد وتدوينها» :

لا يماري انسان اتصل بالعرب او ادبهم او ثقافتهم ادنى اتصال انهم يرتبطون بلغتهم ارتباطا قل ان نرى مثيلا له في الامم الاخرى ، وان هذا الارتباط جعلهم يلتزمون بها ، ويشعرون بكل تغيير — مهما كانت تفاهته — يجري عليها ، ويحاولون المحافظة عليها ما وسعتهم المحاولة ..

وكانت الثمرة على النحو واللغة . فقد اخذ العرب يتحدثون في شيء من مسائلهما منذ وقت مبكر ، لسنا على يقين منه ، بل ربما رجع الى ما قبل الاسلام ، كما تنبيء بعض اخبارهم . ولست اريد ان اضرب في وادي الاوهام ، او اركن الى الظنون . فما اتحدث عنه في هذا الكتاب غني عن ذلك ..

فلا جدال ان علماء بالعربية اخذوا يظهرون في المجتمع، ويحملون هذه الصفة ، في القرن الثاني ، بل ربما لا اغالي اذا قلت اواخر القرن الاول . ولم يزد جهد الاولين من هؤلاء «العلماء بالعربية» على مدارسة تلاميذهم ، ومناقشتهم . ثم جاء خلف لم يرضوا بهذا الجهد وحده ، وطمحوا الى «التدوين» : تدوين ما قال شيوخهم ، وما وصل اليه جهدهم الخاص ..

وكانت الثمرة — في المجال اللغوي الخاص — رسائل تحاول ان تجمع الفاظا لغوية ذات طابع خاص، ولا يهم ان يكون ذلك الطابع من معناها ، كأن تكون هذه الالفاظ جميعا تتحدث من الابل وما تعلق بها ، فتعطينا الرسائل اللغوية على الموضوعات . او يكون ذلك الطابع من المصدر الذي وردت فيه ولفت الانظار ، كأن تكون في القرءان او الحديث ، فتعطينا رسائل غريب القرءان ، وغريب الحديث . او يكون ذلك الطابع من ظاهرة لغوية تغلب عليها كأن تكون هذه الالفاظ مهموزة ..

ومن الضرب الاخير « الفاظ الاضداد » . فقد كان الذي لفت الانظار اليها ما تتحلى به من ميزة خاصة ، اذ ترد بصورة واحدة ، ولكنها تدل على معان يتقابل منها اثنان تقابلا تاما ..

ولم يكن تدوين الاضداد فيما نعرف من الرسائل اللغوية الاولى ، ولكنه تأخر عنها قليلا . وفي القرن الثاني تنبه اللغويون اليها ، فشرعوا يلتقطونها ، ويشيرون اليها ، ويتحدثون عنها .

وكانت الثمرة الطبيعة اول تدوين للاضداد في اللغة العربية . وكانت هذه الثمرة الاولى باكورة عدة ثمار : جمعت الاضداد او درستها . وحول هذا الثمار ندور في الصفحات الآتية : متأملين، ومتذوقين، ومقدرين ..

ودعائي الى الله ان يمنحني القصد فلا أجور ، والقدرة فلا أعجز ..

تعريف الاضداد

[illegible] ان من اقدم الامور التى تطلع اليها علماء اللغة العربية الاولون التفرقة بين الانواع التى يمكن ان تنقسم اليها الكلمة . فالقدماء يكادون يجمعون ان علي بن ابي طالب اول من تحدث فى قضايا نحوية ، ويذهب بعضهم انه اكتشف ان «الكلام كله اسم وفعل وحرف ..» (1) .

ولست فى صدد دعم هذا الكلام او دحضه ، انما يهمني ان القدماء كان فى خلدهم ان تقسيم الكلام العربي كان اول قضية نحوية . واذن فغير غريب ان يكون من اقدم القضايا اللغوية تقسيمات اخرى تكميلية ..

.اقدم ما يعنيني من هذه التقسيمات ما أورده سيبويه فى صدر كتابه ، دون ان يبين انقله عن احد شيوخه أم كان من ابتكاره . والتقسيم الذي اورده ثلاثي ايضا يمكن ان اضعه على النحو التالي . قال (2) :

[illegible] ان من كلامهم :

أ ـ اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ... نحو جلس وذهب .

ب ـ واختلاف اللفظين والمعنى واحد ... نحو ذهب وانطلق .

ج ـ واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ... نحو : وجدت عليه : من الموجدة ، ووجدت : اذا اردت وجدان الضالة ..».

[illegible] بالنوع الثاني ما سماه اللغويون [illegible] والنوع الثالث ما سموه المشترك ..

[illegible] ما دونه سيبويه « كتاب » النحاة [illegible] رجعوا اليه وافادوا منه : وكان [illegible] كان طبيعيا ان نجد هذا التقسيم [illegible] (3) . وكان طبيعيا بل اوغل فى [illegible] هذا القول ـ ان نجد هذا التقسيم [illegible] فى صدر كتابه الذى الفه فى الاضداد ، ولم يزد عليه غير شيء من البسط والشرح والتمثيل والتفريع . قال ابو علي قطرب : « الكلام فى الفاظه بلغة العرب على ثلاثة اوجه :

1 ـ فوجه منها ـ وهو الاعم الاكثر ـ اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، وذلك للحاجة منهم الى ذلك . وذلك قولك : الرجل ، والمراة ، واليوم ، والليلة ، وقام ، وقعد ، وجاء ، وذهب . اختلف اللفظان لاختلاف المعنيين . وهذا لا سبيل الى جمعه وحصره ، لان اكثر الكلام عليه ». وقد نشعر من هذه العبارة الاخيرة ان قطربا لم يسمع بمحاولة الخليل بن احمد الفراهيدي جمع اللغة فى كتاب العين ، والحق ان القدماء يقولون ان كتاب العين لم يرد الى البصرة من خراسان الا فى زمن متاخر من وفاة قطرب ..

2 ـ والوجه الثاني اختلاف اللفظين والمعنى متفق واحد . وذلك مثل عير وحمار ، وذئب وسيد، وسمسم وثعلب ، واتى وجاء ، وجلس وقعد . اللفظان مختلفان والمعنى واحد .. وكانهم انما ارادوا باختلاف اللفظين ، وان كان واحد مجزئا ، ان يوسعوا فى كلامهم والفاظهم ، كما زاحفوا فى اشعارهم ليتوسعوا فى ابنيتها ، ولا يلزموا امرا واحدا ..

3 ـ والوجه الثالث ان يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، فيكون اللفظ الواحد على معنيين فصاعدا . وذلك مثل الامة يريد الدين ، وقول الله : « ان ابراهيم كان امة قانتا لله » منه .. والامة : القامة ، قامة الرجل . والامة من الامم .

ومن هذا اللفظ الواحد الذى يجيء على معنيين فصاعدا ما يكون متضادا فى الشيء وضده » . وعلى هذه الصورة وصل قطرب الى غرضه ، اذ ابان ان هذا المشترك من الكلمات ـ الذى ذكره سيبويه ـ نستطيع ان نجد تحته فئتين من الكلمات : فئة تختلف معانيها مثل الامة ، واخرى يزداد التخالف الى ان تتضاد ، وهي « الاضداد » التى الف من اجلها الكتاب ..

[illegible] زهره الالباء 2 .

[illegible] لاحمد بن فارس 96 ، 201 ، والمزهر للسيوطي 1 : 388 ـ 9 .

وانتقل هذا التقسيم من كتاب قطرب الى كتاب ءاخر فى الاضداد ، هو الذى الفه ابو بكر بن الانباري (4) . فقد اورده هذا برمته فى مقدمته ، واضاف اليه بعض التوضيح والاعتراض . فقد روى ان ابن الاعرابي اعترض على المترادفات ، وانكرها ، واعلن ان كل كلمة منها لها معنى ليس فى اختها ، احيانا نعرفه واحيانا لا نعرفه . وارتضى ابن الانباري راي ابن الاعرابي ودعمه بالحجج التى تؤيده . وصرح ابن الانباري ان الوجهين الاولين من الكلام ، اكثر كلامهم » ، اما الاضداد فاتفق هو وقطرب على قلتها ..

واذا نظرنا الى حديث قطرب السابق عن الاضداد وجدناه موجزا ومبهما ، لا يعطينا تعريفا شاملا دقيقا لها . وقد حافظت الكتب بعد قطرب على هذا الابهام . فاكتفى ابو حاتم السجستاني بأن قال فى مقدمة كتابه : « ضد الشيء : خلافه وغيره » . وقال ان الانباري فى وصف كتابه (5) : « هذا كتاب ذكر الحروف التى توقعها العرب على المعاني المتضادة فيكون الحرف منها مؤيدا عن معنيين مختلفين » .

وكان ابو الطيب اللغوي هو الذى ازال كل ابهام عن اللفظ ، حين عرفه فى صدر كتابه فقال (6) : « الاضداد جمع ضد . وضد كل شيء ما نافاه ، نحو البياض والسواد ، والسخاء والبخل .. وليس كل ما خالف الشيء ضدا له . الا ترى ان القوة والجهل مختلفان ، وليسا ضدين ، وانما ضد القوة الضعف ، وضد الجهل العلم . فالاختلاف اعم من التضاد ، اذ كان كل متضادين مختلفين ، وليس كل مختلفين ضدين » .

الاختلاف فى وجود الاضداد

وقد اختلف موقف اللغويين القدماء من هذا النوع من الالفاظ . فارتضى جماعة منهم وجودها ، واعترف بها ، وتحدث عما يندرج تحتها من الفاظ ، وعللها احيانا . وكانت هذه الجماعة اسبق فى الظهور من معارضتها ، اذ كان منها ابو عمرو بن العلاء والخليل ابن احمد ويونس بن حبيب وتلاميذهم . واستمر المنتسبون اليها فى البقاء الى يومنا هذا . اما الجماعة الاخرى فاعترضت على الاضداد ، وانكرتها . ولا نعرف من انتمى اليها من القدماء غير عبد الله بن جعفر المعروف بابن درستويه (7) . وكثر اتباعها فى العصر الحديث . فكان منهم عبد الفتاح بدوي كاتب مقالة « ضدان » فى دائرة المعارف الاسلامية (مادة اضداد) وكان منهم اغلب المستشرقين ، الذين كتبوا المقالات والرسائل الصغيرة فى رفض الاضداد ..

وبسبب هذا الاختلاف ، اضطر مؤيدو الاضداد الى الدفاع عن وجودها ، والرد على ما قاله المعارضون . ولعل اهم من قام بهذا العمل احمد بن فارس ، وابن سيده ، ومحمد ابن القاسم الانباري. اما الاولان فقد وجدت عندهما الدفاع . واقامه ابن سيده على الجدل العقلي ، فقال لشيخ منكر للاضداد (8) : « هل يجوز عندك ان تجيء لفظتان فى

---

(4) 6 – 8 .
(5) 1 .
(6) 1 .
(7) ذكر الجواليقي فى شرح ادب الكاتب ان ثعلبا انكر الاضداد ، وقال : « ليس فى كلام العرب ضد .. لانه لو كان فيه ضد لكان الكلام محالا، لانه لا يكون الابيض اسود ولا الاسود ابيض . وكلام العرب – وان اختلف اللفظ – فالمعنى يرجع الى اصل واحد » (ادب الكاتب 177)
والغريب ان تلميذه ابن الانباري لم يذكر ذلك ، بل اكثر من الرواية فى كتابه عنه الى درجة تجعل المرء يوقن ان ثعلبا من القائلين بالاضداد . وروى عنه ما يدل على ان ثعلبا اعلن ان اللفظ قد يفيد مقابل معناه ، لعلة من العلل . قال : « قال ابو العباس (ثعلب) : انما جاز ان يقع الظن على الشك واليقين ، لانه قول بالقلب . فاذا صحت دلائل الحق ، وقامت اماراته كان يقينا . واذا قامت دلائل الشك ، وبطلت دلائل اليقين ، كان كذبا . واذا اعتدلت دلائل اليقين والشك كان على بابه شكا ، لا يقينا ولا كذبا » (الاضداد 16) .
(8) المخصص 13 : 259 .

اللغة متفقتان لمعنيين مختلفين ! (يشير الى المشترك) فلا يخلو في ذلك ان يجوزه او يمنعه . فان منعه ورده ، صار الى رد ما يعلم وجوده وقبول العلماء له ، ومنع ما ثبت جوازه ، وشبهت عليه الالفاظ ، فانها اكثر من تحصى وتحصر ، نحو « وجدت » الذى يراد به العلم ، والوجدان ، والغضب ، و «جلست» الذى هو خلاف قمت ، و «جلست» الذى هو بمعنى اتيت نجدا (وتسمى جلس) . فاذا لم يكن سبيل الى المنع من هذا ، ثبت جواز اللفظة الواحدة للشيء وخلافه . واذا جاز وقوع اللفظة للشيء وخلافه ، جاز وقوعها للشيء وضده ، اذا لضد ضرب من الخلاف ، وان لم يكن كل خلاف ضدا » ..

ولم يلجأ ابن فارس الى المنطق، والجدل العقلي، فى دفاعه عن الاضداد . وانما اعتمد فى احد رأييه على طبيعة اللغة العربية . فقال (9) : « ومن سنن العرب فى الاسماء ان يسموا المتضادين باسم واحد، نحو الجون للاسود ، والجون للابيض » . فالاضداد عنده واحدة من ظواهر اللغة العربية مثل الترادف . واعتمد فى رأيه الثاني على الرواة الذين نقلوا لنا الاضداد وموقفنا منهم . فقال يصف رأي المعارضين (10) : هذا ليس بشيء ، وذلك ان الذين رووا ان العرب تسمي السيف «مهندا» والفرس «طرفا» هم الذين رووا ان العرب تسمي المتضادين باسم واحد » فابن فارس يوجب ان نوحد موقفنا من هؤلاء الرواة . فان شككنا فيما رووا من الاضداد وجب علينا ان نشك فى بقية رواياتهم اللغوية ، وذلك أمر مستحيل . فان وثقنا بما رووا من غير الاضداد، كان واجبا ان نثق بما أوردوه منها . والحق ان ابن فارس كان اكثر توفيقا فى دفاعه عن الاضداد ، واقرب الى طبيعة اللغة وما تفرضه من مناهج . ويؤسفنا الا نعثر على كتابه الذى الفه فى الدفاع عن الاضداد ، ووصف موقفه من مذهب المعارضين ، فى قوله (11): « وقد جردنا فى هذا كتابا ، ذكرنا فيه ما احتجوا به، وذكرنا رد ذلك ونقضه » .

واما ابن الانباري فقد تناول واحدا من اهم اراء المنكرين للاضداد ورد عليه . بل لعله اهم راي لهم ، اذ صدر عن راسهم ابن درستويه ، واستغلته جماعات متنوعة .

ولما كانت كتب المعارضين القدماء لم تصل الينا، كنا مضطرين الى الاعتماد على حكايات غيرهم عنهم ، وما تساقط الينا من اقوالهم ، فى تصور ارائهم . وتؤكد لنا هذه الحكايات ان المعارضين رفضوا الاضداد جملة ، وانكروا وجودها فى اللغة . قال احمد ابن فارس (12) : « وانكر ناس هذا المذهب وان العرب تاتي باسم واحد لشيء وضده » . وقال السيوطي مصورا لموقف ابن درستويه ، الذى يعد راس المعارضين القدماء (13) : « قال ابن درستويه فى شرح الفصيح : النوء : الارتفاع بمشقة وثقل ، ومنه قيل للكوكب : قد ناء : اذا طلع . وزعم قوم من اللغويين ان النوء السقوط ايضا ، وانه من الاضداد. وقد اوضحنا الحجة عليهم فى ذلك فى كتابنا فى ابطال الاضداد ! فاستغدنا من هذا ان ابن درستويه ممن ذهب الى انكار الاضداد، وان له فى ذلك تاليفا ».

وعندما نتتبع الاقوال التى اتى بها المنكرون لدعم رايهم لا نجد فيما بين يدينا من مراجع غير اقوال قليلة لا تدل على حقيقة موقفهم دلالة كافية . واهمها الراي الذى رد عليه ابن الانباري ، وجاء ابن درستويه فى شرح الفصيح حين قال (14) : « انما اللغة موضوعة للابانة عن المعاني . فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، او احدهما ضد للاخر لما كان ذلك ابانة بل تعمية وتغطية ..» .

وتثقف هذا القول من ابن درستويه فئتان من الناس . ابدا بالفئة المتاخرة فى الوجود ، اذ عاشت بيننا فى العصر الحديث ، وتقبلت القول فى نية حسنة ، ودافعت عنه فيمواجهة بعض ما وجه اليه

---

(9) الصاحبي 97 .
(10) الصاحبي 98 .
(11) الصاحبي 98 .
(12) الصاحبي 98 . المزهر 1 : 387 .
(13) المزهر 1 : 396 .
(14) المزهر 1 : 385 . اصداد ابن الدهان 5 .

من نقد على العصور . قال عبد الفتاح بدوي (15) : « ينبغي الا يعزب عنا ان التضاد مناف لطبيعة اللغة، وانه لا يسهل التفاهم بين الناس . فمن الصعب ان نقبل ان المعاني الاولية المتضادة يتفاهم الناس عنها بلفظ واحد . والصعوبة التي تنشأ من التضاد اكبر جدا من التي تنشأ من الاشتراك . واذا قيل : ان القرائن توضح المراد كان هذا تسليما حقا بمنافاة التضاد لطبيعة اللغة ، لان الاعتماد على القرائن ليس من طبيعة اللغات في سداجتها . وانما هو طور آخر فوق ذلك » ..

اما الفئة الاولى في الوجود فكانت مريبة . ولم تقبل القول الا لتستند اليه في الطعن على العرب ، اذ سلمت بصحة القول وصحة وجود الاضداد في مان واحد ، واقامت عليهما من الاحكام ما يتسق مع مآربها الحاقدة . قال ابن الانباري (16) : ويظن اهل البدع والزيغ والازراء بالعرب ان ذلك كان منهم لنقصان حكمتهم ، وقلة بلافتهم ، وكثرة الالتباس في محاوراتهم ، وعند اتصال مخاطباتهم . فيسالون عن ذلك ، ويحتجون بأن الاسم منبيء عن المعنى الذي تحته ودال عليه ، وموضع تاويله . فاذا اعتور اللفظة الواحدة معنيان مختلفان لم يعرف المخاطب ايهما اراد المخاطب ، وبطل بذلك معنى تعليق الاسم على المسمى »

وكان رد ابن الانباري على هذه الفئة الشعوبية بقوله (17) : « احدهن ان كلام العرب يصحح بعضه بعضا ويرتبط اوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه ، واستكمال جميع حروفه . فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين لانها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية احد المعنيين دون الاخر ولا يراد بها في حال التكلم والاخبار الا معنى واحد .. ومجرى حروف الاضداد مجرى الحروف التي تقع على المعاني المختلفة وان لم تكن متضادة ، فلا يعرف المعنى المقصود منها الا بما يتقدم الحرف ويتاخر بعده مما يوضح تاويله .»

وتساقط الينا من اقوال منكري الاضداد ما يكشف عن ادلة اخرى لهم . ولكن هذه الاقوال لا تحاول ان تهدف القاعدة التي قامت عليها الاضداد كما استهدف قول ابن درستويه السالف ، بل تسير في اتجاه مخالف بعض المخالفة ، يجعلنا نستطيع ان نعتمد عليها ونستفيد منها في موضع ماخر . ولذلك نرجيء عرضها والحديث عنها الى ذلك الموضع ، ونقفز الى المحدثين من الشرقيين والمستشرقين .

فيبرز امامنا عبد الفتاح بدوي اكثر الرافضين للاضداد تطرفا وتوسعا في رايه ، اذ انكرها انكارا باتا ، واعلن : « واننا لنتحدى الذين يزعمون ان في اللغة اضدادا ونباهلهم، بجميع كلمات اللغة العربية، ان ياتونا بلفظ واحد له معنيان متقابلان بوضع واحد. فان لم يفعلوا ولن يفعلوا ــ فليس في اللغة تضاد » . وقد اتخذ عبد الفتاح بدوي من قول ابن درستويه اساسا ثم اقام عليه علته في هذا النفي المطلق للاضداد . قال : « ينبغي الا يعزب عنا ان التضاد مناف لطبيعة اللغة ، وانه لا يسهل التفاهم بين الناس . فمن الصعب ان نقبل ان المعاني الاولية المضادة يتفاهم الناس عنها بلفظ واحد . والصعوبة التي تنشأ من التضاد اكبر جدا من التي تنشأ من الاشتراك » . ورد على ابن الانباري قائلا : « واذا قيل : ان القرائن توضح المراد ، كان هذا تسليما حقا بمنافاة التضاد لطبيعة اللغة ، لان الاعتماد على القرائن ليس من طبيعة اللغات في سداجتها ، وانما هو طور ماخر فوق » . ثم قسم عبد الفتاح بدوي الاضداد الى طوائف ، واتبع كل واحدة بما يبطلها في نظره. واعان ان امثالها موجود في اللغات المختلفة ، واتى بشواهد من اللغة الفرنسية .

وقد اجملت دائرة المعارف الاسلامية والدكتور منصور فهمي الادلة التي اعتمد عليها المستشرقون في انكار الاضداد ، فكانت كما يلي :

1 ــ كانت معظم الكلمات التي اوردها مؤلفو الاضداد معروفة عند العرب بمعنى واحد فقط .

اما المعنى الآخر المضاد له فلم يرد الا في روايات نادرة ، بل روايات جديرة بالشك . ولا ريب ان بعض الالفاظ التي اوردتها كتب الاضداد من هذا القبيل ، مثل ذلك ما

---

(15) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اضداد .
(16) الاضداد 1 .
(17) الاضداد 3 .

ما رواه ابو زيد (18) : « تصدق الرجل : اذا اعطى صدقته. وبعض العرب يقول: تصدق: سال، والجيد: تصدق : اعطى » . ولكن يجب الا يغيب عن بالنا ان القدماء انفسهم ــ وجامعي الاضداد ــ هم الذين نقدوا مثل هذا اللفظ ، وابانوا الرديء والجيد منه ، كما نرى في النص السابق ، ومقابله عند ابن الانباري (19) : « يقال : قد تصدق الرجل : اذا اعطى ، وهو المعروف المشهور عند اكثر العرب ، وقد تصدق : اذا سال وهو القليل في كلامهم » وعند ابي الطيب (20) : «قال ابو حاتم : والمعروف عند العرب تصدق : اذا اعطى الصدقة » . وامثال هذا النقد كثيرة عند ابي حاتم وابن الانباري وابي الطيب خاصة . .

2 ــ يعوز اكثر ما ذكروا من الاضداد الشواهد الموثوق بها ، حتى قال جيز Giese انه لم يعثر في الشعر القديم الا على 22 لفظا من الاضداد. وذهب هرشفلد الى ابعد من ذلك . فعقب على قول جيز معلنا (21) أن هذا العدد يمكن ان نقلل منه لو ازدادت معرفتنا بالمعاني الاصلية لهذه الالفاظ . وكان ابن الانباري هو الذي لفت المستشرقين الى الشك في الاضداد التي لا يوجد شواهد عليها ، اذ فعل ذلك في الحميم قال (22) : « قال بعض الناس: الحميم من الاضداد، يقال الحميم للحار ، والحميم للبارد. ولم يذكر لذلك شاهدا ، والاشهر في الحميم الحار . . » . واعلن ان الشاهد هو الدليل على صحة التضاد حين قال (23) : « قال بعض اهل اللغة : الضد يقع على معنيين متضادين ، ومجراه مجرى الند . يقال فلان ضدي : اي خلافي ، وهو ضدي : اي مثلي . قال ابو بكر (ابن الانباري) : وهذا عندي قول شاذ لا يعول عليه ، لان المعروف من كلام العرب: العقل ضد الحمق ، والايمان ضد الكفر . والذي ادعى من موافقة الضد للمثل لم يقم عليه دليلا تصح به حجته » .

ولكن الحق ان القدماء اوردوا كثيرا من هذه الالفاظ ، او كثيرا من المعاني المتضادة ، مهملة . فلم يوردوا لها شواهد البتة ، او اوردوا منها ما يشهد للمعنى المعروف وتركوا المعنى غير الشائع بدون شواهد . مثال ذلك دهور، وزجور، ونهوز، وبحتر، في اضداد قطرب (24) ، وعنه روته بقية كتب الاضداد دون ان تكترث لاضافة الشواهد (25) . والامر نفسه نجده في اضداد الاصمعي (26) ، وابي حاتم (27) ، وابن السكيت (28) ، وغيرهم . ولكننا يجب ان نحترس هنا ايضا ، فان القدماء لم يكونوا يشعرون بوجوب ايراد الشواهد على كل ما يسمعون ويروون ، وخاصة اذا كان اللفظ قد سمعوه في غير شعر . بل انهم تخففوا في بعض الاحيان من بعض الشواهد التي كانت بين ايديهم ، كما فعل ابو حاتم عندما حذف بعض شواهد الاصمعي من امثال شوهاء ومعبد ومغلب .

3 ــ لا يجوز الاعتماد في اثبات التضاد على موضع اللفظ من الكلم دون الاعتماد على الاصل اللغوي لهذا اللفظ . والمراد بهذا النظر الى معنى اللفظ في حال افراده عندما يركب في جملة ، لان السياق قد يكسبه معنى جديدا ، هو الذي يخرجه الى التضاد مثال ذلك قول ابن الانباري (29) : « ومن الاضداد ايضا قول العرب للرجل : « ماظلمتك وانت تنصفني» يحتمل معنيين متضادين : احدهما ما ظلمتك وانت

---

(18) ابو حاتم 116 . ابن الدهان 14 .
(19) 110
(20) 437
(21) مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بلندن ، سنة 1895 ، ص 223 .
(22) 82 . وانظر اضداد ابي الطيب 208 .
(23) 7 .
(24) 11 ، 15 ، 18 ، 49 .
(25) ابن الانباري 255 ، 242 ، 244 ، 257 . ابو الطيب 273 ، 332 ، 650 ، 85 .
(26) 17 ، 30 ــ 32 .
(27) انظر ادم ، افلت ، مؤدي ، اسد ، اضب ، امعن ، وغيرها .
(28) 196 ، 199 .
(29) 160 .

ايضا لم تظلمني ، بل مذهبك انصافي ، واستعمال ما استعمله من ترك الظلم لك والجنف عليك والمعنى الآخر : ما ظلمتك لو انصفتني ، فاما اذ لم تنصفني فاني اكافئك بمثل فعلك . وقول الله عز وجل : (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) يفسر تفسيرين متضادين : احدهما : وما كان الله معذبهم واولادهم يستغفرون، اي قد وقع له في علمه جل وعز انه يكون لهم ذرية تعبده وتستغفر لهم . فلم يكن ليوقع بهم عذابا يجتث اصلهم ، اذ علم ما علم من صلاح اولادهم وعبادتهم له جل وعلا . والتفسير الآخر : وما كان الله معذبهم لو كانوا يستغفرون ، فاما اذ كانوا لا يستغفرون فانهم مستحقون لضروب العذاب التي لا يقع معها البوار والاصطلام ، بل تكون كما وقع بهم من عذاب الجدب في السنين التي لحقتهم فاكلوا فيها الجيف والعلهز ، وكعذاب السيف والاسر الذي لحقهم يوم بدر وغيره . والله اعلم بحقيقة ذلك كله واحكم » .

ولم يلتفت المؤلفون الاولون في الاضداد لهذا النوع ولم يشيروا اليه في كتبهم . وانما ظهر في القرن الرابع عندما شاعت بين الكتاب الرغبة في الاحاطة والاتساع والاتيان بما لم يات به السابقون. فتجلى عند ابن الانباري، ومن اخذ عنه من اللاحقين عليه كابن الدهان والصغاني .

واضاف الدكتور منصور فهمي الى الاسباب السابقة سببا آخر ، يمكن ان نسميه ـ اذا احسنا الظن ـ تساهل اللغويين ، واذا اسأناه سميناه حب التكثر والتزيد والتباهي بما اورده كل منهم من الاضداد . فقد دفعهم ذلك الى ايراد كثير من الالفاظ لا صلة لها بالاضداد ، وانما هي من المشترك ، مثل العصر والحزور والروح والقلب والفاد وزنا ونسل.. الخ .

وتوجد الى جانب ما ذكرت عدة اسباب اخرى اوردها المستشرقون والدكتور منصور فهمي ، ولكن تنقصها صفة العموم التي تتحلى بها الاسباب التي ذكرتها . فهي لا تتحدث الا عن نوع واحد من الاضداد، ولذلك ابقيها الى حين معالجة انواع الاضداد ..

اصل الاضداد

منذ تنبه اللغويون الى الاضداد، واختلفوا فيها، وهم في محاولة دائبة لتعليلها والكشف عن نشأتها ، وكيف وجدت في اللغة . واشترك في هذه المحاولة من اتفقت آراؤهم ، ومن اختلفت ، ومن اعترفوا بها ومن رفضوها ، والقدماء والمحدثون ، والعرب والمستعربون . وان كثيرا من الآراء التي اتى بها منكرو الاضداد هي في الحقيقة محاولة لتعليل وجودها ، ولذلك ادخرتها لاوردها هنا .

واختلفت الطرق التي سلكها العرب وغير العرب في دراسة هذه الظاهرة اللغوية، في كثير من الاحيان. فقد اوغل بعض المستشرقين في تاريخ البشرية وارجع ظاهرة الاضداد الى العصور القديمة، عندما كان العقل البشري في سذاجته، فلم يكن يفطن لما يعتريه من تناقض . وكان قائل هذه النظرية هو ابل Abel اذ اعلن ان الاضداد هي البقية الباقية مما كان للاوائل من تناقض منطقي في التفكير . ولكن هذا القول لم يلق رواجا حتى في اوساط المستشرقين ، فرد عليه فيل Veil ورفضه هو وراي لجست Leguest الذي ارجع الاضداد الى اشتقاقات مبالغ فيها ..

وتوسط بعضهم في الايغال ، فلم يرجع الى التاريخ البشري ، واقتصر على التاريخ العربي القديم . فاعلن جيز ان العرب اقترضوا بعض هذه الاضداد من اللغات المجاورة لهم . ولما كان معناها الاصلي قد تختلف ايحاءاته ، فقد ادى ذلك الى التضاد في العربية . وضرب مثالا لذلك بلفظ (جلل). اعلن ان العربية اخذته من اللغة العبرية ، وهو فيها بمعنى دحرج . واذ كان الشيء المدحرج ثقيلا احيانا ، وخفيفا احيانا ، فقد اعتمدت العربية على هذين الايحاءين المتضادين للكلمة الواحدة واعطتها معنيين متضادين هما عظيم وحقير .

واقتصد بعضهم الآخر ، ونظر في تاريخ الجماعة الواحدة ، فوجد فيه من التطور ما يؤدي الى التضاد دون استعارة من الخارج . وضرب جيز مثالا لذلك بالفعلين باع وشرى . فقد كان المعنى الاصيل لهما بادل، حين كان البيع والشراء يقوم على مبادلة السلع . فلما عرفت النقود ، اختص كل فعل منهما بواحد من القائمين بالعمل . ولكن رواسب العهد القديم بقيت حية ، فكانت تلقي ظلالها على معنى الفعلين ، فتخلط بينهما .

واضاف الدكتور منصور فهمي الى المثال السابق مثالا من حياتنا الحاضرة ، يلتبس فيه معنى الفعل لحداثة عهد الناس بالحديث الذي يدل عليه . فلما

كنا حديثي عهد بالقناطر (الكبارى) التى تفتح وتغلق، لم نستطع ان نستقر بعد على اعطاء لفظ واحد لكل من عمليها . فنحن نقول : فتحت القنطرة اذا اغلقت فى وجه المارة وفتحت للمراكب ، واذا فتحت امام المارة واغلقت طريق المراكب ايضا . وربما اجتمع الى حداثة العهد اختلاف النظرة .. فاصحاب المراكب يقولون عنها : فتحت ، اذا فتحت لهم واغلقت فى وجه المارة ، وهؤلاء يقولون : فتحت ، ان حدث العكس . ولكن هؤلاء وهؤلاء غير منفصلين ، ومن هنا صار للكلمة معنياها المتضادان والشائعان معا ..

ولم يلتفت فريق الى التاريخ وبحث عن العلة فيمن يراه من جماعة وفرد ، وما يسودهما من ظواهر ذات تاثير فى اللغة . فذهب الى ان بعض المعاني المتضادة يرتبط بعضها ببعض وتتداعى فى الذهن ، فتؤدي الى الاضداد . مثال ذلك كلمة « البين » التى تطلق على الفراق والاجتماع ، والسبب فى ذلك ان الانسان قد يفترق وحده عن جماعته ، وقد يفترق فيلحق بجماعة اخرى . ولا يختلف هذا القول كثيرا عن القول الآخر الذى اوردته دائرة المعارف الاسلامية ايضا منسوبا الى جيز ، ويرى ان الارتباط بين المعنى قد يكون بسبب ان احدهما نتيجة للآخر. مثل خفي البرق بمعنى ظهر واستتر . فان البرق لا يكاد يظهر حتى يختفي ، فالظهور والاختفاء متلاحقان ، وثانيهما نتيجة لاولهما. ومثل « ناء » بمعنى نهض بالحمل فى مشقة ، وحمل الحمل . ومثلهما ما سماه تداخل الاحداث ، فما كان ءاخرا لامر قد يكون اولا لغيره ، وما يكون اولا لامر قد يكون آخرا لغيره مثل « السدفة » فهي الوقت الذى بين النور والظلمة ، يمكن ان تختلف فيها القبائل أو الافراد بل سامعوها من اللغويين فيظنوا ان المراد بها النور وحده أو الظلام وحده .

وءاخر ما جعله جيز من اسباب التضاد غموض الانفعالات والمشاعر وانبهامها واختلافها من شخص الى ءاخر ، وتسرب هذا الغموض الى الالفاظ التى تدل عليها حتى يؤدي بها ذلك الى التضاد . مثال ذلك الذفر ، التى تطلق على الرائحة الطيبة والكريهة . وسبب ذلك اختلاف شعور الانسان بها ، اذ يحبها شخص ويرتاح اليها ، ويتافف منها ءاخر وينفر لشدتها ..

اما اللغويون العرب فقصروا جهودهم على الاضداد العربية ، ولم يبعدوا عنها لا تاريخا ولا لغة ولا اجتماعا ، وحاولوا ان يتبينوا اصولها ونشاتها ومسالكها فى اللغة العربية نفسها . واكثر الآراء التى رايتها شيوعا عندهم كون كثير من هذه الاضداد من ءاثار اللهجات الكثيرة التى ضمتها العربية الفصحى. قال ابن الانباري (30) : « قال ءاخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال ان يكون العربي اوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ولكن احد المعنيين لحي من العرب ، والمعنى الاخر لحي غيره . ثم سمع بعضهم لغة بعض فاخذ هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء .. فالجون الابيض فى لغة حي من العرب ، والجون الاسود فى لغة حي ءاخر . ثم اخذ احد الفريقين من الاخر ..» . وترددت اصداء هذا القول عند ابي علي الفارسي (31) ، وابن الدهان(32) ثم الكتاب المحدثين . وكان احد الدعائم التى استند اليها ابن درستويه (33) فى انكار الاضداد ..

وأورد ابن الانباري رايا آخر لم ينسبه الى احد ، وكان له صداه ، ايضا فى الدراسات اللاحقة . قال (34) : وقال ءاخرون : اذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فالاصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع . فمن ذلك الصريم ، يقال لليل صريم . وللنهار صريم ، لان الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل ، فاصل المعنيين من باب واحد ، وهو القطع . وكذلك الصارخ المستغيث ، سميا بذلك لان المغيث يصرخ بالاغاثة، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة ، فاصلهما من باب واحد ..» .

وقد جعل الشيخ محمد الخضري هذا القول واحدا من رايين له فى تعليل نشاة الاضداد قال (35):

(30) 11 .
(31) المخصص 13 : 59 .
(32) 5 .
(33) المزهر 1 : 385 .
(34) 8 .
(35) الاصول 174 .

اولهما ان يكون بين المعنيين فكرة واحدة تجمعهما فيصلح اللفظ لكل منهما لاشتراكه في هذه الفكرة . وحين يغفل الناس عن هذه الفكرة المشتركة يظنون ان اللفظ من الاضداد . مثال ذلك الصريم ، هو الليل او النهار . واصل اللفظ من الانصرام بمعنى الانسلاخ ، فالليل صريم لانه ينسلخ من النهار ، والنهار صريم لانه ينسلخ من الليل، وهما متداخلان. ومصداق ذلك الآية الكريمة : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » .

ونستطيع ان نضع تحت هذا القول ما علل به عبد الفتاح بدوي التضاد في الفعل باع . فقد راى ان المعنى الاصلي له مد باعه ، سواء للاخذ او العطاء، ومن هنا اطلق على الشاري والبائع لان كلا منهما يفعل ذلك في وقت البيع .

وجاء ابن درستويه بعلتين اخريين للتخالف والتضاد في معنى الكلمات . قال السيوطي (36) حاكيا قوله : « : فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين او احدهما ضد للاخر لما كان ذلك ابانة بل تعمية وتغطية . ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا العلل ، كما يجيء فعل وافعل . فيتوهم من لا يعرف العلل انهما لمعنيين مختلفين ، وان اتفق اللفظان . والسماع في ذلك صحيح من العرب ، فالتاويل عليهم خطأ . وانما يجيء ذلك في لغتين متباينتين ، او لحذف واختصار وقع في الكلام ، حتى اشتبه اللفظان وخفي سبب ذلك على السامع وتاول فيه الخطأ . وذلك ان الفعل الذى لا يتعدى فاعله ، اذا احتيج الى تعديته لم تجز تعديته على لفظه الذى هو عليه حتى يغير الى لفظ ءاخر ، بأن يزاد في اوله الهمزة ، او يوصل به حرف جر بعد تمامه ، ليستدل السامع على اختلاف المعنيين . الا انه ربما كثر استعمال بعض هذا الباب في كلام العرب ، حتى يحاولوا تخفيفه ، فيحذفوا حرف الجر منه ، فيعرف بطول العادة ، وكثرة الاستعمال، وثبوت المفعول واعرابه فيه خاليا عن الجار المحذوف. او يشبه الفعل بفعل ءاخر متعد على غير لفظه ، فيجري مجراه لاتفاقهما في المعنى ، كقولهم: حبست، الدابة ، وحبست ما لا على المساكين » . فاسباب التخالف عنده تداخل اللغات ، وحذف حرف التعدية من الفعل اللازم لكثرة الاستعمال ، وتشبيه الفعل بمرادفه في المعنى او ما نعرفه اليوم باسم التضمين. ويجدر بنا – قبل ان نترك ابن درستويه – ان نلاحظ انه اضطر الى الاعتراف بانه « قد يجيء الشيء النادر من هذا » في اللغة ، فهو لم يستطع ان ينكر وجود هذا النوع المتخالف والمتضاد من الالفاظ في اللغة ، ويعلن خلوها التام منه ، وانما اعلن انه « نادر » وله علله ..

واسهم ابو علي الفارسي في التعليل ايضا ، فاضاف العلة المجازية . روى ابن سيده عنه (37) : « اما .. اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين فينبغي الا يكون قصدا في الوضع ولا اصلا . ولكنه من لغات تداخلت ، او تكون كل لفظة تستعمل بمعنى ثم تستعار لشيء ، فتكثر وتغلب فتصير بمنزلة الاصل » . وقد كان لهذا الراي الاخير صداه الواسع في تقسيم الاضداد بعد ذلك .

هذه هي الآراء التي جاء بها القدماء في معرض تعليل الاضداد حينا ، ومعرض انكاره حينا ءاخر . وتلقفها عنهم المحدثون فاذاعوها بينهم مقتصرين عليها تارة ، ومتسعين فيها اخرى ، ومتشعبين بها في احوال كثيرة حتى خلصوا الى ءاراء ما كانت تدور في خلد القدماء ..

وبقي امامي المذهب الثاني الذي جعله الشيخ محمد الخضري (38) علة لنشأة الاضداد وهو ان يطلق اللفظ على شيء واحد ، تتغير مظاهره احيانا، فلا يفطن السامع الا الى المظهر ، فيحكم بالتخالف والتضاد .. مثال ذلك عنده الجون ، فالاصل فيها ان تطلق على السحاب . ولما كان من السحاب الابيض ومنه الاسود فقد ظن اللغويون ان هذه الصفة مراعاة في اللفظ ، وانه يطلق على الابيض من السحاب تارة ، وعلى الاسود اخرى ، فهو اذن من الاضداد . وليس الامر كما ظنوا ، فلا تضاد في اللفظ لانه لا يدل الا على السحاب مجردا من كل صفة ..

وءاخر العلل التي عثرت عليها ما اضافه الدكتور منصور فهمي مستقيا اياه من اقوال القدماء عن

---

(36) المزهر 1 : 385 .
(37) المخصص 13 : 59 .
(38) الاصول 174 .

التفاؤل والتطير والتهكم ، اذ ان العرب اعتادوا ان يعدلوا عما يكرهون من الفاظ الى ما يحبون ، فسموا الصحراء المهلكة : المفازة من الفوز ، والاعمى : البصير ، والملدوغ : السليم : ونادوا الجاهل بقولهم : « يا عاقل » . ولا زلنا نحن نسمع فى المقاهي عبارة: « خذ المليان » يريدون بها الاكواب الفارغة .

ويؤدي بنا التامل الدقيق فى العلل التى أوردها الدارسون للغة العربية نفسها دون محاولة للفلسفة او للعثور على نظرية عامة او الابعاد فى مجاهل التفكير البشري ، يؤدي بنا هذا النوع من التامل الى ان اهم ما قالوا من علل واخطره هو « المعنى الاصلي للالفاظ » . فنحن فى حاجة الى اعادة النظر فى هذه الالفاظ ، وفيما ذكره لها اللغويون من معان، وفى حاجة الى محاولة استكشاف الطريق الى المعنى الاصلي الحق لها ، الذى لا يأبه بما حولها من ملابسات ، ولا بما يرتبط بها من ظواهر ، ولا بما يؤدي اليه من نتائج ، ولا بما قطعه اللفظ من اشواط سائرا فى طريق معتدلة هانا ومعوجة هاونة . فان وصلنا الى ذلك المعنى ، غمرنا الضوء من كل مكان ؛ واستبان لنا تطور اللفظ ، وما اكتسبه من معان ودلالات ، وما احيط به من ظلال ، جعلته مشوبا بالغموض احيانا ، وعرضة للخطأ احيانا اخرى ..

واما بقية العلل فهي ارتياد لبعض الطرق التى سلكها اللفظ ليصل الى درجة التضاد مثل اللغات ، والمجاز ، والحذف للتخفيف ، وما اليها من امور .

كذلك يؤدي بنا التامل الدقيق فى الاقوال السالفة الى نتيجة قد تبدو غريبة ولكنها حقيقة واقعة . اعني انه لم يوجد من اللغويين على قدر ما نستطيع الحكم من خلال ما عندنا من معلومات من ينكر وجود الاضداد فى اللغة العربية الفصحى . فمن رفضوا الاضداد رفضوا اصالتها ، اريد انهم رفضوا ان تكون وضعت اصلا للمعنيين المتضادين . ولكن ما خضعت له من تطور بالتوسع او المجاز او الحذف ادى الى وجود لفظين متماثلين فى كل شيء، بحيث لا يمكن ان نفرق بينهما ونعدهما لفظين متمايزين ، غير ان معنييهما متضادان . كذلك ادى انصباب الروافد القبلية دون تمييز بينها فى تيار العربية الفصحى الى ما اشبه الظاهرة السابقة . فالفصحى بصورتها الراهنة تحتوي على هذا النوع من الالفاظ (الذى نسميه الاضداد) باعتراف جميع القدماء ، وان اختلفت اصول هذه الاضداد ، والطرق التى سلكتها حتى وصلت الى التيار الحالي ..

ويؤدي بنا ايضا الى نتيجة اخرى اجمع عليها المنكرون والمؤيدون ، هي قلة الاضداد فى اللغة العربية الفصحى . فابن درستويه من المعارضين يصفها « بالشيء النادر » ، وابن الانباري من المؤيدين يقول (39) : « هذا الضرب من الالفاظ هو القليل الظريف فى كلام العرب » .

شروط الاضداد

اذا كان من انكر الاضداد اطلق قوله فيها ثم اضطر الى التراجع قليلا عنه ، عندما استقصى النظر فى اللغة ، او احتوى قوله على ما يومىء الى تراجع ، فاننا نجد الظاهرة نفسها عند المؤيدين لوجود الاضداد او بعضهم .

فقد كان فى وهم المؤلفين الاولين ان الاضداد الفاظ قلائل فى اللغة . فحاولوا جمعها وابرازها . وتحت اثر من هذا الاحساس ، ومن هذه الغاية ، جمعوا مع الاضداد الفاظا كثيرة عدوها اضدادا ، وهي واهنة الصلة بها . وكان اكثر المؤلفين وقوعا تحت هذا الاثر قطرب : اول من كتب عن الاضداد .

فاضطر من جاء بعده الى ادخال ما قاله فى كتابه كيلا يتهم بانه فاته من الاضداد شيء (40) . ولكن اهل القرنين الثالث والرابع كانوا قد اخذوا يتخلصون من هذا الاثر ، بعد ان راوا امامهم من كتب فى الاضداد . فاخذوا يعيدون النظر فيها ، وفى اضداد قطرب خاصة ، وينقدون منها كثيرا . وعند تتبع هذا النقد استخلصت كثيرا من الشروط يجب ان تتوفر فى اللفظ حتى يدخلوه فى الاضداد . ولكن الامر المؤسف ان هذه الشروط اهملها واضعوها انفسهم ، ولم يطبقوها على كثير من الالفاظ التي دونوها فى كتبهم . وبالرغم من ذلك اتتبع هذه الشروط لاهميتها فى توضيح «صورة الاضداد» فى اذهانهم ، وان لم تتحقق كل التحقق فى كتبهم .

واهم مؤلف يكثر عنده هذا النوع من الاقوال هو ابو بكر محمد بن القاسم الانباري . ونستطيع ان نقول انه يضع الشروط التالية فى اللفظ ليعده من الاضداد :

---

(39) 6 .

(40) ابو الطيب 688 .

1 ـ ان تكون صيغة اللفظ ذي المعنيين المتضادين واحدة . فاخرج من الاضداد ما كان احد المعنيين لافعل والآخر لفعل . قال (41) : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : قد خلمت النعل : اذا انقطعت عروتها وشسعها ، واخلمتها : اذا اصلحت عروتها وشسعها . وهذا ليس عندي من الاضداد ، لان (خلمت) لا يقع الا على معنى واحد ، وكذلك (اخلمت) . ولفظ اخلمت يخالف لفظ خلمت . وما لم يعبر الا عن معنى واحد بلفظه لا يكون من الاضداد » . واتفق ابو الطيب اللغوي مع ابن الانباري في هذا الراي ، بل في كلامه الذى اذكره بعد ما يدل على اتفاقه معه في حديثه عن كل الصيغ التالية .

واخرج ابو بكر منها ما جاء على فعل المجرد وفعل المضاعف . قال (42) : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : بدن الرجل : اذا حمل اللحم والشحم ، وبدن تبدينا : اذا اسن وكبر وضعف . قال ابو بكر : وليس الامر عندي على ما ذكر قطرب ، لان (بدن) لفظه يخالف لفظ (بدن) . وما لا يقع الا على معنى واحد لا يدخل في حروف الاضداد» .

واخرج منها على ما كان على فعل وفعل وفعيل من الصفات . قال (43) : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : رجل نجد : اذا كان سريع الاجابة الى الداعي اذا دعاه .. ويقال : رجل نجد : اذا كان مفزعا من اي وجه .. وقال غير قطرب : يقال للمفزع : منجود ونجيد .. قال ابو بكر : وليس النجد عندي من الاضداد ، لان العرب لا توقعه الا على معنى واحد ، وما كان بهذه الصفة لا يدخل في الاضداد » .

واخرج ما كان على فاعل ومفعول ، قال (44): « ومن حروف الاضداد : الطاحي : المنضجع . والطاحي : المرتفع ... هذا قول قطرب . وليس الطاحي عندي من الاضداد ، لانه لا يقال طاح للمنخفض ، انما يقال للمنخفض مطحو ومطحى » .

واخرج ما كان فعلا واسما ، قال (45) : « قال قطرب : من الاضداد قولهم : قد جمرت المراة : اذا جعلت لها كالنزعتين من حلق ونتف ـ والنزعة : ما ينحسر من شعر جانبي الراس الذى يعضد نابت في الجبين ـ قال : ويقال للذؤابة جمار . ويقال : للمراة جماران ، اي ذؤابتان ضفرتا مقبلتين على وجهها .. فقول قطرب : جمرت المراة ولها جماران من الاضداد ، ليس بصحيح ، لان جمرت لا يكون بمعنى وفرت الشعر ، ولا يقال : جمار لما يضاد الذؤابة ، فلا وجه لادخاله في حروف الاضداد » .

فابن الانباري يشترط ان يكون المعنيان المتضادان لفعلين او اسمين او صفتين ، وكل منها على وزن واحد ، ولا يحكم بالتضاد فيما شذ عن ذلك .

كذلك اشترط ان يكون للصيغة الواحدة معنيان متضادان لا يمكن ردهما الى معنى واحد ، قال (46): « قال بعض الناس : طرب : حرف من الاضداد . يقال : طرب اذا فرح ، وطرب اذا حزن .. ولم يصب هذا القائل عندي ، لان الطرب ليس هو الفرح ولا الحزن ، وانما هو خفة تلحق الانسان في وقت فرحه وحزنه » .

واتفق ابو الطيب اللغوي معه في هذا الراي ، قال (47) : « ابو حاتم وقطرب قالا : ومن الاضداد المأتم . فالمأتم النساء المجتمعات في فرح وسرور ، والمأتم النساء المجتمعات في غم وحزن ومناحة ... وقال غيرهما : المأتم جماعة النساء ، لا واحد لها من لفظها ، وسواء كن في وليمة او مناحة او في غيرهما بعد ان يكن مجتمعات . فعلى هذا ليس المأتم عنده من الاضداد » .

---

(41) 276 . وانظر 583 ، 291 ، 298 ، 304 .
(42) 310 .
(43) 320 .
(44) 302 .
(45) 279 .
(46) 57 . وانظر 58 ، 92 .
(47) 21 . وانظر 37 ، 57 .

واشترط ابن الانباري ايضا ان يكون هذان المعنيان فصيحين لا من ابتكار العامة ، قال (48) : « قال قطرب : الحرفة من الاضداد ، يقال : قد احرف الرجل احرافا اذا نما ماله وكثر ، والاسم الحرفة من هذا المعنى . قال : والحرفة عند الناس الفقر وقلة الكسب . وليست من كلام العرب انما تقولها العامة » .

واشترط ان يكون المعنيان معروفين استعملهما العرب في حوارهم . قال (49) : « قال قطرب : من الاضداد : الهجر ، يقال : هجرت الرجل : اذا اعرضت عنه ، وهجرت الناقة : اذا شددت في انفها الهجار ـ وهو حبل ـ لتعطفها على ولد غيرها .. وهذا القول عندي بعيد ، لان المعنى الثاني لم يستعمل في الناس ».

ويبدو ان ابا الطيب اللغوي يتفق مع ابن الانباري في هذا الراي ايضا ، وان لم يعلن ذلك صراحة » قال مثلا (50) : « قال قطرب ، ومن الاضداد التفل . فالتفل المنتن ، والتفل المتطيب . قال ابو الطيب : المعروف من التفل المنتن » .

واشترط ابو الطيب الا يكون المعنى الثاني مجازيا . فاخرج من الاضداد (51) : « ما جاء مسمى باسم غيره ، لما كان من سببه » مثل العشراء الذي يطلق على الناقة التي بلغت عشرة اشهر في حملها ، والناقة التي نتجت حديثا ، والارة الذي يطلق على الحفرة التي فيها النار ، وعلى النار نفسها .

واشترط في المعنى الا يكون مقلوبا او مزالا عن جهته ، مثل قولهم ناء بي الحمل ، ويا خيل الله اركبي . ولم يعد ذلك من الاضداد (52) .

وانفرد ابو الطيب اللغوي باخراج مجموعة من الالفاظ تتضاد في معانيها وتتماثل في صورتها ، ولكن هذه الصورة المتماثلة في ظاهرها مختلفة في حقيقتها ، اذ تختلف العلل ، الصرفية التي وصلت بها الى صورتها . مثال ذلك قوله (53) : « ومن الاضداد ـ زعم التوزي ـ قولهم : رجل مود اي هالك ، ورجل مود اذا كان ذا سلاح قويا . قال ابو الطيب : وليس كذلك ، لان المودي الهادي غير مهموز ، وفاء الفعل منه واو ، يقال : اودى الرجل يودي ايداء اي هلك .. والمؤدي من السلاح مهموز ، وفاء الفعل منه همزة ، وانما معناه ذو اداة الحرب . يقال : قد ادى يؤدي : اذا تمت اداته للحرب وسلاحه .. فهذا غير الاول » . وقد ادى به هذا التصور للاضداد الى ان يخرج منها ما جاء على مفتعل ومفتعل مما عينه منقلبة عن ياء او واو ، اذ لا يبين فيه كسر العين وفتحها لسكون الالف، مثل المبتاع والمجتاب والمجتاح ، ومن المدغم العين في اللام ، مثل المبتز والمحتز والمختص . ووضعه في اخر الكتاب (54).

واخرج مجموعة تماثلها لاختلاف حرف العلة الاصلي فيها ، قال (56) : « قال ابو حاتم : ومن الاضداد قولهم : ضاع فلان ، من الضياع ، وضاع الشيء اذا ظهر وبدا .. قال اللغوي ، واما انا فلا ارى هذا من الاضداد ، لان شرط الاضداد ان تكون الكلمة انواحدة بعينها تستعمل في معنيين متضادين، من غير تغيير يدخل عليها . وقولهم : ضاع يضيع من الضياع انما الالف فيه منقلبة عن ياء ... وقولهم ضاع اذا ظهر الالف فيه منقلبة عن واو »

بل ذهب الى ابعد من ذلك واخرج من الاضداد ما اختلفت صيغ المجرد والمصدر منه من الافعال ، وعد ذلك اختلافا بينهما . قال (57) : « ومن الاضداد القانع ، زعموا . قالوا : فالقانع الراضي ، والقانع السائل الطالب... قال عبد الواحد: ليس هذا عندي من الاضداد ، لان شرط الاضداد ، على ما اصلنا

---

(48) 267 .
(49) 213 . وانظر 288 ، 289 ، 300 ، 346 .
(50) 113 . وانظر 163 .
(51) 711 .
(52) 720 .
(53) 671 .
(54) 691 .
(56) 452 .
(57) 577 .

اولا ، ان تكون الكلمة الواحدة تنبيء عن معنيين متضادين ، من غير تغيير يدخل عليها ، ولا اختلاف في تصرفها .. والقانع بمعنى الراضي يقال منه قنع يقنع ، مثل شرب يشرب ، والمصدر قناعة وقنعا وقناعا وقنعانا ـ اي رضي ـ فهو قانع وقنوع . والقانع ـ بمعنى السائل ـ يقال منه قنع يقنع مثل صنع يصنع ، والمصدر قنوعا لا غيره ... واذا تغير البناء لتغيير المعنى فليس من الاضداد » .

ونستخلص من هذا غموض صورة الاضداد في ذهن قطرب او عدم وجود حدود لها ، واخذها في الوضوح والجلاء والتحدد على مر الزمن .. فكانت اللمحات الاولى عنها عند ابي حاتم السجستاني . ثم كان كمال البروز والتحدد عند ابن الانباري وابي الطيب .

انواع الاضداد

نستشرف من الحديث السابق عن اسباب الاضداد ، والاختلاف فيها ، وتغير تصورها عند اللغويين ، نستشرف منه ان الاضداد لم تضم ثلة واحدة من الالفاظ كان من المحتمل ان يتفق عليها العلماء او على كثير من الظواهر المتصلة بها .

وبالرغم من احساس العلماء المبكر بأن الاضداد ثلات عدة ، لم اجد بين القدماء من حاول ان يصنفها، تصنيفا قاصرا او شاملا . وبالرغم من أن المحدثين اضطروا الى الفصل بين انواع منها ، ليسهل عليهم رفضها او تعليلها ، فانهم لم يرتقوا بهذا الفصل الى ان يكون تصنيفا .

والرجل الوحيد الذي حاول شيئا من ذلك هو عبد الفتاح بدوي . ويبدو انه اراد ان يعوض ما فات اللغويين ، فاعطانا تقسيمين لا واحدا . اما التقسيم الاول فصغير ومحكم ، ويقوم على اساس نحوي . فقد جعل الاضداد اربعة انواع :

1 ـ اضداد في اللفظ المفرد ، كالقرء للحيض والطهر .

2 ـ اضداد في الفعل ، كظن للشك واليقين .

3 ـ اضداد في التراكيب ، كعبارة « تهيبت الطريق وتهيبتني الطريق» .

4 ـ اضداد في المتعلقات ، كرغب عنه ورغب فيه .

وكان التقسيم الثاني واسعا ، ينظر الى عدة اسس بحيث تغيب عن النظر الذي يريد ان يصل اليها . فالاضداد في هذا التقسيم تقع في عشر طوائف ، هي :

1 ـ الاضداد التي تحقق المعنى في كل من المتعلقين على حد سواء ، مثل اطلاق الصارخ على كل من المغيث والمستغيث .

2 ـ الاضداد التي يكون احد معنييها حقيقيا والاخر مجازيا ، مثل اطلاق الكاس على الاناء والشراب الذي فيه .

3 ـ الاضداد الآتية من لهجات مختلفة ، مثل وثب وسجد .

4 ـ الاضداد التي يصح ان ينسب مصدرها الى اي من الطرفين ، مثل اطلاق المولى على السيد والخادم .

5 ـ الاضداد التي تتوافق منطقا وتختلف تصريفا ، مثل اطلاق المختار على الشخص الذي اختار ، والشيء الذي اختير .

6 ـ الاضداد الناتجة عن المتعلقات ، مثل رغب فيه ورغب عنه .

7 ـ الاضداد الناتجة عن السياق ، مثل : « نسوا الله فنسيهم » .

8 ـ الادوات والحروف ، مثل ان واذ واذا .

9 ـ الاضداد الناتجة من التفسير ، مثل شاة درعاء ، ومآتم ..

10 ـ الاضداد الناتجة من تعسف اللغويين ، مثل بعض .

ومهما يكن من شيء ، فانني لن اعنى كثيرا بالتقسيمات النظرية ، وان كنت لن اهملها كل الاهمال . واجعل همي كله في تتبع الانواع المختلفة التي ادخلها مؤلفو الاضداد فعلا . في كتبهم ، اذا اختلف النظر والتطبيق عندهم . وابدا باول مؤلف : قطرب ، اذ توسع في تصور الاضداد اكثر من غيره، حتى اضطر من جاء بعده الى نقده . ورفض كثيرا منها . ولن اقف عند التقسيم ، بل اتبع كل صنف بما وجه اليه من نقد . وهاك ما وجدته من اصناف عند قطرب :

1 ـ الاضداد الحقيقية ، اعني الالفاظ ذات المعنيين المتقابلين عنده . قال (58) : « العقوق للحامل والعقوق للحائل ايضا» . وقال (59) : وقالوا في الاضداد : النحاحة : السخاء ، والنحاحة : البخل » . ونازعه غيره في تضاد بعض ما جاء به من الفاظ .

قال ابو الطيب (60) : وحكى : يقال : بردت الماء ، من البرد ، اي جعلته باردا . وبردته : سخنته. قال : وانشدنا بعضهم :

شكت البرد في المياه ، فقلنا
برديه توافقيه سخينا

قال قطرب: معنى برديه في هذا البيت سخنيه. وقال ابو حاتم : هذا خطأ ، انما هو برديه (يريد : بل رديه) من الورود ، ولكنه ادغم اللام في الراء ، كما يقرأ (كلا ، بل ران على قلوبهم) قال ابو الطيب : وهذا الصحيح ، وبه يستقيم معنى البيت». وقال ابن الانباري عن لفظ «اخر (61) : « ومن حروف الاضداد البحتر : يقال رجل بحتر ، اذا كان قصيرا ـ او بهترا بالهاء ايضا ـ ويقال : رجل بحتر اذا كان عظيما . ذكر هذا قطرب ، وما علمنا احدا وافقه على ان البحتر يقال للعظيم » .

2ـ الالفاظ المتضادة المعاني من اختلاف الصيغ ، مثل فعل وافعل ، وفعل وفعل من الافعال، وفعل وفعل وفعيل من الصفات . وقد اوردت «انفا امثلتها ، وما وجهه اليها ابن الانباري وابو الطيب من نقد، واخراجهما اياها من الاضداد. والحق معهما، ولذلك لم يوافق قطربا من اتى بعده من مؤلفي الاضداد. فاستبعده اكثرهم من كتبه . وربما كان واجبا ان نستثني ابا عبيدة والتوزي من هذا الحكم ، اذ يبدو انهما اورداه في كتابيهما . قال ابو الطيب (62) : « قال ابو عبيدة : ترب الرجل يترب تربا : اذا لصق بالتراب من الفقر .. واترب الرجل يترب اترابا : اذا كثر ماله ككثرة التراب . فالترب المحتاج ، والمترب الغني» وقال ابو الطيب ايضا (63) : « قال التوزي : ومن الاضداد ثبت الرجل اذا اعطيته من الثواب ، واثبته اذا طلبت نواله . قال ابو حاتم : ولا اعرف الثاني الا توهما » .

اما الاصمعي فوجدت عنده مثالا لو صح وضعه مع ابي عبيدة والتوزي . قال (64) : « قسط : جار. واقسط بالالف : عدل لا غير . قال الله جل ثناؤه : (واقسطوا ان الله يحب المقسطين) اي العادلين . وقال في الجائرين : (واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) .. » . ويخيل لي ان في العبارة سقطا ، وتتمتها : « قسط : جار ، وقسط : عدل . واقسط بالالف:عدل لا غير» بدليل عبارة(لا غير) وبدليل ورودها على هذه الصورة عند ابن السكيت الذي يروي كثيرا من الاضداد عن الاصمعي ، وورودها كذلك عند غيره.

3 ـ الالفاظ التي تتفق في الصيغة والحدث، وتختلف في نسبته الى من قام به او من وقع عليه . ومثالها فعيل التي تدل على الفاعل والمفعول . قال (65) : «الربيبة : التي تربب . والربيبة : التي تربت. قال الله عز وجل في الربيبة : « وربائبكم اللاتي في حجوركم » .

---

(58) 69 . واورده ابو حاتم 224 ، وابن الانباري114 ، وابو الطيب 495 ، وابن الدهان 15 والصغاني 588 .
(59) 133 . واورده ابو حاتم، 253 ، وابن الانباري 301 وابو الطيب 650 وابن الدهان 20 ، والصغاني 670 .
(60) 86 . واورده ابن الانباري 31 ، وابن الدهان 7 .
(61) 257 . واورده قطرب 49 ، وابو الطيب 85 ، وابن الدهان 7 ، والصغاني 389 .
(62) 115 . واورده ابن الانباري 291 .
(63) 124 .
(64) 21 . واورده قطرب 98 ، وابن السكيت 293 وابن الانباري 26 وابو الطيب 594، وابن الدهان 17 ، والصغاني 625 .
(65) 84 . واورده الاصمعي 80 ، وابو حاتم 174،وابن السكيت 353 ، وابن الانباري 85 وابو الطيب 310 ، وابن الدهان 11، والصغاني 472 .

وصيغة فعول ، قال (66) : « ومنها قول الله عز وجل : (فمنها ركوبهم) لما يركب . وركوب للفاعل ايضا مثل ضروب وقتول . وقالوا : مكان ركوب : اي مركوب . وقال الاخر : « يدعن صوان الحصى ركوبا » اي مركوبا . طريق ركوب ، وطرق ركب. وقال اوس :

تضمنهـا وهـم ركـوب كانهـا
اذا ضم جنبيه المخـــارم رزدق

وهو الصف من الناس اذا انقطعوا ، وهو بالفارسية رزده » .

وصيغة فاعل ايضا ، قال (67) : « وقد جاءوا بفاعل في معنى مفعول ضدا ، قالوا : سر كاتم ، اي مكتوم، وامر عـارف، وما انت بحازم عقـل : اي محزوم عقل ، وهذه تطليقة بائنة : اي مبانة فيها . اخبرنا الثقة : ومثله قول الله جل وعلا : (لا عاصم اليوم من امر الله) كانه يريد لا معصوم ، و (هو في عيشة راضية) من ذلك اي مرضية ، وقد يجوز ان يكون المعنى في راضية لاهلها ...» . ويرى بعض النحويين ان العبارات تحتوي على فاعل مقدر بعد الصفات ، فالتقدير عنده سر كاتمه صاحبه او سامعه وامر عارفه الناس ... الخ .

ووافق اللغويون قطربا في عد هذا النوع من الاضداد ، وادخلوه في كتبهم . وتنبه بعضهم الى جمع الالفاظ المختلفة تحت صيغتي فعول وفعيل ، وفرقها بعضهم الاخر . فجمع قطرب معظم صيغ فعول وعقد لها عنوانا خاصا بها ، ولم يجمع صيغ فعيل. واتبعه في الامرين ابو حاتم ، حتى اشتركا في كثير من الالفاظ التي اوردها (154 – 163) . وجمع الاصمعي بعض صيغ فعول دون عنوان (87 – 91) واهمل صيغ فعيل . فاتبعه ابن السكيت .

واضاف ابو حاتم صيغة فعال ، التي تطلق على الفاعل والمفعول اليه. قال (68) : « التواب : التائب الفاعل . والتواب : الله تعالى . قال : (وان الله تواب حكيم) . وقال الله تعالى : (ان الله يحب التوابين) » .

ويجدر بنا ان نلاحظ ان الاحداث التي تدل عليها هذه الالفاظ او اغلبها تحتاج الى الاشتراك ولا يمكن ان تقع لفرد واحد . فالتربية مثلا تحتاج الى من يقوم بها والى من تقع عليه ، والركوب يحتاج الى راكب ومركوب .. الخ .

4 – الالفاظ المشتركة المعنى المختلفة مظاهره ، مثل قول قطرب (69) : « اهنف الرجل اهنافا – بالنون والتاء : ضحك ضحكا رويدا . واهنف ايضا : بكى . ويقال : تهانف الرجل تهانفا : اذا ضحك ضحك تعجب » . وقال ابن الانباري : « تهانف معناه قال : ايها ايها في البكاء » . والواضح ان الاهناف هو الحركة والصوت اللذين يصدران من الباكي والضاحك ، فالمعنى واحد ، غير ان مظاهر مختلفة تتصل به . ومثله الماتم كما راينا .

ولم ينفرد قطرب بهذا النوع ، بل وجد عند غيره من اصحاب الاضداد . فقد اورد الاصمعي في كتابه الطرب ، التي مر بنا نقد ابن الانباري لها . ولم اجد عند ابي حاتم من هذا النوع الا ما نقله من قطرب وابي زيد . مثال ذلك قوله (70) :

« قال ابو زيد : طبخته : اذا شويته ، وكذلك اذا طبخته في القدر . قال : ويقال ، طبخته الشمس اي احرقته ، وطبختـه في التنـور : اي شويته ..» فالمراد بالطبخ الانضاج ، سواء اكان بالشي ام بالغلي في القدر ..

والغريب ان ابن الانباري الذي نقد كثيرا مما ذكره غيره ، وقع هو نفسه فيه ، ورضي عن كثير منه . ومن اغرب ذلك قوله (71) : « الصلاة من الاضداد . يقال للمصلي من مساجد المسلمين صلاة ، ويقال لكنيسة اليهود صلاة . قال الله عز وجل :

---

(66) 13 . واورده الاصمعي 90 ، وابو حاتم 154،وابن السكيت 362 ، وابن الانباري 239 وابو الطيب 306 ، وابن الدهان 17 ، والصغاني 481 .
(67) 33 – 44
(68) 196 . واورده ابن الانباري 338، وابو الطيب111 ، وابن الدهان 8 ، والصغاني ، 411 .
(69) 52 . واورده ابن الانباري 258 ، وابو الطيب 683 ، وابن الدهان 21 .
(70) 211 . واورده ابو الطيب 462 ، والصغاني 554 ، ووضعه ابن الانباري في اشباه الاضداد 185.
(71) 225 . وانظر 227 .

(يا ايها الذين ءامنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى) اراد لا تقربوا المصلى ، هذا تفسير ابي عبيدة وغيره. وقال عز ذكره : (لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد) والصلوات عني بها كنائس اليهود ، واحدتها صلاة ..» فالصلاة موضع صلاة الانسان ، مسلما كان او مسيحيا او يهوديا او غيرهم .

ويتمثل هذا النوع ايضا في اضداد ابي الطيب ، وابن الدهان ، والصغاني ، بسبب كونها تستهدف الجمع ، فهي تورد ما اوردته الكتب السابقة عليها . بل اضاف بعضها الفاظا جديدة لم ارها فيما بين يدي من كتب . ومثالها ما اورده الصغاني في قوله (72) : العجباء : التي يتعجب من حسنها ، والتي يتعجب من قبحها » . واللفظ غني عن التعليق، فالواجب ان يفسر بانه التي يتعجب منها ، سواء كان ذلك التعجب للحسن او القبح او غيرهما .

5 ـ المشترك المعنى المختلف المفهوم تبعا لاختلاف المتعلقات ، مثل قول قطرب (73) : «ومنه ايضا راغ عليهم : اتاهم . وراغ عنهم : ذهب عنهم وتنحى . وقال الله جل ثناؤه (فراغ عليهم ضربا باليمين) اي اقبل عليهم ضربا بالآلة .. » وقد نقد بعضهم قطربا على هذا اللفظ ، قال ابن الانباري : « قال الفراء : لا يقال لمن رجع : راغ ، الا ان يكون مخفيا رجوعه .. وقال غير الفراء : لا يكون راغ ابدا الا بمعنى رجع على السبيل الذى ذكر الفراء ، وليس بحرف من الاضداد على ما ادعى قطرب » . وواضح ان معنى راغ واحد ، وهو الحركة الخفية ، ثم يحدد الحرف الذى يوضع بعد الفعل اتجاه هذه الحركة. فاذا كان الى او على ، كانت الحركة اقبالا ومجيئا . واذا كان عن ، كانت الحركة ادبارا وابتعادا .

ولكن قطربا لم ينفرد بهذا النوع من الاضداد ، بل وجد عند غيره من المؤلفين في الاضداد . ومثاله عند الاصمعي ما جاء في قوله (74) : « وحكى ان الاقهام الجوع ، وانشد : ـ وهو الى الزاد شديد الاقهام ـ يقال : اقهم عن الطعام واقهى : اذا لم يشتهه . واورد ابن السكيت وابو حاتم وابن الانباري وابن الدهان والصغاني ما ذكره سابقوهم من هذا النوع ، دون تعليق او نقد . واحسن من نقد هذا النوع هو عبد الفتاح بدوري في قوله : « جلي الا تفاد في شيء من الرغبة او الروغ او الانصراف (في قولنا رغبت فيه وعنه ورغت عليه وعنه وانصرفت اليه وعنه) انما الضدية بين معنى في وعن ، وعلى وعن ، والى وعن . وهذه الحروف الفاظ مختلفة ، ليست من الضدية التي نبحث عنها في شيء ، فاين اللفظ الذى له معنيان متقابلان ؟» .

6 ـ الالفاظ التي اختلفت في العدد الذى تدل عليه قال قطرب (75) : « وقالوا ايضا : الزوج ، الفرد ، يقال : عندي زوجان من خفاف اي خفان . والزوج : الزوج ايضا » . وعلق ابن الانباري (240) على ذلك بقوله : « وهذا عندي خطا ، لا يعرف الزوج في كلام العرب لاثنين ، انما يقال للاثنين زوجان . بهذا نزل كتاب الله ، وعليه اشعار العرب. قال الله عز وجل (وانه خلق الزوجين الذكر والانثى) اراد بالزوجين الفردين ، اذ ترجم عنهما بذكر وانثى . وقال عز ذكره : (ثمانية ازواج من الضان اثنين ، ومن المعز اثنين) وكذلك ما بعدهما ، فالازواج معناهما الافراد لا غير . والعرب تفرد الزوج في باب الحيوان ، فيقولون : الرجل زوج المراة ، والمراة زوج الرجل ... فمن ادعى ان الزوج يقع على الاثنين فقد خالف كتاب الله جل وعز ، وجميع كلام العرب ، اذ لم يوجد فيما شاهد له ، ولا دليل على صحة تاوله » . واظن ان سبب هذا الخلط ، ان اللفظ لا يطلق على كل فرد وانما الفرد الذى لا بد من اقترانه بآخر . وعلى اي حال فاللفظ لا يحتوي على معنيين متضادين ، وانما اختلف الناس في العدد الدال عليه فحسب : واحد او اثنين ، وليس هذا بتضاد .

ووقع فيما وقع فيه قطرب من اللغويين ابو عبيدة ، قال ابن الانباري (76) : « ضعف حرف من الاضداد عند بعض اهل اللغة ، يكون ضعف الشيء

(72) 574 .
(73) 209 . واورده ابو الطيب 328 ، وابن الدهان 11 ، ونقده ابن الانباري 92 .
(74) 13 . ورواه قطرب 104 ، وابن السكيت 288، وابن الانباري 144 ، وابو الطيب 596 وابن الدهان 18 ، والصغاني 636 .
(75) 112 . واورده ابو الطيب 338 والصغاني 492 ونقده ابن الانباري 281 .
(76) 78 . واورده ابن الدهان 14 ، والصغاني 551 .

مثله ويكون مثليه . قال الله عز وجل (يضاعف لها العذاب ضعفين) قال ابو العباس ، عن الاثرم ، عن ابي عبيدة معناه يجعل العذاب ثلاثة اعدية ، قال : وضعف الشيء مثله ، وضعفاه مثلاه . وقال ابو عبد الله هشام بن معاوية : اذا قال الرجل : ان اعطيتني درهما فلك ضعفاه ، معناه فلك مثلاه قال : والعرب لا تفرد واحدهما ، انما تتكلم بهما بالتثنية . وقال غير هشام وابي عبيدة : يقع الضعف على المثلين . قال ابو بكر : وفي كلام الفراء دلالة على هذا » . وفي هذا القول مغالطة ، لان ضعف الشيء اما ان يراد الشيء معه فيصير الجميع مثلي الاول ، واما ان يراد وحده فيكون مثله فحسب .

وكذلك سار في طريقهما ابن الانباري ، اذ ارتضى قول الفراء (77) : « مثل حرف من الاضداد ، يقال : مثل ، للمشبه للشيء والمعادل له ، ويقال : مثل ، للضعف فيكون واقعا على المثلين . زعم الفراء : انه يقال رايتكم مثلكم . يراد به رايتكم ضعفكم ، ورايتكم مثليكم يراد به رايتكم ضعيفكم . من هذا قول الله عز وجل : (يرونهم مثليهم راي العين) معناه يرى المسلمون اي ثلاثة امثالهم ، لان المسلمين كانوا يوم بدر ثلاث مئة واربعة عشر رجلا ، وكان المشركون تسع مئة وخمسين رجلا . فكان المسلمون يرون المشركين على عددهم ثلاثة امثالهم » وفي هذا القول ما في اللفظ السابق من خطأ في الشرح .

ويقرب من هذا الضمير (نحن) ، الذي ادخله ابن الانباري في اشباه الاضداد قال (78) : « ومما يشبه حروف الاضداد نحن ، يقع على الواحد والاثنين والجميع والمؤنث فيقول الواحد : نحن فعلنا . وكذلك يقول الاثنان والجميع والمؤنث . والاصل في هذا ان يقول الرئيس الذي له اتباع يغضبون بغضبه، ويرضون برضاه ، ويقتدون بافعاله : امرنا ونهينا ، وغضبنا ورضينا ، لعلمه بانه اذا فعل شيئا فعلنه اتباعه . ولهذه العلة قال الله جل ذكره : ارسلنا ، وخلقنا . ثم كثر استعمال العرب لهذا الجمع حتى صار الواحد من عامة الناس يقول وحده : قمنا وقعدنا ، والاصل ذاك » .

ومهما يكن ، فليس هذا النوع من الاضداد ، واسوتنا في ذلك من اهمله من اللغويين امثال الاصمعي وابي حاتم وابن السكيت وابي الطيب ..

7 ـ الاضداد من اللغات . قال قطرب (79) : « المعصر ـ في لغة قيس واسد ـ التي قد دنت من الحيض . واعصرت المراة اعصارا . وقد دنا اعصارها. وبلغة الازد : التي قد ولدت او تعنست » . وسار على هذا المسلك جميع المؤلفين في الاضداد ، وان عارضهم بعض اصحاب المعاجم مثل ابن دريد . ومثال هذا النوع عند الاصمعي قوله(80): في المادة الاولى من كتابه : « القرء عند اهل الحجاز الطهر ، وعند اهل العراق الحيض .. » . وفي اضداده ايضا (81) : « قال ابو زيد : السدفة في لغة تميم الظلمة ، وفي لغة قيس الضوء . قال ابن مقبل :

وليلة قد جعلت الصبح موعدها
بصدرة العنس حتى تعرف السدفا

اي اسير حتى الصبح فترى ضوء الصبح . وقال العجاج : « ـ واقطع الليل اذا ما اسدفا ـ اي اظلم » . وقال ابو حاتم (82) : « العنوة : القهر . واهل الحجاز يقولون الطاعة . يقال : اخذته عنوة اي قهرا ، وقال اهل الحجاز طاعة ، وانشدوا :

هل انت مطيعي ايها القلب عنوة
ولم تلح نفس لم تلم في احتيالها

وقال كثير :

---

(77) 79 . واورده ابن الدهان 19 ، والصغاني 657 .
(78) 113 . واورده ابن الدهان 20 .
(79) 101 . واورده ابن الانباري 136 وابو الطيب 509 وابن الدهان 15 والصغاني 584 .
(80) واورده قطرب 99 ، وابو حاتم 134 ، وابن السكيت 276 ، وابن الانباري 8 ، وابو الطيب 571 ، وابن الدهان 17 ، والصغاني 620 .
(81) 43 . واورده قطرب 5 ، وابو حاتم 114 ، وابن السكيت 316 ، وابن الانباري 564 ، وابو الطيب 346 ، وابن الدهان 12 ، والصغاني 500 .
(82) 185 . واورده قطرب 173 ، وابن الانباري 42 ، وابو الطيب 491 وابن الدهان 15 .

تجنبت ليلى عنوة ان تزورها
وانت امرؤ في اهل ودك تارك

اي طائعا » . وكل ما ذكره السالفون من اضداد اللغات نجده عند اللاحقين منهم مثل ابن السكيت وابن الانباري وابو الطيب وابن الدهان والصغاني .

8 ـ الفاظ التثنية التي لا تفرد . قال قطرب (83) : « الصرعان : ناحيتا النهار ، اي اوله وءاخره. ومنه مصراعا الباب يلمان ايضا . ضدان . ذلك لاول النهار وءاخره » . وتابعه في هذا ابن الدهان وحده. واعترض عليه ابن الانباري قائلا : « وقال غيره : الصرعان الغداة والعشي جميعا ، ولا يقع على واحد منهما دون صاحبه . وكذلك القرنان والبردان كما يقال لليل والنهار : الملوان ، والفتيان ، والردفان ، والعصران ، والجديدان ، والاجدان ، وابناسبات » . وافغله غيرهما ، مما يدل على ان القدماء انفسهم لم يرضوا عن هذا النوع .

9 ـ المشترك من الالفاظ دون ان يتضاد . ومثاله ما اوردته ءانفا من جمرت الشعر ، وللمراة جماران . ونقد ابن الانباري له . وبرغم ذلك لم يبرأ بعض اللغويين من الخلط بين الالفاظ ذات المعاني المتضادة والالفاظ ذات المعاني المختلفة فقط، كما فعل قطرب فهذا هو الاموي يقول (84) : « نار غاضية : اي عظيمة . وليلة غاضية : شديدة الظلمة » . والتضاد غير واضح فيه ، الا اذا فهمنا ان الغاضية هي النار الشديدة الاضاءة .

ووردت في اضداد الاصمعي كلمتان لا تمتان الى الاضداد ، هما ضنين وظنين ، قيل (85) : « واما قوله : « وما هو على الغيب بضنين » و « بظنين » فهما وجهان معروفان . فالضنين البخيل ، يقال : ضننت اضن ضنا . والظنين المتهم ، وهو من الظنة اي التهمة ..» فهما اقرب الى كتب الابدال منهما الى كتب الاضداد . ولذلك لم يوردهما احد ممن جاء بعده .

وورد في اضداد الاصمعي تفسير عارض للفظ الانقياص ، اذ قيل في مادة (قلص) (86) : « ويقال قد قلص الظل : اذا قصر ... وقلص ماء البئر : اذا جم وكثر . قال الراجز :

يا ربها من بارد قلاص
قد جم حتى هم بانقياص

والانقياص : ان تنشق الركية طولا او السن ، قال ابو ذؤيب الهذلي :

فراق كقيص السن فالصبر انه
لكل اناث عثرة وجبور »

وسها ابن السكيت في غمرة تتبعه لالفاظ الاصمعي، فالتقط اللفظ ، وخصص له مكانا بين اضداده ، بعد مادة قلص . ولكن احدا غيره لم يقع في هذا السهو ..

10 ـ الالفاظ المختلف في تفسيرها . قال ابن الانباري (87) : « فوق حرف من الاضداد ، يكون بمعنى اعظم كقولك : هذا فوق فلان في العلم والشجاعة ، اذا كان الذي فيه منهما يزيد على ما في الاخر ، ويكون فوق بمعنى دون قولك : ان فلانا لقصير وفوق القصير ، وانه لقليل وفوق القليل ، وانه لاحمق وفوق الاحمق ، اي هو دون المذموم باستحقاقه الزيادة من الذم . ومن هذا المعنى قول الله عز وجل (ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) يقال : معنى قوله : « فما فوقها » : فما دونها .

ويقال : معناه فما هو اعظم منها . وقال الفراء: الاختيار ان تكون فوق في هذه الآية بمعنى اعظم ، لان البعوضة نهاية في الصغر ، ولم يدفع المعنى الاخر ولا رءاه خطا وقال قطرب : فوق تكون بمعنى دون مع

---

(83) 106 ، وابن الدهان 14 ، وابن الانباري 127.
(84) الاصمعي 62 ، وابن السكيت 336 ، وابن الانباري 209 ، وابن الدهان 16 ، والصغاني 559 ، وابو الطيب 524 .
(85) 109 .
(86) 11 ، وابن السكيت 286 .
(87) 153 . واورده ابو حاتم 178 ، وابو الطيب 536 ، وابن الدهان 17، والصغاني 616 ، وانظر قطربا 163 .

الوصف كقول العرب : انه لقليل وفوق القليل ، ولا تكون بمعنى دون مع الاسماء كقول العرب : هذه نملة وفوق النملة ، وهذا حمار وفوق الحمار قال : لا يجوز ان تكون فوق في هاتين المسألتين بمعنى دون لانه لم يتقدمه وصف ، وانما تقدمته النملة والحمار وهما اسمان ... » .

وهذا التعليل لجعل «فوق» من الاضداد خاطىء، فهذا اللفظ لا يكون بمعنى « دون » ابدا . وعبارة انه لاحمق وفوق الاحمق ، اي يزيد عنه حمقا ، لا دونه حمقا . فالمتكلم بهذه العبارة يريد منها المبالغة في وصفه بالحمق لا التقليل وكذا حال « فوق » مع جميع الصفات . اما مع الاسماء فاختلف فيها ، ولكننا نقول ايضا انها بمعنى « اعظم » لا غير . فمعنى الآية « ان الله عز وجل لا يستحيي ان يضرب الامثال بالبعوضة، وما هو اكبر منها حجما من الحشرات والحيوان ، مثل الذباب والطير والكلب والحمار ، التي استمد منها الامثلة في الآيات المختلفة . فاذا كان يقصد من البعوضة الضآلة والصغر ، فالمعنى انه سبحانه وتعالى لا يستحيي ان يضرب الامثال بالبعوضة وما هو اعظم منها صغرا وضآلة شان . فالتفسيران يبينان ان « فوق » لم تخرج عن معناها الاصلي ، وهو « اعظم » .

ونلحق بهذا النوع قول قطرب الذي يثير منا ابتسامة (88) : قالوا : ليال درع : سود الصدور وبيض الاعجاز ، وليال درع : بيض الصدور وسود الاعجاز ، وشاة درعاء يا هذا : بيضاء المؤخر سوداء المقدم ، وشاة درعاء - سوداء المؤخر بيضاء المقدم » وقال ابن الانباري معلقا « وتابع قطربا على هذا جماعة من البصريين » .

فماذا كان يضيره لو فسر الليلة الدرعاء والشاة الدرعاء كما فعل عبد الفتاح بدوي بما اختلط بياضها وسوادها كانها تلبس درعا ، دون اشارة الى المقدمة والمؤخرة فاستراح من عدها في الاضداد . وما اكثر الاضداد التي من هذا النوع .

11 - الافعال ذات الدلالة الزمنية المختلفة ، قال قطرب (89) : « وقالوا فعل : لما وقع ، وفعل : لما لم يقع . وفي التفسير (منع منا الكيل) . اي بمنع منا . و (نادى اصحاب النار) اي ينادون . وقال الحطيئة :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه
ان الوليد احق بالعذر

يريد : يشهد ، لانه قال : حين يلقي ربه ، ولم يلقه بعد .

« ويكون ايضا يفعل : لما وقع ، ولما لم يقع ، مثل قوله :

ولقد امر على اللئيم يسبني
فمضيت عنه وقلت لا يعنيني

كانه قال : ولقد مررت ، لانه قال : فمضيت عنه . وقال الآخر :

واني لآتيكم تشكر ما مضى
من الامر واستيجاب ما كان في غد

اي ما يكون في غد .. » .

وقال ايضا (90) : « ومن الاضداد - وهي آخره (يريد آخر الكتاب) - : اذ في القرآن لما مضى في معنى اذا ، واذ لما يستقبل ويجيء ايضا في معناها. وقال الله عز وجل (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت) و (لو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم) المعنى يفزعون اذا ، ويوقفون ولم يوقفوا بعد . وقال ايضا : (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم) وكان القول يكون في القيامة . فهذا لما لم يقع . وقال ابو النجم :

ثم جزاه الله عنا اذ جزى
جنات عدن في العلالي العلى

كانه قال : اذ يجزي ، لان هذا لم يقع بعد ... وقال اوس :

والحافظ الناس في الزمان اذا
لم يرسلوا تحت عائذ ربعا

وهبت الشمال البليل واذ
بات كميع الفتاة ملتفعا

---

(88) 142 . واورده ابو حاتم 132 ، وابن الانباري 165 ، وابو الطيب 271 . وابن الدهان 10 ، والصغاني 465 .
(89) 121 .
(90) 218 .

فقال : اذ واذا في معنى واحد ...» .

وارتضى ابو عبيدة هذا النوع من الاضداد ، وادخله في كتابه . قال ابن الانباري (91) : « قال أبو عبيدة : كان من الاضداد ، يقال : كان للماضي ، وكان للمستقبل . فاما كونها للماضي فلا يحتاج لها الى شاهد ، واما كونها للمستقبل فقول الشاعر :

فادركت من قد كان قبلي ولم ادع
لمن كان بعدي في القصائد مصنعا

اراد لمن يكون بعدي . قال وتكون كان زائدة ، كقوله تعالى (وكان الله غفورا رحيما) معناه والله غفور رحيم .

« قال ابو عبيدة : ويكون من الاضداد ايضا ، يقال : يكون للمستقبل ، يقال : يكون للماضي . فكونه للمستقبل لا يحتاج الى شاهد ، وكونه للماضي قول الصلتان يرثي المغيرة بن المهلب :

قل للقوافل والغزاة اذا غزوا
والباكرين وللمجد الرائح

ان السماحة والشجاعة ضمنا
قبرا بمرو على الطريق الواضح

فاذا مررت بقبره فاعقر به
كوم الجلاد وكل طرف سابح

وانضح جوانب قبره بدمائها
فلقد يكون اخادم وذبائح

اراد : فلقد كان .

« قال ابو بكر : والذى نذهب اليه ان « كان ويكون » لا يجوز ان يكونا على خلاف ظاهرهما ، الا اذا وضح المعنى . فلا يجوز لقائل ان يقول : كان عبد الله قائما ، بمعنى يكون عبد الله . وكذلك محال ان يقول : يكون عبد الله قائما ، بمعنى كان عبد الله . لان هذا ما لا يفهم ، ولا يقوم عليه دليل . فاذا انكشف المعنى حمل احد الفعلين على الآخر ، كقوله جل اسمه (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) معناه : من يكون في المهد فكيف نكلمه ، فصلح الماضي في موضع المستقبل لبيان معناه . وانشد الفراء :

فمن كان لا ياتيك الا لحاجة
يروح لها حتى تقضى ويغتدي

فاني لآتيكم تشكر ما مضى
من الامر واستيجاب ما كان في غد

اراد ما يكون في غد . وقال الله عز ذكره (ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار) فمعناه : وينادى ، لان المعنى مفهوم . وقال جل وعز : (يا ابانا منع منا الكيل) فقال بعض الناس : معناه يمنع منا . وقال الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه
ان الوليد احق بالعذر

معناه : يشهد الحطيئة . وقول ابي عبيدة : كان زائدة في قوله تبارك وتعالى : (وكان الله غفورا رحيما) ليس بصحيح ، لانها لا تلغي مبتداة ناصبة للخبر ، وانما التاويل المبتدأ عند الفراء ، « وكائن الله غفورا رحيما » فصلح الماضي في موضع الدائم ، لان افعال الله جل وعز تخالف افعال العباد ، فافعال العباد تنقطع ، ورحمة الله جل وعز لا تنقطع وكذلك مغفرته وعلمه وحكمته . وقال غير الفراء : كان القوم شاهدوا الله مغفرة ورحمة وعلما وحكمة ، فقال الله جل وعز : وكان الله غفورا رحيما) اي لم يزل الله عز وجل على ما شاهدتم » (92) .

ويرى الباحثون البلاغيون ان هذه الافعال لم تخرج عن زمنها ، سواء ادلت على الماضي ام على المضارع ، فهي مختلفة بمعناها الاصيل . وانما استعمال المضارع في الماضي التفات ذهني ، كي يبرز القائل الصور والاحداث الماضية ، ويجلبها تحت سمع السامع والقارىء وبصرهما ، وكانها تحدث في الحاضر ، لتكون اشد تاثيرا فيه ، وانطباعا في ذهنه . واستعمال الماضي في الزمن الحاضر التفات ذهني ، كي يبرر القائل تاكده من حدوث هذه الافعال في المستقبل ، وتيقنه من ذلك ، وكانما قد وقعت حقا وانتهى الامر . اما استعمال الافعال الماضية والمضارعة في غير زمنها في بعض الشعر لغير غرض بلاغي ، فانما هو امر فرضته ـ في غالب الظن ـ الضرورة ، وليس بالتوسع اللغوي ولا الاضداد .

(91) 28 ـ 69 .
(92) أورده ابو حاتم 198 ، وابن الدهان 18 ، والصغاني 646 .

12 ـ عبارات التفاؤل والتطير ، قال قطرب (93) : ومنه ايضا : رجل اعور : للذاهب العين ، ورجل اعور : للحديد البصر . ويقال غراب اعور ، لحدة بصره ، وقال الشاعر : ـ في الدار تحجال الغراب الاعور ـ » وقال (94) : « وقالوا : البصير : الصحيح البصر ، والبصير : الاعمى . والادم : الابيض ، والظبية الادماء : البيضاء . وآدم : اسود . وبعير آدم : حسن البياض شديد سواد المقلتين » .

ووجد هذا النوع عند مؤلفي الاضداد جميعا ، وعند غيرهم . قيل في اضداد الاصمعي (95) : « قال ابو زيد : الناهل في كلام العرب : العطشان ، والناهل : الذي قد شرب حتى روي ، قال النابغة :

الطاعن الطعنة يوم الوغى
ينهل منها الاسل الناهل

اي يروى منها العطشان. وقال الاصمعي : الانثى ناهلة ، والجميع نهال ، ورجل منهل : اي معطش ، وابل نهال : اي عطاش ، يتطيرون بها من العطش فيقولون : هذه ابل ناهلة .. » .

وقال الاصمعي (96) : « سموا المفازة مفعلة من فاز يفوز : اذا نجا ، وهي مهلكة ، قال الله جل ثناؤه : (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب)اي منجاة. واصل المفازة مهلكة ، فتفاءلوا بالسلامة والفوز ، كقولهم للملدوغ سليم ، والسليم : المعافى » .

واضاف ابا عبيدة عبارات التطير ، اذ قيل في اضداد الاصمعي (97) : « قال ابو عبيدة يقال : فرسي شوهاء . اي حسنة ، ولا يقال للذكر هذا شيء . ويقال : لا تشوه علي، اي لا تقل: ما افصحك، فتصيبني بالعين . قال : وما سمعتها الا في هذين الحرفين ، واما القبح فيقال : قد شوه الله خلقه ، ورجل اشوه ، وامرأة شوهاء ، قال الحطيئة :

ارى ثم وجها شوه الله خلقه
فقبح من وجه وقبح حامله

وقال ابو دواد يذكر فرسا :

فهي شوهاء كالخوالق فوها
مستجاف يضل فيه الشكيم »

واورد ابو حاتم وغيره هذا اللفظ ايضا، وفسره الاول تفسيرا واضحا ، اذ قال : « قال ابو عبيدة : مهرة شوهاء : قبيحة وجميلة . قال ابو حاتم : لا اظنهم قالوا للجميلة : شوهاء الا مخافة ان تصيبها عين ، كما قالوا للغراب : اعور لحدة بصره » .

وهذا النوع من التعبير ليس من الاضداد ايضا ، لان قائله يريد ان يوهم السامع بحقيقة اللفظ لا ضده ، او يوهم نفسه ايضا ، فهو حين يصف الملدوغ بالسليم يريد ان يوهم نفسه وسامعيه بانه سليم معافى ولا خوف عليه . ولا يريد باي حال من الاحوال ان يتصوره ملدوغا متالما . وكذا الحال في بقية الالفاظ . وقد نقد عبد الفتاح بدوي هذا النوع فقال عنه : « اذا طبقنا بسائط علوم اللغة على امثلة هذه الطائفة وجدنا المعنى الثاني مجازيا للكلمة ، والاول هو المعنى الحقيقي ليس غير ، ومعنى الضدية لا يتحقق بين الحقيقة والمجاز لانهما لا يتساويان في فهمهما من الكلمة ، وانما الذي يفهم هو المعنى الحقيقي فقط ، ولا يفهم المعنى الثاني الا بقرينته ، وبالانتقال من المعنى الاول حتما ، فيفوت معنى الضدية .

13 ـ صيغة افعل قال قطرب (98) : « ومنه ايضا شكاني فلان فاشكيته : اذا شكاك فاعتنته ، وقد يقولون ايضا : فاشتكيته ، اي زدته شكوى . ويقال : شكا الي ما لقي فما اشكيته اشكاء ، وقال الراجز :

---

(93) 75 . وانظر ابن الانباري 269 ، وابا الطيب 508 ، وابن الدهان 16 .
(94) 76 ، 17 . وانظر ابا الطيب 63 ، 12 ، وابن الدهان 7 .
(95) 45 . واورده قطرب 55 ، وابو حاتم 135 ، وابن السكيت 318 ، وابن الانباري 65 ، وابو الطيب 637 ، وابن الدهان 20 ، والصغاني 680.
(96) 38 . واورده ابن السكيت 319 ، وابن الانباري 59 وابو الطيب 560 والصغاني 615 .
(97) واورده ابو حاتم 220 ، وابن الانباري 181 ، وابو الطيب 408 ، وابن الدهان 13 .
(98) 201 . واورده ابو حاتم 147 ، وابن السكيت 365 ، وابن الانباري 140 ، وابو الطيب 390 ، وابن الدهان 13 ، والصغاني 526 .

تمـــد بالاعنـــاق او تلويهـــا
وتشتكـــي لو اننـــا نشكيـــهـــا »

وارتضى الاصمعي هذا النوع ، وادخلـه في الاضداد ، قال (99) : « اطلبت الرجل : اعطيتـه ما طلب ، واطلبته : الجاته الى ان يطلب ، ومنه قول ذي الرمة :

اضلـه راعيـا كلبيـة صـــدرا
عن مطلب وطلى للاعناق تضطرب

يقول : بعد الماء منهم حتى الجاهم الى طلبه ، ويروى : ــ عن مطلب قارب وراده عصب ــ .

« ويقال : اشكيت الرجل : اذا اتيت اليه ما يشكو منه ، واشكيته : نزعت شكايته .

قال الراجز :

تمـــد بالاعنـــاق او تلويـــهـا
وتشتكـــي لو اننـــا نشكيهـــا »

والامر في هذا النوع يسـير ايضـا ، فالمعنى الاصلي فيـها التعديـة ، قـال الرضـى (100) : « المعنى الغالب في افعل تعديـة ما كان ثلاثيـا » ، فالمعنى الاصيل لاطنب واشكى جعله يطلب ويشكو . ولكن هذا الطالب ، وهذه الشكوى ، كانا سببا فـي الاستجابة ، اي ازالة اسباب الطلب والشكـوى . فارتبط السبب (الشكوى) والسبب (ازالتها) في ذهن العربي ، فربط بينهما في لغته ، واطلق عليهما لفظا واحدا . ولكن هذا اللفظ كان حقيقيا حيـن اطلقه على السبب ، وكان مجازيا حين اطلقـه على المسبب ..

14 ــ صيغة تفعل ، قـال قطـرب (101) : «ويقال : تاثم فلان : كره الاثم ، وهو من لفظ الاثم ، وحرج ايضا يحرج : اثم » .

وقال ابن الانباري (102) : « وتاثم حرف من الاضداد ، يقال قد تاثم الرجل اذا اتى ما فيه المأثم ، وتاثم : اذا تجنب المأثم ، كما يقال : قد تحوب الرجل ، اذا تجنب الحوب ، ولا يستعمل الحوب في المعنـى الآخر .. » وقال ايضا تحنث حزف من الاضـداد ؛ يقال : تحنث الرجل : اذا اتى الحنث ، وقد تحنث اذا تجنب الحنث ... » .

وقال الرضى 103 : « والاغلب في تفعل معنى صيرورة الشيء ذا اصله ، كتاهل وتالم .. اي صار ذا اهل ، والم ... فيكون مطاوع فعل الذي هـو لجعل الشيء ذا اصله اما حقيقة كما في البته فتالب واصلته وتاصل ، واما تقديرا كما في تاهل ، اذ لـم يستعمل اهل بمعنى جعل ذا اهل » . ومن الطبيعي ان هذه الصيغة تاتي من الافعال التي تصلح فيهـا المطاوعة ..

وقال الرضى ايضـا (104) ان تفعـل تاتـي للتكلف نحو تشجع وتحـلم ، وما هو بشجـاع ولا حليم . اي الصفة منتفية عنه مسلوبة منه، وللاتخاذ، ويشترط ان يكون اصل الصيغة اسما لا مصدرا مثل تردى وتوسد من الـرداء والوسادة . فهـذا المعنـى ياتي من الاشياء المادية لا المجردة . وتاتي ايضا للعمل المتكرر في مهلة نحو تجرع وتفهم . وكذلك بمعنـى استفعل في الطلب ، والاعتقاد في الشيء انه علـى صفة اصله ، نحو تنجزته واستعظمته ، ومن الواضح ان الفعل فيهما متعد لا لازم ، واخيرا تاتي للتجنب.

ولو وضعنا هذه المعاني المختلفة لصيغة «تفعل» بجوار معنى التجنب ، لظهر لنا الفـرق الجـلي . فالصيغة فيها جميعا ــ ماعدا التكلف ــ متعـدية لا لازمة ، بخلاف الحال في معنى التجنب . فالاختلاط والتشابه اذن بين التكلف والتجنب . والاثنان يفيدان السلب كما راينا ، لان متكلف الشيء يشعـر بعـدم وجوده فيه ، ولذلك يتكلفه . ولكن هناك امرا ذاتيا فيهما يفرق بينهما : ذلك هو الاصل المشتقة منـه الصيغة . فاذا كان الاصل مكروها فالصيغة للتجنب ، مثل تاثم وتحوب . واذا كان الاصل محبوبا فالصيغة

(99) 92 . واورده ابو حاتم 179 ، وابن السكيت 364 ، وابـن الانبـاري 48 ، وابو الطيـب 457 ، والصغاني 561 .
(100) شرح الشافية 1 ــ 86 .
(101) 90 .
(102) 105 . وانظر ابا الطيب 17 ، وابن الدهان 6 ، وابا حاتم 231 .
(103) 111 . واورده ابن السكيت 445 ، وابن الدهان 9 .
(104) شرح الشافية 1 : 104 ــ 107.

للتكلف والتظاهر مثل تكرم وتحلم وتشجع . ويؤكد لنا ذلك ان الالفاظ الستة التي قيل انها تأتي للتجنب ماخوذة من امور مستكرهة ، وهي : تحنث ، تأثم ، تحرج ، تحوب ، تنجس ، تهجد ، والهجود مستكره للاتقياء الذين يجمل بهم ان يقضوا الليل في العبادة وذكر الله ، ومن هنا وصفته بالاستكـــراه (105) ولما كان العرب يستعملون هذه الصيغة في احد المعاني كانوا يحرمون استعمالهـا في غيـره الا اذا كان لا يلتبس به ، ولذلـك قال الرضي (106) : « ليست هذه الزيادات قياسا مطردا ، فليس لك ان تقول في ظرف : أظرف ، وفي نصر : أنصـر ... وكذا لا تقول : نصر ولا دخل . وكذا في غيـر ذلـك مـن الابواب ، بل يحتاج في كل باب الى سماع استعمال اللفظ المعين ، وكذا استعماله في المعنى المعيـن ، فكما ان لفظ اذهب وادخل يحتاج فيه الى السماع فكذا معناه الذي هو النقـل مثلا ، فليـس لك ان تستعمل اذهب بمعنى ازال الذهـــاب ، أو عـرض للذهاب ، او نحو ذلك » . ويدلنا على ذلك انهم لـم يرووا لنا شواهد على استعمال هذه الالفاظ في غير التجنب . وصرح ابن الانباري بان تحوب للتجنب وحده .

15 ـ الصيغ المتشابهة في ظاهرها المتضـادة المعاني وفقا لاختلاف تصريفها واصلها .

قال قطرب (107) : « ومنه ايضا اردات الرجل: اعنته واردبته ، وقول الله جل ثناؤه (ردءا يصدقني) وقالوا ايضا : اردبته : اعنته ، واردبته : اهلكتـه » واظهر امثلة من هذا النوع صيغة اسمي الفاعل من « افتعل » و « انفعل » من الاجوف والمضاعـف . وقد زاد هذه الفئة ابو حاتم في اضداده ، قال (108): «ما كان من المعتل من بنات الياء والواو التي في موضع العين ، او من المضاعف على مفتعل ومفتعل ، لفظهما فيه سواء، كقولك : مختار ، للفاعل والمفعول به ، اخترت عبد الله من الرجال فانا مختاره وهو مختار، وكذلك المودان من الزين ، والمعتاض ، والمقتال والمعتد، الفاعل والمفعول به ، يقال : اعتد فـلان شيئـا ، فالرجل معتد ، والشيء معتد. وكذلك المنقاد، تقول : انقدت لك ، فانا منقاد (لك) ، وانت منقاد لك . والاصل : انا منقود لك ، وانت منقود لك . قال ابو حاتم : « والاصل في المختار اذا كان فاعلا : مختير، فكرهوا حركة الياء فاسكنوها ، ثم قلبوها الفا للفتحة قبلها . واما مختار مفتعل ، فالاصل : مختير ، الياء مفتوحة فكرهوا حركتهافاسكنوها ثم قلبوهـا الفا . وكذلك مكتال ، لانه من بنات الياء ، من كال يكيل ، فكرهوا حركة الياء فاسكنوها ، ثم قلبوها الفا لانفتاح ما قبلها . ومعتد ، اصلها معتدد ، بالكسر للفاعل، ومعتدد ، بالفتح للمفعول به ، فتحركت الـدالان ، فاسكنوا الاولى ثم ادغموها في الثانيـة فاستـوت اللفظتان » .

ورضي التوزي وابن الدهـان عن هذا النـوع فادخلاه في اضدادهما ، ولكنه لم يحظ بمثل هـذا القبول عند غيرهما ، فنقده ابو الطيب ـ كما رأينا ـ نقدا مرا ، ونفاه من الاضداد واكتفى غيره باهماله . وكشف عبد الفتاح بدوي عن رأيه في هذا النـوع في قوله : « ولا جرم ان دعوى التضاد في هذه الطائفة انما هو اعتبار للنغمة الصوتية فقط ، مع تناسـي حقيقة الكلمة ومقياسها فمختار الذي اصله مختيـر بكسر الياء لا يمكن ان يقال انه مختار الذي اصله مختيـر بفتحها . ومن ثم تكمن دعوى التضـاد في هذه الطائفة اشبه بالهذر منها بالحقائق العلمية ، لان التضاد انما يتصل بالمعاني لا بالانغام » .

ونسي هذا الكاتب ان التضاد يقوم على الانغام (اصوات الكلمات) ومعانيها في نفس الوقت ، وانه لو فرق بين الاثنين ما وجدت الاضداد ، وما وجـد بحث فيها . ونسي ان الصرفيين عندما يقولـون ان مختار اصلها مختير بكسر الياء اذا كانت اسم فاعل، او بفتحها اذا كانت اسم مفعول ، فكرهت حركة الياء فحذفت ، وقلبت الياء الفا ، لا يريـدون بذلـك ان العرب نطقوا بها ـ اول ما نطقوا ـ بالياء المحركة ، ثم مر عليهم طور نطقوا فيه بالياء الساكنة ، ثم في الاطوار الاخيرة بالالف . فحسبهم اللغوي ، وذوقهم اصوات الالفاظ ، جعلاهم يستعملون اللفظ بالالف منذ الوهلة الاولى ، لانهم لم يستحسنوا غيرها ، حتى قبل وجوده . اما الصرفيون فيفترضون انه لو كانت اللفظة في اصلها على هذا البناء ، لاستمر بها

---

(105) انظر تاج العروس : حنث .
(106) شرح الشافية 1 ـ 84 .
(107) 185 .
(108) 175 .

التغيير الى ما صارت عليه . فكأنما اقام الكاتب رده على افتراضات . واعتبرها حقائق علمية ، فانهار نقده ، ولم يستطع الوقوف على قدميه . فالصيغتان في الحقيقة والواقع لا فرق بينهما ، ولم يكن يوجد فرق صوتي بينهما فقط ..

ولكننا ـ برغم انهيار نقده ـ لا نستطيع ان نلحق بهذا النوع من الالفاظ معنيين متضادين وانما نقول ان فيها تضادا في اتجاه المعنى ، لا المعنى نفسه . فهو مرة متجه الى الفاعل ، واخرى الى المفعول ، ولكنه هو هو في المرتين . فالاختيار لم يتغير ، وانما اتجه القائل ذات مرة الى فاعل هذا الحدث ، واتجه في المرة الثانية الى الذي وقع عليه الحدث . تلك هي الانواع التي اطلق عليها قطرب لفظ الاضداد ، وادخلها في كتابه . وقد ارتضاها اكثر المؤلفين كما رأينا ـ وزادوا عليها انواعا اخرى، فنتتبعها في كلامنا التالي ..

16 ـ الاضداد المجازية ، اي التي احد معنييها حقيقي ، والآخر مجازي . ويتمثل هذا النوع في صنفين من المجاز :

ا) فالصنف الاول : الالفاظ التي تطلق على الاناء وما فيه . وظهر هذا الصنف عند ابي عمرو بن العلاء . قيل في اضداد الاصمعي (109) : « قال ابو عمرو : الارة : النار ، والارة : الحفرة التي فيها النار » . ووجد عند ابي زيد ، قيل في اضداد الاصمعي (110) « الظعينة : المراة على البعير ، ويجوز أن تكون في بيتها . قال ابو زيد : الظعائن : الهوادج ، وانما سميت النساء ظعائن لانهن يكن فيها » . وارتضى ابو عبيدة هذا الصنف ، قيل في اضداد الاصمعي (111) : « قال ابو عبيدة : الكأس : الاناء الذي يشرب فيه، والكأس: ما فيه من الشراب» وسار على ذلك الاصمعي ، وروى في اضداده (112):

« ويقال ناقة ثني : اذا ولدت بطنين ، وثنيها : ما في بطنها ..

وسار المتاخرون على هذا النهج ، الذي اختطه الرعيل الاول من اللغويين ، فاورد ابن السكيت وابو حاتم وابن الدهان والصغاني ما اورده السابقون عليهم من امثلة هذا الصنف من الاضداد . واورد ابو حاتم مثالا لم يورده من قبله ، قال (113) « المجمر : العود الذي يدخن به . والمحجر ايضا : الذي يوضع فيه الدخنة ، ومنه قول ابن احمر :

لم يعد ان فتق الشجاع لهاته
وافتر قارحه كلز المجمر

اراد انه اول ما بزل، فقارحه مثل الحديدة التي يازرها المجمر مثل الشعيرة او اصغر » .

ونستطيع ان نضع في هذا الصنف امثال ما جاء في اضداد الاصمعي (114) : « الراوية : البعير الذي يستقى عليه الماء ، يقال : رويت عليه اروى رية : اذا استقيت عليه ، وبه سميت الراوية التي عليه ، وانما هي المزادة ، قال ابو النجم :

تمشي من الردة مشي الحفل
مشي الروايا بالمزاد الاثقل

يقال : اردت الناقة ، وذلك اذا كانت عطشى ثم رويت فعطنت ، فينفتح ضرعها حتى تحسب انها حامل . »

وجعل عبد الفتاح بدوي هذا النوع والفاظ التفاؤل والتطير طائفة واحدة ، ووجه اليها النقد الذي ذكرته انفا . والحق ان المعنى لم يتغير ولم يتضاد في اي لفظ منها . وانما كان من سنن العرب اطلاق اللفظ الواحد على الشيء وما يلازمه ، لاتجاه الذهن الى الاثنين معا كلما ذكر احدهما . فكان اللفظ في اصالته يدل على احد المعنيين ثم انتقل مجازا

(109) 64 . واورده ابن السكيت 338 وابن الانباري 208 والصغاني 373 .
(110) 68 . واورده ابن السكيت 342 وابن الانباري 100 وابن الدهان 15 والصغاني 566 .
(111) 67 . واورده ابن السكيت 341 وابن الدهان 18 والصغاني 639 وجعله ابن الانباري من اشباه الاضداد.
(112) 65 . واورده ابن السكيت 339 وابن الانباري 211 وابو الطيب 119 وابن الدهان 8 والصغاني 416 .
(113) 273 . واورده ابن الدهان 8 .
(114) 69 . واورده ابن السكيت 343 وابن الانباري 101 وابن الدهان 11.

الى المعنى الثاني لما بينهما من تلازم في الواقع والذهن .

(ب) لفظ امة ، الذى زاده ابن الانباري ، اذ قال (115 : « الامة حرف من الاضداد يقال : الامة للواحد الصالح الذى يؤتم به ، ويكون علما في الخير ، كقوله عز وجل : (ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا) . ويقال : الامة للجماعة ، كقوله عز وجل : (وجد عليه امة من الناس يسقون). ويقال : الامة ايضا للواحد المنفرد بالدين..».

وواضح ان عد هذا اللفظ من الاضداد فيه تعسف . فالمعنى لم يتضاد في اطلاق اللفظ على المفرد او الجماعة . بل اني اعتقد انه ـ حين يطلق على الفرد ـ يحتفظ بدلالته على الجماعة . فالآية تصف ابراهيم عليه السلام بانه كان يعادل في دينه وورعه وتقواه الجماعة من الناس ، او انه جمع ايمان الامة وورعها وتقواها في شخصه ، او انه كان كل المؤمنين في وقته القانتين الحنفاء ولم يكن مؤمن غيره .

واضاف ابن الانباري الى ما سبق انواعا اخرى ، لست على يقين اكلها من عنده ام ينقلها عن غيره ، اذ لا دليل يميل بالمرء الى احد هذين الرأيين الا فيما اسنده الى غيره . وهاك هذه الانواع :

17 ـ الافعال المتعدية واللازمة بمعنى واحد . قال (116) : « زال حرف من الاضداد . يقال : قد زال المكروه عن فلان ، وقد زال الله المكروه عنه بمعنى ازال ... وخان حرف من الاضداد . يقال : خان النعيم فلانا ، وخان الدهر النعيم فلانا . فيكون النعيم فاعلا في حال ، ومفعولا في حال ، وخان غير متغير اللفظ .. وطل حرف من الاضداد. يقال : طل فلان دم فلان اذا ابطله ، وطل دم فلان : اذا بطل ، والاختيار طل دمه ..» ولا شك ان ابن درستويه كان يتحدث عن هذا النوع ، حين ذكر ان العرب تحذف احيانا حرف الجر للتخفف عند كثرة الاستعمال . فالاستعمال الاصيل للفعل كان باللزوم ثم حذفت منه اداة التعدية للخفة ..

18 ـ الحروف والادوات ، التى تدل على معان مختلفة مثل قوله (117) : « قال بعض اهل العلم : ان حرف من الاضداد اعني المكسورة الهمزة المسكنة بالنون ،، يقال : ان قام عبد الله ، يراد به: ما قام عبد الله . حكى الكسائي عن العرب : ان احد خيرا من احد الا بالعافية . فمعناه : ما احد . وحكى الكسائي ايضا من العرب : ان قائما ، على معنى ان انا قائما ، فترك الهمز من انا ، وادغمت نون ان في نون انا : فصارتا نونا مشددة كما قال الشاعر :

وترمينني بالطرف اي انت مذنب
وتقلينني لكن ايـاك لا اقلي

اراد : لكن انا اياك ، فترك الهمز وادغم . يقال ان قام عبد الله ، بمعنى : قد قام عبد الله . قال جماعة من العلماء في تفسير قوله جل وعز (فذكر ان نفعت الذكرى) معناه : فذكر قد نفعت الذكرى..» ومن هذا الصنف ايضا علاجه لهل ، وما ، واو ، وقلده فيها الصغاني وابن الدهان ولم يكن اعتبار هذه الحروف من الاضداد من ابتكاره انما هو مقلد فيها ، بدليل عبارة « قال بعض اهل العلم » ويبدو انه يريد بذلك الكسائي في هذه المادة . وحقيقة الامر في هذه الحروف والادوات انها بقايا الفاظ قديمة ، تخلفت لدينا من الاطوار الاولى من اللغة ، وان معظمها يتالف من عناصر اشارية مثل النون . فهذه المعاني المنسوبة اليها ، وصلت الينا من مراحل مختلفة من التطور اللغوي ، ولا يستطاع الحكم بان هذه الانواع من الالفاظ من الاضداد (118) .

وقد عقب عبد الفتاح بدوي على هذا النوع بقوله : « ودعوى التضاد في هذه الطائفة تهافت لان معنى اللفظ لا تضاد فيه لان الاوضاع مختلفة فما النافية ليست ما الموصولة حتى نعقد تضادا او غير تضاد بين المعنيين » .

19 ـ التصغير ، اضافه ابن الانباري في قوله (119) : « من الاضداد ايضا التصغير ، يدخل لمعنى التحقير ، ولمعنى التعظيم . فمن التعظيم قول

---

(115) 169 واورده ابن الدهان 6 ، والصغاني 381.
(116) 175 ـ 177 . واوردها ابن الدهان 12 ، 10 .
(117) 116 .
(118) انظر كتاب التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر .
(119) 191 .

العرب : انا سر يسير هذا الامر ، اي انا اعلم الناس به . ومنه قول الانصاري يوم السقيفة : انا جديلها المحكك وعذيقها المرجب ، اي انا اعلم الناس بها . فالمراد من هذا التصغير التعظيم لا التحقير . والجديل : تصغير الجدل ، وهو الجذع ، واصل الشجرة . والمحكك : الذى يحتك به ، اراد انا يشتفى برايي كما تشتفي الابل اولات الجرب باحتكاكها بالجذع . والعذيق : تصغير العذق ، وهو الكباسة ، والشمراخ = العظيم . والمرجب : الذى يعمد لعظمه . وقال لبيد فى هذا المعنى :

وكل اناس سوف تدخل بينهم
دويهية تصفر منها الانامل

فصفر الداهية معظما لها لا محقرا لشانها ..».

واختلف العلماء فى التصغير ، قال الرضى (120) : « قيل : يجيء التصغير للتعظيم ، فيكون من باب الكناية ، يكنى بالصغر عن بلوغ الغاية فى العظم ، لان الشيء اذا جاوز حده جانس ضده ... واستدل لمجيء التصغير للاشارة الى معنى التعظيم بقوله :

وكل اناس سوف تدخل بينهم
دويهية تصفر منها الانامل

ورد بان تصغيرها على حسب احتقار الناس لها وتهاونهم بها ، اذ المراد بها الموت : اي يجيئهم ما يحتقرونه مع انه عظيم فى نفسه تصفر منه الانامل . واستدل ايضا بقوله :

فويق جبيل شاهق الراس لم تكن
لتبلغه حتى تكل وتعملا

ورد بتجوز كون المراد دقة الجبل وان كان طويلا ، واذا كان كذا فهو اشد لصعوده » .

نضيف الى ذلك ان تصغير اللفظ المفرد لا يفيد الا الصغر وما احاط به من ظلال وايحاءات كالرحمة والاشفاق والعطف والتدليل وما اليها . اما المعاني الاخرى التى تسبغ على الالفاظ المصغرة فتاتيها من تاليفها مع الفاظ اخرى فى سياق واحد واللفظ لا محالة يتغير معناه بعض الشيء عند التاليف : ضيقا واتساعا ، ليأتلف مع جيرانه ويتجه معها فى اتجاه واحد . ويجب ان تقوم دراسة الاضداد على الالفاظ المفردة ، لا المؤلفة فى عبارات .

20 ــ ما يحتمل معنيين متضادين من العبارات. واعتقد ان الذى دفع ابن الانباري الى الخوض فيه اتصاله بالقرءان . ونستطيع ان نصنفه الى ثلاث فئات ، هي :

أ ــ الآيات القرآنية ، وهي اكثر الفئات ورودا فى الكتاب ، واكبرها حظا من تناول المؤلف ، الذى يطيل فى بعضها ، ويورد اقوال المفسرين المختلفة . ومن اقصر الامثلة على ذلك قوله (121) : « ومما يفسر من كتاب الله جل وعز تفسيرين متضادين قوله جل اسمه : (وقال رجل مؤمن من ءال فرعون يكتم ايمانه) فيقول بعض المفسرين : الرجل المؤمن هو من ءال فرعون ، اي من امته وحيه ومن يدانيه فى النسب .. ويقول ءاخرون : الرجل المؤمن ليس من ءال فرعون ، انما يكتم ايمانه من ءال فرعون . وتقدير الآية عندهم : وقال رجل مؤمن يكتم ايمانه من ءال فرعون » .

ب ــ الشعر ، وهو ان كان اقل من الآيات عددا الا ان حظه من التناول لا يقل عن حظ الآيات طولا . ومثاله قوله (122) : « ومما يفسر من الشعر تفسيرين متضادين قول قيس ابن الخطيم :

اتعرف رسما كاطراد المذاهب
لعمرة وحشا غير موقف راكب

ديار التى كادت ونحن على منى
تحل بنا لولا نجاء الركائب

قال ابن السكيت : اراد بقوله : غير موقف راكب، الا ان راكبا وقف ، يعني نفسه . وقال غيره : لم يرد الشاعر هذا ، ولكنه ذهب الى ان «غيرا» نعت للرسم ، تاويله : اتعرف رسما غير موقف راكب ، اي ليس بموقف للراكب لاندراس الآثار منه وامحاء معالمه فمتى يصر به الراكب من بعد ذعر منه ، فلم يقف به .. » .

---

(120) شرح الشافية 1 : 191 .
(121) 292 . وانظر 167 ــ 8 ، 196 ، 223 ، 234 ، 237 ، 265 ، 270 ، 272 ــ 3 ، 297 ، 299 ، 333 ، 341 ، 353 ــ 57 .
(122) 183 . وانظر 197 ، 219 ، 238 .

ج ـ الاقوال . وهي تعادل الشعر كثرة ، ويتفاوت حظها من طول التناول . واقصر امثلتها قوله (123) : « ومن الاضداد ايضاً : قولهم : اقسمت ان تذهب معنا ، يحتمل معنيين : احدهما اقسمت الا تذهب معنا ، والآخر أن تذهب معنا . وكذلك نشدتك الله أن تذهب معنا ، يحتمل المعنيين جميعا ... » .

ووضع هذه العبارات في الاضداد غريب ، انكره بحق المستشرقون وعبد الفتاح بدوي . فلا يوجد لفظ معين يمكن أن يلصق به معنيان متضادان. وانما يستفاد المعنيان من السياق والقرائن .

21 ـ المقلوب من العبارات، بان ينسب الحدث الى غير فاعله . وامثلته نادرة عنده كقوله (124) : « ويقال تهيبت الطريق وتهيبني الطريق بمعنى ، وهذا من الاضداد .. قال ابو بكر : وهذا عندي مما يقلب لان اللبس يؤمن في مثله ، فيقال : تهيبني الطريق ، لانه معلوم ان الطريق لا تتهيب احدا ..» .

ووجد ابن الانباري مجموعة من الالفاظ تقارب الاضداد ، ولكنها لا تماثلها كل المماثلة ، فميزها عنها بعض التمييز ، وسماها احيانا « اشباه الاضداد » واحيانا « ما يجري مجرى الاضداد » ونجد تحت الاسم الاول الاصناف التالية :

1 ـ الالفاظ ذوات المعاني الحقيقية والمجازية قال (125) : « سمع حرف من الحروف التي تشبه الاضداد يكون بمعنى وقع الكلام في اذنه او قلبه ، ويكون سمع بمعنى اجاب . من ذلك قولهم : سمع الله لمن حمده ، معناه أجاب الله من حمده . ومن هذا قوله عز وجل : (اجيب دعوة الداعي اذا دعان) قال بعض اهل العلم : معناه اسمع دعاء الداعي اذا دعان . وقالوا : يكون سمع بمعنى اجاب ، واجاب بمعنى سمع ، كقولك للرجل : دعوت من لا يجيب ، اي دعوت من لا يسمع ، وانشدنا ابو العباس :

دعوت الله حتى خفت ان لا
يكون الله يسمع ما اقول

اراد يجيب ما اقول . وقال جماعة من المفسرين: معنى الآية أجيب دعوة الداع اذا دعان فيما الخيرة للداعي فيه ، لانه يقصد بالدعاء قصد صلاح شانه ، فاذا سئل ما لا صلاح له فيه فان صرفه عنه اجابة له في الحقيقة » . والحق ان الاجابة معنى مجازي لسمع ، لان السمع اول مرحلة من مراحل اجابة الطلب او الدعاء ، أو هي نتيجة السمع عند الرضى. فلا اجابة بدون سماع . ولما كان الامران بهذا الارتباط صح توسيع معنى السمع والاجابة بحيث تشمل المراحل كلها . فهذا الاستعمال توسع وتجوز لا تضاد . ولا شبهه . ويبدو من عبارة ان الانباري انه ينقل كلام بعض الناس قبله . ونضع في هذا الصنف لفظي كأس وطبخ الذي سبق الكلام عليهما . واعتبرهما ابن الانباري من اشباه الاضداد .

2 ـ الالوان . قال (126) : «ومما يتبه حروف الاضداد الاحمر ، يقال : احمر للاحمر . ويقال رجل احمر اذا كان ابيض . قال ابو عمرو بن العلاء : اكثر ما تقول العرب في الناس اسود واحمر .

قال : وهو اكثر من قولهم اسود وابيض، وانشد ابن السكيت لاوس بن حجر :

واحمر جعدا عليه النسور
وفي ضبنة ثعلب منكسر
وفي صدره مثل جيب الفتا
ة تشهق حينا وحينا تهر

قوله : في ضبنه : معناه وفي ابطه . والثعلب : ما دخل من طرف الرمح في جبة السنان . وقوله : تشهق حينا : شهيق الطعنة ان تدخل الريح فيها فتصوت . وتهر : معناه تقبقب » . وكذا قال عن الاصفر والاخضر والاسود . ولكن هذه الالفاظ جميعا لا تضاد ولا شبهه فيها ، وانما الالوان نفسها لا تكون خالصة ، فبعضها اصفر مائل الى السواد ، وبعضها ابيض يشوبه شيء من حمرة ، وبعضها اخضر يغلب عليه السواد ... وهكذا . ولم تضع العرب الفاظا خاصة لجميع هذه الالوان الفرعية ، اكتفاء بالرئيسية منها ، فاصبح اللفظ الواحد يطلق على الدرجات المختلفة من اللون ، فظن انه من الاضداد. وادخل الصغاني وابن الدهان هذه الالوان كلها في اضدادهما ، كما ادخل قطرب فيها الاصفر .

---

(123) 200 ـ 202 . وانظر 159 ، 160 ، 206.
(124) 56 .
(125) 80 . واورده ابن الدهان 12 ، وعقب عليه بان فيه نظرا .
(126) 231 .

3 ـ عبارات الاستهزاء . قال (127) : « ومما يشبه الاضداد قولهم في الاستهزاء : مرحبا بفلان ، اذا أحبوا قربه ، ومرحبا به اذا لم يريدوا قربه . فمعناه على هذا التأويل : لا مرحبا به . فالمعنى الاول اشهر واعرف من ان يحتاج فيه الى شاهد . والمعنى الثاني شاهده :

مرحبا بالذي اذا جاء الـ
ـخير أو غاب غاب عن كل خير

هذا هجاء وذم ، معناه مرحبا بالذي اذا جاء غاب عن كل خير ، جاء الخير او غاب . وتاويل مرحبا : لا مرحبا به ....

« ومما يشبه الاضداد ايضا قولهم للعاقل : يا عاقل ، وللجاهل اذا استهزؤوا به : يا عاقل ، يريدون يا عاقل عند نفسك ، قال الله عز وجل : (ثم صبوا فوق راسه من عذاب الحميم ، ذق انك انت العزيز الكريم) معناه عند نفسك ، فاما عندنا فلست عزيزا ولا كريما . وكذلك قوله عز وجل فيما حكاه عن مخاطبة قوم شعيب شعيبا بقولهم : « انك لانت الحليم الرشيد » (ارادوا انت الحليم الرشيد عند نفسك) قال الشاعر :

فقلت لسيدنا يا حليـم
انك لم تاس اسوا رفيقا

اراد يا حليم عند نفسك فانما عندي فانت سفيه » .

وهذه العبارات لا تضاد ولا ما يشبهه فيها ، فالمتكلم حين وصف الجاهل بالعاقل لم يقصد قط ان يصفه بحقيقته وهي الجهل ، بل اراد وصفه بالعقل . واعني بذلك انه لم يقصد قط ان يصفه بحقيقته وهي الجهل ، بل اراد وصفه بالعقل . واعني بذلك انه لم يرد ان نتصور انسانا جاهلا بقوله « يا عاقل » ، بل ارادنا أن نتصور انسانا عاقلا ، ونستحضر هذه الصورة امامنا حتى نمتلىء احساسا بها ، ثم ننظر الى هذا الجاهل ونرى مدى انطباق الصورة عليه . ومن المفارقة في الصورتين يأتي الاستهزاء والضحك . ولو كان يريد منا ان نتصور انسانا جاهلا بقوله هذا ، ما جعلنا نضحك ، لان الصورتين ستنطبقان : ولا تبرز المفارقة بينهما ..

اما الصنف الثاني ، او ما يجري مجرى الاضداد عنده ، فهو الاعلام التي يختلف في عروبتها او اعجميتها . قال (128) : « ومما يفسر من كتاب الله جل وعز تفسيرين متضادين قوله عز وجل : « طه » . قال بعض المفسرين : معناه ، يا رجل ، بالسريانية . وقال غيره : معناه : يا رجل ، بلغة عك ، وزعم ان عكا يقولون للرجل : طه ، وكذلك للرجال والنسوة ، وانشد :

ان السفاه كطه من خليقتكم
لا قدس الله اخلاق الملاعين

وقال الاخفش : طه علامة لانقطاع السورة من السورة التي قبلها . وقال الفراء : طه بمنزلة الم ، ابتدا الله جل وعز بها مكتفيا بها من جميع حروف المعجم ، ليدل العرب على انه انزل القرآن على نبيه باللغة التي يعلمونها والالفاظ التي يعقلونها كي لا تكون لهم على الله حجة . » .

وقال (129) : « ومنها ايضا يعقوب يكون عربيا لان العرب تسمي ذكر الحجل يعقوبا ويجمعونه يعاقيب ، قال سلامة بن جندل :

اودى الشباب حميدا ذو التعاجيب
اودى وذلك شأو غير مطلوب

ولى حثيثا وهذا الشيب يطلبه
لو كان يدركه ركض اليعاقيب

واجرى نفس القول على اسحاق ، وعلى لفظ من غير الاعلام ، هو مشكاة ، التي قيل انها حبشية، وقيل عربية . ولا شك ان الاساس الذي اقام عليه ابن الانباري القول بتضاد هذه الاعلام او جريانها مجرى الاضداد منهار لا قائمة له ، ولا يحتاج الى تفنيد ..

---

(127) 156 ، 157 . واوردهما ابن الدهان 11 ، 16 .
(128) 314 .
(129) 337 .

تحليل ونقد

الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني
الرباط

كتاب (الاضداد في اللغة) تاليف حسين محمد ، من الجمهورية العربية المتحدة تناول فيه بالدرس العميق الهادىء الرزين المستوعب ظاهرة الاضداد في اللغة العربية من جوانبها المختلفة ، واولى عناية خاصة لدراسة مواقف المؤلفين من الاضداد قديما وحديثا خصوصا المثبتين والنافين لها . ويقع في 129 ص ، وقد جعله في مقدمة وبابين وخاتمة، فاستعرض في المقدمة نشاة الدراسات اللغوية في اللغة العربية ، مؤكدا ان اللغويين تنبهوا للاضداد في القرن الثاني فشرعوا يلتقطونها ، ويشيرون اليها ويتحدثون عنها .

وكانت الثمرة الطبيعية اول تدوين للاضداد في اللغة العربية ، وكانت هذه الثمرة الاولى باكورة عدة ثمار جمعت الاضداد ودرستها ، وحول هذا الثمار تدور الصفحات الآتية : متاملين ، متذوقين ، ومقدرين .

وتناول الباب الاول الاختلاف في مفهوم الاضداد وفيه خمسة فصول : تعريف الاضداد ، والاختلاف في وجود الاضداد ، واصل الاضداد ، وشروط الاضداد ، وانواع الاضداد .

فذكر في فصل تعريف الاضداد ان قطربا ذكر ان من اللفظ الواحد الذى يجيء على معنيين فصاعدا ما يكون متضادا في شيء وضده ، وتابعه ابن الانباري، وابوحاتم السجستاني .

وكان ابو الطيب اللغوي هو الذي ازال كل ابهام عن اللفظ فقال : وضد الشيء ما نافاه ، وليس كل ما خالف الشيء ضدا له .

وذكر في الفصل الثاني أن موقف اللغويين القدماء من هذا النوع من الالفاظ اختلف ، فارتضى جماعة منهم وجودها ، واعترف بها ، وتحدث عما يندرج تحتها من الفاظ ، وعللها احيانا ، وكانت هذه الجماعة اسبق في الظهور من معارضتها اذ كان منها ابو عمرو بن العلاء ، والخليل بن احمد ، ويونس بن حبيب ، وتلاميذهم ، واستمر المنتسبون اليها في البقاء الى يومنا هذا .

اما الجماعة الاخرى فاعترضت على الاضداد وانكرتها ، و نعرف من انتمى اليها من القدماء غير ابن درستويه ولا تصح نسبة ذلك لثعلب ، وكثر اتباعها في العصر الحديث ، فكان منهم عبد الفتاح بدوي كاتب مقالة (ضدان) في دائرة المعارف الاسلامية (مادة اضداد) وكان منهم اغلب المستشرقين الذين كتبوا المقالات والرسائل الصغيرة في رفض الاضداد .

وقد دافع القائلون بها عن وجودها وردوا على ما قاله المعارضون ولعل اهم من قام بهذا العمل احمد ابن فارس ، وابن سيده ، ومحمد بن القاسم الانباري ، فاقام ابن سيده دفاعه على الجدل العقلي، واعتمد ابن فارس في احد رأييه على طبيعة اللغة

العربية . وفى الراي الثاني على الرواة الذين نقلوا لنا الاضداد ، وكان ابن فارس اكثر توفيقا فى دفاعه عن الاضداد واقرب الى طبيعة اللغة وما تفرضه من مناهج ويؤسفنا الا نعثر على كتابه الذى الفه فى الدفاع عن الاضداد .

واما ابن الانباري فقد تناول واحدا من آراء المنكرين ورد عليه بل لعله اهم راي لهم .

ولما كانت كتب المعارضين من القدماء، لم تصل الينا كنا مضطرين للاعتماد على حكايات غيرهم عنهم .

وقد اجملت دائرة المعارف الاسلامية والدكتور منصور فهمي الادلة التى اعتمد عليها المستشرقون فى انكار الاضداد ...

وفى اصل الاضداد ، ذكر ان اللغويين منذ تنبهوا الى الاضداد واختلفوا فيها وهم فى محاولة دائبة لتعليلها والكشف عن نشاتها وكيف وجدت فى اللغة ، واشترك فى هذه المحاولة من اتفقت اراؤهم ومن اختلفت ، ومن اعترفوا بها ومن رفضوها والقدماء والمحدثون والعرب والمستعربون.

واختلفت الطرق التى سلكها العرب وغير العرب فى دراسة هذه الظاهرة اللغوية فى كثير من الاحيان ، فقد اوغل بعض المستشرقين فى تاريخ البشرية وارجع ظاهرة الاضداد الى العصور القديمة عندما كان العقل البشري فى سذاجته فلم يكن يفطن لما يحتويه من تناقض ، وتوسط بعضهم فى الابغال فلم يرجع الى التاريخ البشري واقتصر على التاريخ العربي القديم . وان العرب اقترضوا بعض هذه الاضداد من اللغات المجاورة لهم ولما كان معناها الاصلي قد تختلف ايحاءاته فقد ادى ذلك الى التضاد فى اللغة .

واقتصد بعضهم الآخر ونظر فى تاريخ الجماعة الواحدة فوجد فيه من التطور ما يؤدي الى التضاد دون استعارة من الخارج .

ولم يلتفت فريق الى التاريخ وبحث عن العلة فيمن يراه من جماعة وفرد وما يسودهما من ظواهر ذات تاثير فى اللغة فذهب الى ان بعض المعاني المتضادة يرتبط بعضها ببعض وتتداعى فى الذهن فتؤدي الى التضاد .

اما اللغويون العرب فقصروا جهدهم على الالفاظ العربية ولم يبعدوا عنها لا تاريخا ولا لغة ولا اجتماعا، وحاولوا ان يتبينوا اصولها ونشاتها ومسالكها فى اللغة العربية نفسها ، ويؤدي بنا التامل الدقيق فى العال التى اوردها الدارسون للغة العربية نفسها دون حاجة الى الفلسفة او للعثور على نظرية عامة او الابعاد فى مجاهل التفكير البشري الى ان اهم ما قالوه من علل واخطره هو **المعنى الاصلي للالفاظ** فنحن فى حاجة الى اعادة النظر فى هذه الالفاظ وفيما ذكره لها اللغويون من معان وفى حاجة الى محاولة استكشاف الطريق الى المعنى الاصلي الحق لها ، الذى لا يابه بما حولها من ملابسات ، ولا بما يرتبط من اشواط، سائر فى طرق معتدلة آنا ومعوجة آونة ، فان وصلنا الى ذلك المعنى غمرنا الضوء من كل مكان ، واستبان لنا تطور اللفظ ، وما اكتسبه من معان ودلالات ، وما احيط به من ظلال ، جعلته مشوبا بالغموض احيانا ، وعرضة للخطا احيانا اخرى.

واما بقية العلل فهي ارتياد لبعض الطرق التى سلكها اللفظ ليصل الى درجة التضاد ، مثل اللغات، والمجاز والحذف للتخفيف وما اليها من امور .

كذلك يؤدي بنا التامل الدقيق فى الاقوال السالفة الى نتيجة قد تبدو غريبة ولكنها حقيقة واقعة ، اعني انه **لم يوجد من اللغويين** على قدر ما نستطيع الحكم من خلال ما عندنا من معلومات**من ينكر وجود الاضداد فى اللغة العربية الفصحى ، فمن رفضوا اضدادا رفضوا اصالتها** ، اريد انهم رفضوا ان تكون وضعت اصلا للمعنيين المتضادين ، ولكن ما خضعت له من تطور بالتوسع او المجاز او الحذف ادى الى وجود لفظين متماثلين فى كل شيء بحيث لا يمكن ان نفرق بينهما ونعدها لفظين متمايزين غير ان معنييهما متضادان ، كذلك ادى انصباب الروافد القبلية دون تمييز بينها فى تيار العربية الفصحى الى ما اشبه الظاهرة السابقة **فالفصحى بصورتها الراهنة تحتوي على هذا النوع من الالفاظ (الذي نسميه الاضداد) باعتراف جميع القدماء** ، وان اختلفت اصول هذه الاضداد والطرق التى سلكتها الى التيار الحالي .

ويؤدي بنا ايضا الى نتيجة اخرى اجمع عليها المنكرون والمؤيدون هي قلة الاضداد فى اللغة العربية الفصحى ...

وفى شروط الاضداد ذكر انه اذا كان من انكر الاضداد اطلق قوله فيها ثم اضطر الى التراجع قليلا عنه عندما استقصى النظر فى اللغة ، او احتوى قوله على ما يومىء الى تراجع ، فاننا نجد الظاهرة نفسها عند المؤيدين لوجود الاضداد او بعضه .

لقد كان فى وهم المؤلفين الاولين ان الاضداد الفاظ قلائل فى اللغة فحاولوا جمعها وابرازها وتحت اثر من هذا الاحساس ومن هذه الغاية جمعوا مع الاضداد الفاظا كثيرة عدوها اضدادا وهي واهنة الصلة بها وكان اكثر المؤلفين وقوعا تحت هذا الاثر قطرب اول من كتب عن الاضداد ، فاضطر من جاء بعده الى ادخال ما قاله فى كتابه ، كيلا يتهم بانه فاته من الاضداد شيء .

ولكن اهل القرنين الثالث والرابع كانوا قد اخذوا يتخلصون من هذا الاثر ، بعد ان راوا ما راوا امامهم من قبل كتب الاضداد ، فاخذوا يعيدون النظر فيها ، وفى اضداد قطرب خاصة ، وينقدون منها كثيرا .

وعند تتبع هذا النقد استخلص المؤلف كثيرا من الشروط يجب ان تتوفر فى اللفظ حتى يدخلوه فى الاضداد ، ولكن الامر المؤسف ان هذه الشروط اهملها واضعوها انفسهم ، ولم يطبقوها على كثير من الالفاظ التي دونوها فى كتبهم .

وبالرغم من ذلك تتبع المؤلف هذه الشروط لاهميتها فى توضيح صورة الاضداد فى اذهانهم ، وان لم تتحقق كل التحقق فى كتبهم .

واهم مؤلف يكثر عنده هذا النوع من الاقوال هو ابو بكر محمد ابن القاسم الانباري ونستطيع ان نقول انه يضع الشروط التالية فى اللفظ ليعده من الاضداد :

1 ـ ان تكون صيغة اللفظ فى المعنيين المتضادين واحدة ، اى ان يكون المعنيان المتضادان لفعلين او اسمين او صفتين ، وكل منهما على صيغة واحدة ، ولا يحكم بالتضاد فيما شذ عن ذلك .

2 ـ كذلك اشترط ان يكون للصيغة الواحدة معنيان متضادان لا يمكن ردهما الى معنى واحد .

3 ـ واشترط ابن الانباري ايضا ان يكون المعنيان فصيحين لا من ابتكار العامة .

4 ـ واشترط ان يكون المعنيان معروفين استعملهما العرب فى حوارهم .. ويبدو ان ابا الطيب يتفق مع ابن الانباري فى هذا الراي ايضا ، وان لم يعلن ذلك صراحة .

5 ـ واشترط ابو الطيب أن لا يكون المعنى الثاني مجازيا .

6 ـ واشترط فى المعنى ان لا يكون مقلوبا او مزالا عن جهته .

7 ـ وانفرد ابو الطيب ـ اللغوي باخراج مجموعة من الالفاظ تتضاد فى معانيها ، وتتماثل فى صورتها ولكن هذه الصورة المتماثلة فى ظاهرها مختلفة فى حقيقتها اذ تختلف العلل الصرفية التى وصلت بها الى صورتها .

8 ـ بل ذهب الى ابعد من ذلك واخرج من الاضداد ما اختلفت صيغ المجرد والمصدر منه من الافعال . ثم استخلص من هذا غموض صورة الاضداد فى ذهن قطرب ، او عدم وجود حدود لها ، واخذها فى الموضوع والجلاء ، والتحدد على مر الزمان فكانت اللمحات الاولى منها عند ابي حاتم السجستاني ، ثم كان كمال التحدد والبروز عند ابن الانباري وابي الطيب .

ويعتبر الفصل الخامس فى (انواع الاضداد) اطول فصول الباب الاول ، اذ يستغرق احدى وثلاثين صفحة . وبالرغم من احساس العلماء بأن الاضداد فئات عدة ، فان المؤلف لم يجد بين القدماء من حاول ان يصنفها قاصرا او شاملا ، وبالرغم من أن المحدثين اضطروا الى الفصل بين انواع منها ليسهل عليهم رفضها او تعليلها فانهم لم يرتقوا بهذا الفصل الى ان يكون تصنيفا .

والرجل الوحيد الذى حاول شيئا من ذلك هو عبد الفتاح بدوي ، ويبدو انه اراد ان يعوض ما فات اللغويين فاعطانا تقسيمين ، اما الاول فصغير ومحكم ، ويقوم على اساس نحوي ، فقد جعل الاضداد اربعة انواع .

وكان التقسيم الثاني واسعا ينظر الى عدة اسس بحيث تغيب عن النظر الذى يريد ان يصل اليها فالاضداد فى هذا التقسيم تقع فى عشر طوائف .

وبعد ان ذكرها المؤلف ذكر انه يعني كثيرا بالتقسيمات النظرية وان كان لن يهملها كل الاهمال

وانه سيجعل همه كله في تتبع الانواع المختلفة التي أدخلها مؤلفو الاضداد فعلا في كتبهم اذ اختلف النظر والتطبيق عندهم ، وانه سيبدأ باول مؤلف : قطرب اذ توسع في تصور الاضداد اكثر من غيره، حتى اضطر من جاء بعده الى نقضه ورفض كثير منها ، وانه سيتبع كل صنف منها بما وجه اليه من نقد .

قد وصلت الاصناف عنده الى ستة عشر صنفا واضاف ابن الانباري اليها خمسة انواع اخرى فصارت واحدا وعشرين نوعا ، قبل مؤلفنا منها نوعا واحدا هو ما سماه بالاضداد الحقيقية وبين في العشرين الباقية كلها انها ليست من الاضداد في شيء .

ووجد ابن الانباري مجموعة من الالفاظ تقارب الاضداد ولكنها لا تماثلها كل المماثلة ، فميزها عنها بعض التمييز ، وسماها احيانا (اشباه الاضداد).

وتناول الباب الثاني جمع الاضداد وتدوينها وفيه اربعة فصول : اسباب هذا الجمع واهدافه . وبواكير جمع الاضداد ، وكتب في الاضداد وفصول في الاضداد .

وقد لخص الفصل الاول في اخره فذكر ان **الدافع الذي حمل اللغويين على تدوين الاضداد تغير من جيل الى آخر** ، فقد بدأ هواية في القرن الثاني ، ثم صار تقوى تحمل على ازالة ما قد يعتري بعض الآيات من غموض في القرن الثالث ، ثم تحول الى رغبة في الدفاع عن العرب ولغتهم امام الدعاوي الشعوبية في اوائل القرن الرابع وحب المعرفة المجردة في ذلك القرن ايضا ، وانتهى الى الرغبة في متع الباحثين عن المحسنات اللفظية ذخيرة لغوية جديدة في العصور المتاخرة .

وتغير الهدف الذي سعى اليه كل من هؤلاء المؤلفين : فبينما كان اولهم قطرب يسعى الى استقصاء الاضداد من نهر اللغة مباشرة ، استكثر هذا ابو حاتم ووجد الا سبيل اليه واقتصر على التطلع الى جمع ما امكن ، ثم سعى ابن الانباري الى الجمع ولكن من الكتب المؤلفة قبله ، واضافة بعض الشواهد للعلل ، وسعى ابو الطيب الى ذلك مع التمحيص الجيد ، ثم كان الهدف الاختصار والجمع معا .

وفي **بواكير جمع الاضداد** ، ذكر ان **الخليل** رحمه الله كان **بعد الاضداد من عجائب الكلام ووسع العربية** قد اشار الى قدر منها في (العين) وروى واحد من الاضداد عن يوسف بن حبيب ، ورويت ثلاثة عن الكسائي وما نسب الى الفراء لا يتعدى الضد او الاثنين .

وتكثر الاضداد بعض الشيء عند ابي عمرو الشيباني ثم تكثر وتتنوع عند ابي زيد الانصاري ، وبقي بعض الناس يوردون اضدادا بعد عهد التاليف فيها ، دون ان يشاركوا هم في تدوينها في كتب خاصة ، مثل ابن الاعرابي .

ويعتبر الفصل الثالث من الباب الثاني الخاص بكتب الاضداد اطول فصول الكتاب اذ انه يقع في 52 صفحة .

فقد عثر في اثناء بحثه عن الاضداد على اسماء ثلاثة وعشرين كتابا فيها ، ثم اورد اسماءها مرتبة بحسب وفيات مؤلفيها ، مع بيان المفقود والموجود منها والمخطوط والمطبوع .

ثم تصدى للكلام على كل واحد منها بخصوصه، واصفا دارسا مقارنا ناقدا . في اناة وتثبت وانصاف .

وفي الفصل الرابع والاخير عن فصول في الاضداد ، درس ما ورد في الغريب المصنف لابي عبيد القاسم بن سلام **وادب الكاتب** لابن قتيبة ، **والمخصص** لابن سيده ، **والمزهر** للسيوطي .

ولخص في (الخاتمة) النتائج التي توصل اليها في الكتاب .

الاضداد ظاهرة غريبة :

فالذهن ينكرها للوهلة الاولى ، ويابى ان يصدق وجود لفظ واحد يدل على معنى وضده ، وعلى هذا الاساس انكرها من انكرها ، ولكن هذا الاساس لم يمنع ان يومن بها جماعات من القدماء وقلة من المحدثين ، وكانت الفئة الاخيرة او افراد منها هي التي حاولت ان تعلل هذه الظاهرة الغريبة ولعل ظاهرة لغوية اخرى لم تحط بمثل سوء التفاهم الذي احيطت به ظاهرة الاضداد ، فمنذ عهد مبكر اختلف اللغويون فيها ، وما زالوا مختلفين ، فاذا تاملنا ما دار بينهم من نقاش وجدنا الفاظهم وعباراتهم تتنافر وتتصادم ، والمؤدى الاخير لما يقولون واحدا ، فهم يتجادلون حول تصورين لا تصور واحد . وفي

مجالين لا مجال واحد ولو تحدثوا عن تصور واحد ، وفي داخل مجال واحد ، لهذا كثير من الخصومة وبطل كثير من الادلة ، وربما ضاع الخلاف .

فقد كان المنكرون للاضداد ينظرون في مجال ضيق لا يتجاوز اية لهجة قبلية على حدتها ، ولما لم يعثروا على الاضداد في داخل اللهجة الواحدة انكروا الاضداد برمتها وابوا ان يسموا بالاضداد ما جاء دالا على معان متضادة في لهجات قبلية مختلفة ، وان ضمتها اللغة العربية بعد .

وقصر المنكرون تصورهم على الالفاظ في وضعها الاول واعلنوا انهم لم يجدوا لفظا واحدا وضعه العرب حين وضعوه الا على معنيين متضادين ، اما اذا كان الاستعمال او التبدلات اللغوية او التغييرات الصرفية قد ادت بعد ذلك الى ان تزول الفوارق بين بعض الالفاظ ذوات المعاني المتضادة فتبدو الآن في صورة واحدة ومتضادة المعنى ، فليس ذلك من الاضداد عندهم .. ونستطيع ان نقول : ان كل لفظ توفر له سبب ما فادى به الى الدلالة على معنيين متضادين يابى المنكرون ان يسموه ضدا ، مهما كان السبب : لهجات قبلية او حذفا ، او تخفيفا ، او ابدالا ، او اعلالا ، او مجازا ، او تفاؤلا وتطيرا ، او ما شاكل ذلك من امور ، وانما الضد عندهم يجب الا يكون هناك سبب في دلالته هذه ، بل وضع اصلا لها .

اما المؤيدون للاضداد فوسعوا نظريتهم ومجالهم : نظروا الى اللغة العربية في شمولها وعمومها فلفت نظرهم وجود هذه الفئة من الاضداد ، ثم لم يعنوا بالبحث عن اسبابها ، او — ان شئنا الدقة — لم تهمهم الاسباب فقد عرفوا اسبابا للظاهرة ، واعلن اكثرهم ان كثيرا من الاضداد ماتية من اللهجات القبلية ، وكشفوا عن كثير من هذه الطائفة من الالفاظ ، ولا خلاف بينهم وبين المنكرين غير انهم ارتضوا تسمية هذه الالفاظ القلبية بالاضداد، ولم يرتضها الآخرون .

كذلك لم يقصر المؤيدون نظرتهم على الالفاظ عند وضعها الاول ، بل اغفلوا هذا الوضع عامدين اذ لا اهمية له عندهم . وامعنوا النظر في الالفاظ العربية التي يسمعونها ، ويتحدثون بها ، ويدونون ما يدونون، فوجدوا فيها فئة من هذه الالفاظ التقطوها ومنحوها اسم الاضداد ، دون ان يابهوا للاسباب التي ادت الى ذلك ودون ان ينكروا هذه الاسباب ، بل لقد شارك بعضهم كقطرب في الكشف عن بعضها كالتوسع وما شاكله لان وجود سبب للتضاد لا يتنافى عندهم مع التسمية .

ولعل الاجابة عن الاسئلة التالية تزيل كل لبس امام المتنازعين :

1 — هل توجد في العربية الفصحى التي نعرفها اليوم الفاظ ذوات صورة واحدة ومعنيين متضادين ؟

اعتقد ان احدا لا يستطيع ان ينكر هذا الوجود.

2 — هل تعد هذه الالفاظ ظاهرة خاصة يجدر بها التسجيل بين الظواهر اللغوية ؟ اعتقد ان احدا لا ينكر هذا ايضا ، واضيف الى ذلك ان هذه الظاهرة لا تنفرد بها اللغة العربية ، بل توجد في بعض اللغات السامية كما كشف بعض المستشرقين ، وفي بعض اللغات الاوربية كما كشف الاستاذ عبد الفتاح بدوي، واذن فوجود الاضداد ليس منقصة للغة العربية كما ظن الشعوبيون قديما ، وكما يفهم من اقوال بعض المستشرقين حديثا ، مما كان واحدا من الدوافع — في اعتقادي — التي حملت عبد الفتاح بدوي على المغالاة في رفض الاضداد .

3 — هل تستحق هذه الظاهرة تسمية خاصة ؟ اعتقد ان كل ظاهرة مهما كان شيوعها يجدر بها ان يكون لها اسم خاص ، اما المؤيدون فقد سموها (الاضداد) فاذا كان المنكرون يجدون لها تسمية اكثر ملاءمة ، فاهلا بها .

4 — هل الاضداد بالشيوع الذي صوره القدماء؟ واضح من الدراسة الماضية ان تصور الاضداد اختلف من وقت لآخر ، ومن رجل الى رجل ، فضاق حينا واتسع آخر ، فكان تصور الاضداد ضيق المجال في باديء الامر عند المتحدثين فيها دون ان يحاولوا لها جمعا او تدوينا ، ولكن هذا التصور اتسع اتساعا غريبا عند اول مؤلف في الاضداد ، قطرب ، فشمل شتاتا غريبا من الالفاظ ، مما يدل على ان قطرب لم يكن يحسن تصور الاضداد، ولا احسن وضع الحواجز الفاصلة بينها وبين غيرها ، واضطر اكثر من جاء بعد قطرب الى تضييق المجال الذي وسعه ونفي كثير من الفئات والالفاظ التي ادخلها في كتابه ، فاخذ تصور الاضداد في الوضوح وحدودها في البروز ، ثم اتسع المجال مرة اخرى عند ابن الانباري خاصة لما ادخل من انواع جديدة من الاضداد ، واذن فالمجال

كان متغيرا عند القدماء ، وما اظن الا انه كذلك عند المحدثين وان كان اضيق عندهم منه عند القدماء .

5 ـ هل تعد كل الانواع التى اتفق عليها القدماء من الاضداد ؟

اعتقد أن أحدا لا يجادل فى ان ذلك مستحيل ، وان بعض ما عده القدماء من الاضداد لا يستحق هذه التسمية ، وضرب لذلك امثلة :

أ ـ ما اختلف فى تفسيره من الآيات والاشعار والاقوال .

ب ـ الفاظ وعبارات التفاؤل والتطير والاستهزاء

ج ـ ما وضع فى الالفاظ تصغا او تكثيرا ، مثل الالفاظ التى تختلف معانيها دون ان تتضاد ، والالفاظ التى تتضاد معانيها بسبب ما يتعلق بها من ادوات كرغب عن والى

6 ـ ما السبيل الى معرفة اللفظ الجدير باسم الضد ؟

اعتقد ان السبيل الوحيد الى ذلك هو المعنى الذى يدل عليه اللفظ ، وهنا احترز فاقول المعنى الذى يدل عليه اللفظ ، واعني بهذا الاحتراز امثال هذه الالفاظ التى لم يحسن بعض اللغويين التنبه الى معناها الحق ونسبوا اليها معاني بدت متضادة ، فالصريم الوقت المنقطع اعني الوقت المنقطع من وقت آخر ، كالليل يقطع من النهار والنهار يقطع من الليل، وليس الصريم الليل خاصة ولا النهار خاصة

وامثال ذلك كثيرة ، تفطن اليها بعض القدماء انفسهم ...

واذن فما وجدنا من الالفاظ معانيه تؤول الى معنى واحد لا تضاد فيه يجب ان نخرجه من الاضداد، وما دل من الالفاظ على معنى واحد : سواء كان معنى خارجيا او ذهنيا يجب ان نخرجه من الاضداد ، وما دل من الالفاظ على معنى واحد : سواء كان معنى خارجيا او ذهنيا يجب ان نخرجه من الاضداد .

وانما يجب ان يكون الضد لفظا واحدا ، ذا صورة واحدة ، ومعنيين متضادين حقا لم يكن الجمع بينهما ، تلك هي الصورة الصحيحة للاضداد، وذلك هو السبيل القويم الى تطبيقها .

ويتجلى من هذا العرض القيمة العلمية لهذا الكتاب وما بذل فيه مؤلفه من الوقت والجهد وما تحلى به من الصبر والتثبت والتاني ، وما تحراه من دقة التعبير والتجرد .

التطور اللغوي ونشوء العربية

الأستاذ محمد يوسف نور الدين
"بيروت"

ان اللغة هي منزل الكائن البشري هيدجر ...وان اساس اللغة لا يقوم على ما تحتويه من كلمات ، وانما يقوم على تركيبها الخاص وبامكاننا ان نقول : ان العرب في ظل الاستعمار ، لجأوا لحماية هويتهم الى اللغة العربية او بالحرى الى اللغة العربية القديمة .ومن هنا نلمس قوة وصلابة قيم ومزايا العربية التي ناضلت بنجاح، لا ضد غزوات اللغات الغربية المسلحة بقدرة علمية ، على الايصال وحسب ، وانما كذلك ضد اللهجات « المحلية العامية » التي حاول الاستعمار تغذيتها لزرع الفرقة والتجزئة (المستشرق جاك بيرك).

ـ والتطور اللغوي ونشوء العربية مغامرتان في قلب الزمان ، وشوق الانسان اليهما ، الاولى : سفر في التاريخ وغوص الى اعماقه ... ثم ارتفاع عالد الى شواطىء الحاضر ، محمل بلآلىء الاعماق . والثانية : ارتقاء الى المستقبل ، وحوم على اعاليه...ثم اكتشاف غني سعيد يعود بالبشرى المقامر . من هنالك كانت نشأة اللغة العربية ، وبهذا السبيل النشوئي تسير فلا تتوقف بعد اليوم .

فاللغة بالاصل وجدان يتراءى بالكلمة ، وهما مرآة ذات وجهين في ايهما نظرت تطالعك البهجة .

فحاضرنا مشكل ، عديد المشاكل ، وقد زج انساننا العربي في اعتم المقلقات واخطرها ، ان في لغته ، او في عقيدته او في وجوده .

وعندي ان في هذه المقلقات اللغوية متشابكة تشابكا .

وقد عاش هذا القلق العصري، مغامر، يتخطى، فكتب منذ ثلاثين عاما ، كتاب « مقدمة لدرس لغة العرب » لذا فهذا يعني بان هذه المقدمة هي لاقتضاءات معاصرة، تتأثر في كل مكان من ارضنا العربية وتسير الى صعوبات اللغة العربية ومشكلاتها ، او تؤكد سهولتها واطمئنانها حتى لقد تألفت في ذلك مؤلفات جمة .

وبعد فاقول : بان اللغة هي وجدان يتراءى بالكلمة ، وهما مرآة ذات وجهين ، في ايهما نظرت تطالعك البهجة .

من هنا كانت نشأة العربية ، وبمجراها تسير ، فلا تتوقف بعد اليوم .

العربية واللغات الاخرى :

اللغة منزل الكائن البشري ومرآة فكره ، يلجأ اليها لتأكيد وجوده وينطلق بها لتحقيق رغباته .

لكن المنازل تغني بسكانها ، والمرايا تصفو وتجمل بالعيون الناظرة اليها والوجوه المصورة عليها .

فاذا هاجر السكان او ماتوا ، خلت المنازل وافتقر غناها ، فهم روحها التي بها تحيا ، واذا قبحت العيون وشاهت الوجوه حالت المرايا وتعكر صفاؤها وافسد استعدادها، فالصور المطبوعة عليها وجهها الذي تبدو.

اللغات موطن الشعوب ومرايا أشواقهم .

واللغة العربية موطن العرب ومرآة تفكيرهم . فالمقارنة بين طبيعة اللغات ومميزاتها الحيوية من جهة، وبين طبيعة اللغة العربية وخصائصها من جهة ثانية . فالمقارنة الحقيقية بعيدة عن طبيعة اللغة العربية ، وملابساتها فى حياة العربي ، وعلى تحديدها وادراكها يتوقف تصحيح الاساوب التعليمي وتقويم المنهج التربوي ، واقتصاد الجهود المبذولة .

لان هذه الاسباب اثرت على النفس العربية تاثيرا شديدا وطبعتها بطابع غريب من الزهد باللغة .

ومن هذا التاثير وهذا الطابع .

1 ــ طغيان اللغات الاجنبية على حياتنا العامة فى كل مرافقها الضرورية كالبيع والشراء ، حتى يكاد العربي يشعر بالغربةفى محيطه العربي وبين ذوي قرباه.

2 ــ الرغبة الثقافية : وهذه الرغبة لا تتحقق للعربي ، ما لم يلم الماما كبيرا بلغة او اكثر من اللغات الاجنبية ، لان الانتاج الفكري والعلمي المعاصر اجنبي بكل نواحيه .

واننا فى حاجة ضرورية لان نعد عقلا عربيا اعدادا ثقافيا كاملا ولا يتسنى له ذلك الا بالاقبال على اللغات الاجنبية ، فالمستحضرات الكيماوية ، وقطع الغيار للصناعات الثقيلة وغيرها والادوية كلها لا يوجد لها مفردات مترجمة فى العربية ، فاضطر المثقف العربي لان يلم باكثر من لغة ليتسنى له ان يسير فى تيار التطور والرقي العالمي والعلمي والادبي .

3 ــ الامتياز : بمعنى ان متعلم اللغات الاجنبية المتحدث بها ، شخص ممتاز او مميز ، لان هذه اللغات بالنظر العام ، عنوان الحضارة فى الحياة والشخصية وعنوان الترف العلمي ، والاجتماعي ، والعقلي من كل الوجوه .

وليس فى جميع اسباب الشكوى ما يرجع الى طبيعة اللغة وجوهرها وانما هي اسباب عرضية ، غير موضوعية ، خامرت اجيالنا ، فلم تلم بلغتها الام واستصعبتها، ومالت الى اللغات الاجنبية واستسهلتها الا ان فى نظري بان اللغة العربية هي اسهل اللغات ، ان فى قانون نحوها ، وصرفها ، او املاءاتها او اشتقاقها بل اكثرها آلية اذا صح التعبير .

كل هذا لا يعني خلو العربية من الفوضى .

ادوار اللغات ونشوء العربية

ان تاريخ النشوء اللغوي وتطور اللهجة ، من المواضيع التي لا تزال اقرب الى الغموض منها الى التبيان . ومحاولة الكشف عليها تبسط رأياجديدا حول موضوع الغموض ، لم تتوقف عند بحوث المتكلمين وجدلهم بقضية اللغات أهي توقيفية، هكذا وردتنا من الله ؟ أم وضعية ، تعارف عليها الانسان ؟ كما لم تقتنع بتقسيمات ، علماء المقابلة اللغوية فى هذا العصر .

والحديث عندنا هو ان اغلب اللغات ان لم تكن جميعها قد مرت فى ادوار ثلاثة ، مرتقية منها أم غير مرتقية .

1 ــ دور المقطع البسيط : وهذا يعني بان المقطع كان واحديا غير مركب مثل (ba) وفى هذا الدور ولد الجدول الهجائي (ا ، ب ، ت ، ث ، ...) الخ .

بمختلف اصواته، بمختلف حركاته العربية، وان كل صوت يدل دلالة بعينها ، فمثلا ، (عو) يدل على الحيوانات الزئيرية و (وا) يدل على الصوت المضاعف والمتكرر بحركة الفكين .

2 ــ دور المقطعين : اى دور الجمع بين مقطعين واحديين للدلالة على معنى جديد ، ويعتبر هذا الدور دور محاكاة الطبيعة فى مختلف اصواتها ، وفى آخره قصد الانسان الى التاليف من منطقه ، فجمع الانسان السامي بين المقطعين البسيطين (عو) و (وا) للدلالة على ان الحيوان يعوي فتوصل الى (عووا) بمعنى حيوان يصوت او يواصل التصويت .

والى هذا الدور تنظر المعلات فى العربية ، فهي ثنائية الوضع مؤلفة من مقطعين واحديين فقط .

وباستقرار العربية فى الثلاثي بدات تصحح الصوت فيها ، وتستحصل مثل (عوى) بمعنى صوت الحيوان .

3 ــ دور المقاطع : اى دور الجمع بين المقاطع البسيطة الواحدية وبين المقاطع الثنائية ، لتاليف دلالة مركبة .

وكان هذا الدور بقصد الانسان تلبية لحاجته الماسة اليه . وفيه اتخذت العربية وحدتها الكاملة واستقرت فى الثلاثي .

وختام تمهيدنا هذا لادوار اللغات ونشوء العربية لقد مرت شتى ضروب اللغات بأدوار ثلاثة : المقطع البسيط والمقطعين والمقاطع . وانها لتؤلف جميعها الدور اللغوي البدائي .

ولقد حييت لغات وامينت لغات، وهنالك لغات اخذت بالحياة ، وهذه الاخيرة وحدها الفت العهد اللغوي الثاني عهد اللغات المرتقية .

وتقسم هذه المرتقية باعتبار مرونتها للتصريف والاشتقاق الى متصرفة وغير متصرفة .

دور المقطع البسيط :

ا ــ الانسان الفطري: ان لبحث الانسان الفطري، علما قائما بذاته هو علم الانسان « الانثروبولوجيا » وما يهمني من ذلك الانسان الفطري في موضوعي هو البحث عن اصواته السليقية ، التي استقرت في فايتها على صورة وكانت لهجة ، ولا تعتبر الاصوات لهجة ما لم تستقر .

اما اذا اخذنا في تحليل كلمات العربية على معاني الجدول خرجنا بمقارنات يمكن عليها فرض التطور، واليك بعض الامثلة من الكلمات التالية : شجر ، جبل، جمل ، سمك .

المثال الاول : شجر ، شجرة وتحل الى حروفها، ش : معناه سن وهو ينظر الى مطلق النبات ، ج ومعناه جمل ، وهو ينظر الى مطلق الارتفاع،ر :ومعناه راس.

اما المعنى المؤلف : نبات مرتفع له راس ، وهو تماما معنى الشجر وانظر الى تخصيص اللغوي الشجر بما له ساق .

المثال الثاني : جبل وتحل الى حروفها ، ج : ومعناه ينظر الى الارتفاع ب ، ومعناه بيت ، ل ومعناه الملاصقة والمساس .

والمعنى المؤلف : بيت مرتفع ملاصق ، وكانه للسحاب او للارض وهو تصور صحيح عن الجبل .

ومن هنا لا نطمئن الى القول ، بأن لغات العالم تفرعت عن مصدر واحد ، وانما هي وليدة اسباب مكانية اجتماعية ، وانفرادية كالعادات وليدة الطبائع والظروف .

واذا كان الانسان الفطري لم يتوصل الى الجدول الهجائي بترتيبه الحالي ، فانما توصل اليه كمجموعة لكلمات اللغة الفطرية .

واذا كان الجدول لا يضمن الدراسات نكل كلمة من كلمات اللغة على وجه التحقيق ، فانه يمكننا الاطمئنان الى انفصال اللغة عنه ثنائية فثلاثية .

كما يمكن الاسترواح بترتيبها الحالي هي ثمانية وعشرون حرفا .

— ◆ —

ان الانسان القديم جمع بين مقطعين واحديين للدلالة على معنى جديد .

لقد شرع الانسان يسعى وراء مقاصده في هذا الدور ، واخذ يحاكي الطبيعة ومن هذه المحاكاة التي تعتبر مصدره اللغوي الوحيد ترك ثروة لغوية هي اكثر المقاطع الثنائية .

ومن طبيعة الانسان معاني الجدول الهجائي يوقفنا على مستوى الاخيلة الواضحة ، ويساعدنا على تحقيق التطور الوصفي وتاريخ الاشتقاق .

واننا نورد هنا مقالين يوضحان ان الثنائي من وضع هذا الدور ، هما عبى ، والمعلات .

المثال الاول : عبى، تحلل الى حروفها ع : وتدل على الحيوان الزئيري ، ب وتدل على البيت .

ا ــ ابدال الهمزة : وهذه ظاهرة قليل من باحثي الاشتقاق العربي قد تنبهوا لها ، مع ان لها خطورتها في بناء الكلم وتحرير معانيها ، فمثلا : اخي اصلها وخي :

ب ــ الحذف والتضعيف : وهذه ايضا ظاهرة لغوية لم ينتبهوا اليها وهي بلا ريب عظيمة الاهمية من حيث وجوه المعرفة .

وخلاصة القول : في ان الانسان حاكي الطبيعة بمختلف اصواتها ، وقصد في آخرها الى التاليف من منطقه بالمعنى الذي اوضحناه ، للتاليف والجمع بين مقطعين احاديين وترك ثروة هي اكثر المقاطع الثنائية.

ورأينا كذلك حالة لا بد منها فى نشوء اللغات ، واليه يرجع الثنائي بما فى ذلك المعلات ، راسا على وجه الاطراد لان واحدا من هذه الحروف ليس اصلا .

— ◆ —

لقد كان بقصد الانسان تلبية لحاجته ، اذ كان يجمع بين المقاطع البسيطة الواحدية وبين المقاطع الثنائية لتاليف دلالات مركبة . ان العربية اتخذت وحدتها فى هذا الدور واستقرت فى الثلاثي .

ان هذا الدور هو عصر الحجر المهذب الذي تم فيه للانسان كثير من الرقي ، واننا نستعرض ادوار النشوء فى بناء هيكل اللغة على سنة تدريجية غير آخذة سبيلا من الطفرة او قائمة على اسس المفاجئات المحضة .

ولقد كان الانسان بحاجة فى هذا الدور الى الخطاب المبسوط ، بحكم عوامل الرقي والحضارة والتطور ، فلقد وجه العناية الكاملة الى اصلاح المنطق.

ولقد قسم هذا الدور الى حلقات ، تعاقبت على اعتبار الثلاثي ، ولم تتغير فى اساسها ، وانما اختلفت فى نسب جعلت بينها تفاوتا ارتقائيا فقط ...

ـ وفى بحث هذه الحلقات ، حصرنا النظر فى التطبيق على العربية ، ان تطبيقها فيما عدا العربية يحتاج الى مجهود اكبر ، وعرض اوسع .

ا ـ يتكون المنطق اللغوي والتعبير عن حاجته.

ب ـ تكثير اللغة وخوض الزيادة ...

ج ـ النضج اللغوي عند العرب كما يظهر فى قاعدة القلب ، ومستلزماتها ونتائجها .

د ـ المعاني التركيبية ، وطريقة الغربي فى وضع الرباعي من الثلاثي ...

هـ ـ المنطق اللغوي ... والتعبير عن الحاجة.

لقد بذل الانسان ما فى وسعه فى سبيل ان يخضع ما حوله من اجل معاشه ، واعمل الحيلة لتكوين منطقه بين مطالب العيش الجديدة فصارت له لغة على مقياس من تفكيره وحوائجه ...

ومن المعقول بأن المنطق اللغوي قد امتد الى آخر العصر البرونزي الذي تم فيه للانسان وضع الحجر الاساسي فى بناء الحضارة .

لقد بقيت لغة الانسان فى المنطق اللغوي على غير تناسب ولا نظام ، اجتهد فى اصطناع كلماتها لابراز ما فى نفسه ولنقل ما يريد الى من يشاركه الحياة ويجاور المسكن .

وتتالف من :

ا ـ المفردات ذات المقطع الواحد .. اصبحت فيما بعد الجدول الهجائي .

ب ـ المفردات ذات المقطعين ، وهي المعلات فى دور النضج اللغوي .

ج ـ واخيرا ذات المقاطع ... وهي فى النهاية ذات وحدة فى العربية منها تصدر كلمات العربية واليها تنسب .

— ◆ —

ولقد اخترمت الكتابة فى هذا العهد ، ما يثبت لنا التقدم الاجتماعي ، وعلى العقلية اللغوية الراقية ، ويشير الى سمو هذا القسم من الوجهة اللغوية .

المهم ان اللغة لم تعد اتكالية ابدا بمعنى ان الانسان لم يعد يتكل فى تكثير اللغة وتسمية الاشياء ، على المصادفات الطبيعية والملابسات الظرفية بل اصبح يلجا الى التاليف والتركيب عند الحاجة وحسب المقتضيات .

ولقد بقيت اللغة فوضوية لسببين :

1 ـ لم يهتد اللغويون الى ترتيب جدول الهجاء على وجهه .

2 ـ وكذلك لم يهتد اللغويون الى قانون الزيادة ومكانها ، فكان يزيد على الثنائي هكذا من غير تقرير لموضع الزيادة .

وهنالك تباين بين المنطق اللغوي ، والاكثار من اللغة ويرجع هذا الى فرقتين اساسيتين هما: التركيب والقصد .

ا ـ فالثلاثي فى المنطق اللغوي كان عبارة عن تركيب مؤلف من ثلاث كلمات ، فلم يكن مفردا فى مفهومه وان تعين بحكم دلالته وموضوعه والثلاثي فى

الاكثار اللغوي كان عبارة عن مؤلف حرفي ، لا دلالة لحروفه على الانفراد في اللغة الاتية. :

2 ـ ان الثلاثي في تكثير اللغة دخله القصد في ان يكون ثلاثيا بينما كان ثلاثيا بضرورة تشخيص الموضوع للواضع .

— ◆ —

بعد الاطلاع على ما سبق نعتقد بانه تم النضج اللغوي عند العرب فلم تعد اللغة في حاجة الى شيء مما كانت تحتاجه اولا ، بل خضعت خضوعا عاما لا أصول في الوضع ، اعتبرها اللغاويون (الفيلولوجيون) اسمى وارفع ما عرفت امة من الامم، لقد رتب العربي الجدول الهجائي في طور الاكثار من اللغة ، فلقد كان لعرب الجنوب على ترتيب خاص يكتبون بها .

ولقد اجتهد في تنظيم قاعدة الوضع حتى استخلص قاعدة موزونة جدا ، وهكذا رتب الجدول الهجائي واصبح ضروريا ان نتكلم في تحديد معاني حروف الهجاء بما تسمح به النصوص المحفوظة .

ومعقول العربي ، في ترتيب الجدول الهجائي ، وفي اعتماده القاعدة بكل فروعها ، وفي ثورته اللغوية التي اخضع فيها لقاعدة جميع مواد اللغة ، هذا معقول وحده يكفل بقاء العربية في مواجهة المستقبل ...

ومن هنا كانت ثورة اللغويين على الانحرافات المضلة ، والاوهام المريبة التي تشد معقول العربي حسب العربية للفرد العربي .

ولقد عبر العربي عن معقوله اللغوي الراقي بقاعدة على مواد اللغة .

أ ـ تصحيح المعاجم

ب ـ الوقوف على الدخيل من الاصيل .

ج ـ ان ناخذ الوضع الجديد على مقتضاة لنسد نقص اللغة وتكفي حاجتها .

معاني الحروف العربية

بما تقدم من شرح ، وفر العربي للغته كل عناصر البقاء ، فاعتمد الجدول الهجائي ، بمعانيه العمومية ، نواة اللغة .

واعتمد كذلك خصائصه الحيوية ، ووحدة الكلمة حتى لقد اخضع جميع القوانين اللغوية وكرسها خدمة للغتـــه .

ولم تعد لغة العربي في حاجة لغير مكملات تتحكم باللغة وتنفي عنها التريث البطيء، وتدفع بها الى المد غير المنجزر .

ولو بقي العربي في جزيرته العربية لبلغت اللغة العربية اوجها في الازدهـار والتطـور وتنظيـم تلـك المكملات ، ولما بقيت على فوضى الموازين ، والجموع والمصادر والافعال .

فتوقف تطور هذه اللغة بداعي الخـروج مـن جزيرته ، وتخلل العرب في بقاع متباعدة من الارض .

حتى لقد صادف الفرد العربي من لغته المعانـي التركيبية ما لم تؤديه له في النضج اللغوي ، ولقـد لاحظ ان معاني هذه اللغة لا تبنى سوى على الثلاثي ، كما لاحظ ايضا ان هنالك زيادة في المعنى تفتقر الى ما يؤديها لتتم دلالتها .

من هنا انبثقت حاجة الفرد العربي الى الزيادة ولقد توصل العربي في هذه الحقبة من الزمـن الى التعرف على زيادات تصريفية ، جعل موضعها في اول الثلاثي ولم تولد الافعال الرباعية والخماسية ، وكانت هذه الزيادة ، قد استنبطت في وقتها لان العربي كان بحاجة اليها ، وعليه فالزيادات على اقسام :

1 ـ زيادة البناء : وتتكون هـذه الزيادة مـن الثلاثي ولوضعها الوسط .

2 ـ زيادة الاشتقاق ، وتتكون من الثلاثي لكي يحصل العربي على الرباعي وما اليه وموضوع الاخر .

3 ـ زيادة التصريف:من قبل كتفعل،واستفعل، وموضعها الاول غالبا لعدم الالتباس .

4 ـ اما زيادة الاسناد : كفربت ليسـت مـن اقسام الزيادة على معنى التاليف ، بل ان الكلمة تصبح مركبة ، لانها سواء كانت علامة او ضميرا فانها حاجة غريبة عن الكلمة ، وقد تضاف لجمال الاسلوب .

هذه هي الطريقة الفضلى التي كان على العربـي ان يسير اليها منذ حقبة من الزمن بعيدة .

لاستحصال الرباعي والخماسي .

وان هذه الطريقة هي نظرية ليس للمرء ان يشك بها ومستوجبا الاخذ بها ، ولا بأس من ايراد امثلة تؤكدها ، كالقرطاس ، والعنقاش ، وختلم .

فالقرطاس : ذكرت المعارف الاسلامية معتمدة تحقيقات : ان القرطاس هو ورق البردي وانتهى الى انها دخيلة .

ولو عدنا الى ما قبل هذه الحقبة لوجدنا بان القرطاس يرجع الى قرط ، والقرط هو ورق الكراث، ولما كان الورق من البردي على نسق ، ابسط ، اضافوا اليه السين لكي يبرهن ويدل دلالة على اهم مميزات الورق النباتي المذكور .

ف ، قرط + س = ورق البردي .

فالقرط مجموعا الى السين يدل على السعة والبسطة ويعطي المعنى التحليلي للقرطاس .

ـ وعنقاش : ومعناه المتجول فى القرى وهو كذلك بحسب القاعدة يرجع الى الثلاثي .

عنق : ومعناه شدة المسير ، والشين تدل على التفشي وعدم النظام ، وعليه فالدلالة التامة له السير على غير نظام ، وهو المقصود من التجول فى القرى .

ـ وختلم : ويرجع الى ختل فى الاصل وهي موضوعة لاخذ الشيء خفية .

وهكذا كان فاخذ العربي عن الاولين هذه القواعد لقاعدة العربي هذه فوائد اهمها :

1 ـ وضع حد للتعريب .

2 ـ وضع قاعدة صحيحة لابحاث اللغة .

3 ـ افادة غير محدودة فى الوضع للمستقبل ، وسد حاجة اللغة من بين هذا المد العلمي الزاخر بالمصطلحات .

4 ـ تصحيح المعاجم عن الاقدمين ، الذين كان اعتقادهم بأن الرباعي وما اليه تولد بالتركيب والاختزال ، فظن بأن بعثر من بعث ـ اثير ـ ومثل شقحطب من شق ـ حطب ـ

وقد يظن بأن هذا الاخذ الجديد الذي تدل العربية عليه ، من اقرار الموازين بدلالات قارة ، واقرار الاقفال على باب واحد ، وكذلك المصادر والجموع كل هذا لتصل العربية الى المستوى الذي كانت ستصل اليه لو بقيت فى محيطها بدون براح .

التطور فى اللهجة

للهجة منزلة كبرى وذات اهمية من اللغة ، ولا تقل شانا عن الالفاظ ، لانها قد تكون وحدها فارقا على خطر . ويجدر بنا ان نقول ان تعرضنا للهجة العربية بحد ذاتها ، فهي متعددة الوجوه ، ومتعددة الاجناس ويتكلمها خلق كثير فعلينا اذن ان نتناول هذا البحث من هذه الزاوية من خلال الوجهة العامة وليس تعرضي لكل قبيلة او لكل جنس على حدة بل بصورة شاملة عامة .

1 ـ التطور الصوتي :

ان الباحثين والمدققين عن اللهجات اخذوا بقايا التطور المستمر فى قبيلة ما علما عليها وحدها ، ولم يراعوا اعتبارات اللهجة الواحدة .

فهذا هو الخطأ بعينه لانه لا يصح من كل وجوهه، وبالتالي لان ما كانوا يسمونه باختلاف اللغات ، ليس له هذا المعنى حقيقة ، بل انها بقايا تركها التطور الذي لم ينته من تكامله .

ومن الامثلة التي خفيت على اللغويين ما يلي :

يعقيد : وهو العسل الذي يعقد على النار وكذلك يعصيد وهي بقلة مرة لها لبن لزج .

اللغويون لا يترددون فيما ذهب اليه صاحب المصباح وغيره من الكتب اللغوية، مع اعتبار ان الكلمات السابقة هي ابنية اسمية اشتق عليها توسعه .

ولكن القول بأن العربي مر بهذه الكلمات فى عهد من العهود اللغوية السابقة كافعال فقط ، فقد كان العربي يتخذ من الفعل وصفا ينطبق بالحركة حرفا ، فلا عجيبة ان يكون العربي قد وصف بهذه الافعال ، مثل يعقيد وينبوع .

وهكذا تطورت اللغة وظلت هنا دالة على مسمياتها مع الاحتفاظ بكونها الاثير الذي ينظر الى وجوده السابق ، وبرهان ذلك يتلخص فى :

1 ـ بقاء اللهجة المقدرة على لسان بعض القبائل العربية فمثلا لقد ورد فى الجاهلية على لسان الشاعر الاسود عنترة كلمة ينباع فى قوله :

ينباع من ذفرى غضوب جسرة
زيافة مثل الفنيق المكدم

ووردت عند غيره ينبوع ، فهنا يبرز التباين في اللهجة ، بينما يرجعها اللغويون في المعاجم القديمة الى بابي طرب يطرب ، وحقد يحقد ، نبع ينبع .

2 ـ ويذكر بعض اللغويون كابن الاثير والانباري وابن منظور في لسان العرب وغيره من اللغويين وكتبهم، كلمة نعم بانها نصت ينعم كما كذلك وردت في نعام .

اما النتيجة فواضحة بان هذه الكلمات هي افعال مضارعة اثرية بقيت في اللغة على سبيل التحفة الاثرية.

ورى بعض اللغويين كابن فارس والفيروزابادي وتاج العروس بأن العربية مرت بعهدين :

ا ـ العهد الصوتي : ويمتاز بقيام اللغة العربية على الحروف ، ومحافظتها على اسلوب القرآن الكريم بالفاظ متفاوتة حركة وصرفا . مع الترداف المعنوي ـ مثل شيمال وشمال ـ .

ب ـ العهد اللفظي : ومن اهم مبتكراته قيام العربية على الحركات وبتحررها ، ولكن تحررا موضعيا من الصوتية وبتركها قوانين تعد اللغة للتحرر على الاطلاق .

ونقدر ان نقول بان في هذا العهد بلغت اللغة الشوط النهائي من ترقي اللهجة .

ب ـ صوتية اللغة :

يجب ان يمتاز هذا القسم من الفصل الثاني تطور اللغة العربية بأمور هامة جدا وهي :

ـ على المتكلم ان ينطق كل حركة حرفا ، فهذا مما يدلنا انه كان هنالك كلمات في اللغات العربية ولدت بعهود صوتية كما في المثل المتقدم سابقا ، شيمال وشمال ، ومما لا شك فيه بانها وردت كذلك بعهود كانت**اكثر صوتية** ، حيث كانت مركبة من حروف ذات اصول **لمدلولات** بعينها .

ـ يفرض على المتكلم ان يبدا كلامه بحركة ساكنة، وان ينهي حديثه بتحرك ، نظنه الواو كما في الاشورية والبابلية فالابتداء بالساكن ، وهذا مما يدلنا على ان اللغة مرت في عهد اكثر سكون ونطقت فيه ساكنة الاول مثل : اجفيل ، واخريط ، اعشوشب ، وقد اضيفت الهمزة للتوصل الى النطق الساكن من مثل : امرؤ امراة ابن الخ ...

والانتهاء بمتحرك هو الضمة الممدودة او الواو ، ويدعو اليه احتفاظ عمرو بالواو في املائيته. ومن بديهي القول ان معرفة العرب للكتابة قديم جدا وان كان تطورها بطيئا ، وهكذا نرى بان عمرو ، كلمة زيدت عليها الواو التي لا فائدة منها ولا غناء ، اما القول بانها للتفريق بين عمرو وعمر فأمر هو اقرب الى التخريف منه الى التطور ، وانطلاقا من كلمة عمرو نرى :

ا ـ النصوص الحميرية : مثل اخت امهو اى اخت امه .

ب ـ ما في لسان بعض القبائل من تحريك ضمائر الجمع للغائب من مثل عليه اليهم وهو معروف في الكلام على قراءات القرآن الكريم .

ج ـ احتفظت العربية بالوقف بالروم في بعض المواقف ، والروم مختلسة تميل الى الضم .

د ـ لقد زادت العرب النون في فعل فعلو واصبحت فعلون ، لتمكين المنطق والتخلص من الصوتية .

هـ ـ بناء فعلين ، يرجع بأمره الى بناء فعل فعلون فهذا من افعال الاتباع وهو قانون شائع في اللغة

الدورة اللغوية الطويلة

ان الظن في هذا القسم هو انه من المؤكد انها محركة الاخر ولم تتحرر الكلمة من التقاء الساكنين ومعنى هذا ان اسبابا من البناء اللغوي القائم ، جعل اللغة تتهيأ للتحلل وان لم يكن على الوجه الاكمل، وعليه فقد بقيت الحركة تنطق حرفا في كثير من مواضع الكلمة اى لم تعد تنطق كذلك باطراد ، ومن ثم كان وجه للتحلل وان لم يكن على الوجه الاكمل وعليه فقد بقيت الحركة تنطق حرفا في كثير من مواضع الكلمة لم تعد تنطق كذلك باطراد ومن ثم كان وجه للتحليل .

وفي اعتقادنا وبحثنا ان اللغة دارت دورتها وكانت طويلة جدا ومثمرة كثيرا وخلعت فيه من حركة الاخر، ولكنها تخبطت في تجارب كثيرة حتى خرجت العربية نهائيا بتجربة الاعراب المدهشة .

ـ ولقد حاول الاستاذ ابراهيم مصطفى صاحب كتاب (احياء النحو) درس هذه الظاهرة على وجه تعليلي نشوئي ولو **درس العربية للنهج التطوري** الذي ناخذ اللغة للوصول الى حلول حقيقية وغير رايه في اشياء كثيرة .

ونخلص الى القول بان الفرد العربي كان همه ان يميت التطور الصوتي ولا يقصد الى التكثير والتزايد، ولكن وجدت هنالك أسباب عملت على حفظ تلك الاثريات في اللغة،مما ساعدنا على استنتاج ما نستنتج لتصحيح ما اخطأ به اللغويون ومن اقرار العربية في الوجهة التي قصد اليها العربي ، والتي تستطيع بها وحدها أن تكون لغة للمستقبل بين أشيائه الباقية .

الاسباب التي حفظت الاثريات

من الاسباب التي ساهمت في حفظ الاثريات في اللغة العربية هي :

1 ـ التشخيص العلمي : ومن ذلك يربوع ويسروع .

2 ـ القصد الكنائي : ومن ذلك ياجوج وماجوج .

3 ـ حداثة الارتقاء : ومن ذلك انظور وطومار

4 ـ الكتابة : وذلك لاحتفاظ الفرد في الاملاء بواو عمرو الزائدة مثلا .

1 ـ التشخيص العلمي : وقولنا هذا يعتمد على ان نتخذ اللفظ مفهوما شخصيا وان يحتفظ بمدلول معين ، فمن المعقول جدا الا يتأثر اللفظ بالتطورات التي تعرض لاصله الا نادرا بعد التشخيص العلمي لانه فارقه في المعنى . ومن الاثريات في هذا القسم من حفظ الاثريات من الافعال المضارعة .

1 ـ يسروع : اسم دويبه تكون في الرمل .

2 ـ يربوع : اسم دويبه اكبر من الفارة .

3 ـ يعسوب : اسم دويبه من النحل شبيهة بالجرادة .

4 ـ يقطين : نبات معروف .

ب ـ القصد الكنائي : القصد الكنائي يشابه التشخيص العلمي ، ولكن ذلك في المعاني ، فدلالة الكلمةاو التركيبليس الا المعنى المثلى فقطومنالاثريات المحفوظة في القصد الكنائي ياجوج وماجوج .

اما القصد بكلمة ياجوج ما يلزم عن معناهما الكنائي من التاجيج المتدافع ، والتأجيج في كل شيء.

اما لغويا فياجوج فعل مضارع من ثلاثي أجج .

اما ماجوج فهو اسم مفعول منه ، وهو التاجيج للمتدافع واظن انه كله يستعمل لعهد القرآن كمثل في هذا المعنى .

ومما ساعد على حفظ مثل هذه الكلمات ووردها في النصوص القرآنية. فبقي لها امكنة واسعة رحبة.

وكذلك ورد في الاحاديث النبوية الشريفة على ما اظن جوع يرقوع ، وفرس يعبوب ، وطريق ينكوب وارض يخضور ، واعتمدنا في تفسير حركات الافعال في ابوابها الستة فالابواب الستة المشهورة هي :

نصر ينصر ، ضرب يضرب ، فتح يفتح ، علم يعلم ، كرم يكرم ، ورث يرث .

ـ الكتابة : ومن اهم الاسباب التي حفظت ، وعملت على بقاء الاثريات في اللغة هي الكتابة اطلاقا ومن ذلك قولنا في اسم عمرو والواو الزائدة فلولا الكتابة لما وجدت الواو في آخر الاسم .

وان النتائج في هذا البحث تتجلى في تاريخ التفريغ اللغوي وضبط عين الثلاثي ، وانطباع العربية بطابع الاعراب لهذا البحث اهميته الكبرى وهو تاريخ التفريغ اللغوي لانه الاداة الوحيدة للتاريخ والتشعب المدبر .

ان التطور في اللهجة يؤكد البرهان على اهمية الثلاثي ، كما يؤكد كذلك بأن اللغة العربية انفصلت بعد تمخضات وبلوغات طويلة واستوت في اكمل ما تكون لغة بما لها من مميزات فانها في المميزات المبينة في الاعراب والبنية لادق لغة في ملابسات اللفظ للمعنى ملابسة حقيقية .

ومن ذلك ان المثنى شاهدا قاطعا لا يقبل التردد في غيرها ، فاننا حين نرى المذهب البياني في اللغات قاطبة يعبر عن الاثنين بسبيل الجمع ندهش كثيرا وعلى وجه غير محدود للدقة العربية ، التي تبالغ في اعتباره ونجد غيره شيئا كثارا يشهد بدقة العربية كلغة، ويشهد بمقدار التسامي اللغوي في طبيعة الفرد العربي .

التطور في اللغة

كان بامكاننا ان نلج هذا الفصل نظرا لاهميته في طليعة تعرضنا للبحث عن اللغة العربية ولكننا تركناه الى الفصل الثالث ، بعد تعرضنا لضربين أساسيينمن

ضروب دراستنا ، وما يتبعهما من تشعبات وافضان يسندان الاهمية التي اعترضتنا في الفصلين السابقين فمن ذلك ادوار اللغات ونشوء العربية ثم التطور في اللهجة وقد طبقنا كل شيء على العربية ، وقد عنينا باللهجة شكل اللغة المتطور من الصوتي الى اللفظي ، وهنا نصوغ الفكرة .

ا ـ نظرية التطور :

لقد مرت اللغة العربية كغيرها من اللغات في ثلاثة ادوار كما افصحنا سابقا ، دور المقطع ، والمقطعين ، والمقاطع وهذا يعني انها جابهت تطورا من الاحادي الذي كان مجموعة حروف الجدول الهجائي التي تمثل لغة الانسان الاول المعرض في القدم .

ومنها صارت الى الثنائي والثلاثي حيث استقرت فيه ونشطت في حلقات خمس ومن هذه النشاطات كان الرباعي والخماسي والسداسي .

فاللغة كانت كما اسلفنا بتطورها صوتية ، ثم لفظية لكنها في تطورها الصوتي احتفظت بعدة وجوه صوتية بسبب مغادرة العربي لجزيرته من جهة وبسبب الذين تناولوا اللغة ، وكان طابع مدرستهم الجمع فقط، ثم الوقوف في وجه كل اجتهاد يرمي الى تحرير اللغة من الاثريات القلقة في الافعال والموازين ، والجموع الا ان خلاصة قولنا ان اللغة العربية تطورت لغة ولهجة ، ولكنها توقفت قبل بلوغ ما كان يقصده العربي منها .

ب ـ اللغويون الاولون :

لدعوى التطور من قبل **اللغويين الاولين** صفة ذات اهمية ، ولرايهم الخاص بهم ، كذلك اهمية نعلق عليها املا كبيرا اذ ان الذين يبدون اراءهم بتطور اللغة ليسوا ممن نبذتهم الحياة ، بل من اولئك الذين عرفوا كيف يبدون رايهم وفي هذه الاراء زبدة دسمة نحن بحاجة ماسة اليها والى معرفتها والاطلاع عليها .

قال ابن اسحاق: وان الزيادة في اللغة العربية امتنع العرب منها بعد بعث الرسول العربي (ص) لاجل القرآن . وان معنى هذه العبارة صريح وواضح ، وهي ان العربية كانت خاضعة للتغيير المستمر ، فاللغة بين الزيادة والتنقيح على سنة غير متخلفة ، وهذا هو الغرض المقصود من التطور .

ولهذا الامتناع عن الزيادة وعزو ذلك الى القرآن الكريم ، انه نظم حواشي العربية ، واخضعها لقانون بياني ثابت وامات ما هو متراوح الغوص فيها، وانعشها بحيوية اخرى جديدة .

على ان ابن اسحاق لم يفهم السر الصحيح لهذا الانجرار وقد صرحت به غير مرة من المقدمة. وهو توزع العرب في الانحاء ، وتناول المدرسة اللغوية العربية على وجه خرج جدا من النطاق اللغوي .

فالقرآن هو الذي اعتمد لغة قريش في افصاح محتوياته ، والذي امات منها القسم الفوضوي وقد **رجع بعض اللغويين** الى اعتماد تجديد هذه الفوضى .

وخلاصة القول بان التطور عمل عمله في مادة اللغة كما عمل في صورتها ، وكان من ابرز ما قام به من اعمال منتجة في حروف الاعلال .

ـ من ابرز القوانين التي وقفت على تاريخ ماهية اللغة هي :

ا ـ ان لقانون منع الانتقال من الكسر الى الضم اقدم من تمام تحلل اللغة من الصوتية الى اللغوية .

ب ـ كان لابدال حرف اللين الهمزة تخلصا من الصوتية ، وليد ضرورة وهو متاخر عن قانون منع الانتقال .

ج ـ ان قانون الاتباع بالحركة متاخر جدا .

ان لكل قبيلة نطقا خاصا ولهجة خاصة بها،وكلمات تختلف عن كلمات الاخرى ، فمنهن من نطقت بـ نئدلان، وكذلك اخرى تقول زئبر ، فهذه الكلمات متخلفة تمام التخلف عن الارتقاء والتطور اللغوي واللهجي . اذن فالاستناد الى معرفة التطور من خلال قبيلة واحدة او من خلال قبائل خطا ، فيجب على من نصبوا انفسهم لهذه الدراسات **ان يجعلوا معلوماتهم صحيحة ويقارنوها** الى محيطات متطورة ومتحضرة وليس الى محيط خاص بجماعة معينة بل ان يعرفوا المحيط المتطور ثقافيا ، واجتماعيا ، ولغويا ويلجوا بابه لمعرفة مدى تطور لغته ، وان يقارنوا هذا التطور مع تطورات اخرى من جهات اخرى لمعرفة النسبة التي سوف تكون نتائج حاسمة بالنسبة لهذه الدراسات .

ج ـ تطور الافعال :

لقد سبق لنا ان بينا قاعدة الافعال في الاثريات المحفوظة من بقايا اللغة وبسطنا معقول العربي في

تسوية الاختلاف بين ابواب الماضي والمضارع ، ونحن نتناول الان الفكرة بشكل اوسع من خلال الكلمات واليك بعض النماذج :

1 – دراك ، هيهات ، وى واننا نقول بان دراك اسم فعل أمر بمعنى ادرك وهيهات اسم فعل ماضي بمعنى بعد ، ووى بمعنى اعجب بكذا

وان كلمة دراك وامثالها بقايا تمثل الفعل الامري قبل تهذيبه على الشكل الذي وصل الينا .

2 – يراع ، ينبوع وهذان يعبران عن صورة الافعال في العهد الصوتي .

– يراع : فعل ماضي متخلف ...

– ينبوع : فعل مضارع متخلف ... ايضا ، ولكنهما ليسا على خلاف مع الوضع الذي استقر عليه الفعلان مما يدل على ان ترتيب الافعال على وضع مهذب سبق تمام التحلل الصوتية ، ولكن ما زالت الخلافات بين الافعال الماضية والمضارعة ، وقلنا بان هذه الافعال هي افعال اثرية ، والواقع ان اختلافها كان له مفهوم في طبع العرب الاقدمين، لان شكلية الحروف كان لها تاثير في تمام له مفهوم في طبع العرب الاقدمين لان هذه الشكلية كان لها تاثير في المعنى واتمامه .

لقد ادركت اللغة العربية عهد الاصلاح والتهذيب، وحاولت التخلص من الاختلافات المذكورة التي لم تعد لها اى معنى في الوضع الاخير .

3 – وهل ويوهل : ومن معانيه الوهم والخطأ والضعف والخوف .

– واول وهلة : اول شيء والمثال يلي ما قدمنا ويظهر فيه عمل التطور بنقله الى باب : فعل ، يفعل

واعتبارها اصلية فيه ، وعلى قلة وشاذة في **باب فعل يفعل** ، وهذا المثال متخلف لوجهين :

1 – التصحيح مع موجب الاعلال .

ب – الدوران بين بابي طرب يطرب ، وحسب يحسب ، ويظهر من هذا ان العربي فكر بتوحيد الابواب قبل تمام عمل الاعلام ولذا نقدم المثال الاخير والارقى

4 – وثق يثق : ومصدر هذا الفعل هو الثقة ، والوثوق ، والموثق ، ومعناه الائتمان ، وهذا المثال ارقى من سابقه لانه جاء من باب موات مع الاعلال الذي هو تمام العمل الارتقائي ، كما تشهد عبارة الفيومي في كتابه المصباح ، وتصدق كل ما رايناه وجئنا به .

وخلاصة القول في هذا الموضوع اننا نستنتج مما تقدم :

– ان الصور التي عليها الفعل على اختلافه مهذبة سبقت بصور اميتت وآخرها ارتقاء الامر ، ثم استقر في انه يتبع المضارع .

– ان تهذيب الافعال سبق التحلل من الصوتية.

– ان توحيد ابواب الافعال متاخر عن التحلل من الصوتية .

– الاعلال متاخر في الطبع العربي .

تطور اسم الفاعل

وجدنا مما تقدم في بحثنا عن تطور اللهجة ان صيغ اسم الفاعل ، فاعل ، فعيل ، فعل ، تستوي كلها في اصل الدلالة ، وانها ارتقاءات عن فاعيل المات قصد ببعضها التنويع وبالبعض الاخر الاماتة .

ونرى بان الفرد العربي كان قصده طرد الفاعل في كل ثلاثي **مجرد بدون نظر** الى الابواب ، واذن لا حاجة لاختلاف اللغويين في ابحاثهم حول صيغة (ايها القياسي) وحول ابحاثهم في اسم الفاعل من الثلاثي المجرد .

فصيغ اسم الفاعل تطورات تفيد افادة واحدة ، وقد قصد العربي ان يعرض بها على كل المواد اللغوية، فحال بينه وبين قصده ما ذكرناه من مغادرة الجزيرة، وعمل اللغويين المحافظ ، فاكتفى بما وصل اليه وامر الاكتفاء معروف عند اللغويين الاولين فقد قالوا في المصدر من الفعل ان العرب استغنوا في بعضه باسماء وقعت موقع المصادر كما في وصاة مكان توصية وزكاة فاضاف تزكية وصلاة مكان تصلية .

تطور الاعلال :

الاعلال وسيلة لبقة وسامية، والاعلال يفيد المعنى الطبيعي ، كما في طال : فانه يفيد الطول بنمو طبيعي، واما التصحيح مع موجب الاعلال فيفيد المعنى بتكلف او باضطراب ، كما في طول فانه يفيد التكلف في الطول.

الارتقاء في تطور الاعلال فيعود الى الامثال :

1 ــ هوية وتعني صوت الذئب ، وتعتبر اقدم الامثلـــة .

2 ــ الاتمام : منها ما هو مكسور ومنها ما هو مضموم ، فالاتمام ليس حركة كانت في اللسان العربي كما توهم اللغوي عبد القاهر الجرجاني ، في كتـــاب الايضاح ، ويظهر ان الاتمام اعلال بين ايدي التطور ، فمثلا نطقت اول مرة شوق .

ــ ثم اعلت باتباع الواو للحركة فقيل : شيـــق وفي ذلك اتمام فالاتمام يعني نطق الضمة قبل الياء مع خفة المتكلم .

ــ وخلاصة قولنا في تطور الاعلال هو : ان العمل كان على التصحيح اقدم عهود اللغة .

ــ ان قانون الاتباع هو قانون الاعلال الصحيح.

ــ ان الاتمام الى الضم اعلال اولي وليس بحركة زائدة اميتت .

ــ ان الاتباع يعمل في الاعلال على التناسب ولو لادنى ملابسة .

والخلاصة ان التطور اللغوي يرجع الى شعبتين اساسيتين : يتفرع عنهما كل شيء يتعلق بالعربية مادة وصورة ، وهاتان الشعبتان هما :

1 ــ اثر التطور في الاسلوب البياني .

2 ــ اثر التطور في الشعر .

1 ــ فالتطور الاول وهو الاسلوب والبيان ــ فهو معين تاريخ النشوء اللغوي وتطور اللهجة : فالدراسة العميقة في البيان والاسلوب البياني قادنا الى :

أ ــ كان الجدول الهجائي بحركاته لغة للانسان القديـــم .

ب ــ نشات العربية نشوا تطوريا عن الجدول ، فالاحادي اصل الثنائي وهذا اصل الثلاثي .

ج ــ تطورت العربية اللفظية عن اصلها الصوتي على ادوار متعاقبة .

وعلى هذه النتيجة ومراقبتها نتائج النظريـــة : فالبيان ، يساعدنا على مراقبة مقدار المسافات التـــي عملها التطور في اللغة على مختلف الانمـــاء ســـواء في الاشتقاق ، والاعراب والموازين والاعـــلال والافعـــال والمصادر وتطلعنا على تلك المســافات التي بقيـــت واضحة في منطق القبائل المختلفة ، ومنطق القبيلـــة الواحدة وبالتالي نقف موقفا مخالفا من علماء البيـــان فهم يبتدعون لها وجوها من التعليل، كاختلاف القبيلة، تداخل اللغات ، والضرائر والشـــذوذ والغلط ، وغير ذلك من حيل المتحيل .

ان التطور الذي قلنا عنه في المفردات يصـــدق عمله في الاسلوب والبيـــان على شتـــى اوضاعهمـــا ، فكتاب (المجاز) لمعمر بن المثنى المعروف بابي عبيدة يعالج التطورات المختلفة في هذه الناحية التي سماها مجازات اي اساليب ، والحق انها ابعد ما تكون عـــن معنى التسمية ، وما هي عند البحث الا تطورات وبقايا من مجازات انقرضت .

2 ــ اثر التطور في النظم والشعر :

حتى تطور الاوزان الشعرية لم تفلت من الانصقال والتشذيب، ولكي يتسني للباحث ان يربط بين بحور الشعر العربي القديم ، فهنالك ابحر اميتت ، ان الشعر انتهى الى نتيجة خطيرة وهي ان البيان العربي ابتداء نظميا وتطور كذلك اخذ نحو التحلل ، وكان من آخـــر البحور المرتقية ، الخفيف وما اليه ، والرجز المرصع الذي منه تحللت الاسجاع وبدل على التحام الترصيع الشعري والسجع عند الشعراء وعليه فيكون السجع بين الشعر والنثر .

فمن هنا انبثقت القصيدة النثرية ، وهي التي تاخذ طريقا نحو الارتقاء في عالم القصائد .

اثر القرآن الكريم في التطور :

ان القرآن تناول العربية ولما تستقر ، بحيث كان سببا قويا في تهيئة الاستقرار على اكمل وجوهه :

ويوجد في النص القرآني شتـــى التطـــورات النثرية ، حتى يكاد يحتبك النثرية ، حتى يكاد يحتبك النثر بالنظم في بعض السور « انا اعطيناك الكوثر » ، وهذا يعني بان القرآن يجمع بين مختلف السور البيانية ويأتي بها على نحو معجز جدا ثم يسوق اسلوبا جديدا لا ينتسب الى بيان العربية بحال ، وربما كان في اجتماع هذه السور الشتـــى من الاساليب في القـــرآن على مسحة متسامية ، سر اعجاز القرآن الصحيح.

وان الروح القرآنية والاسلوب القرآني، فقولنا في ذلك ان روح البيان فيه مختلفة واجدر بنا ان ندرس

بيان القرآن لانه الوثيقة السامية فى البيان والاسلوب العربي حتى نطبع به على الدوام فاشد الكتاب تطرفا عنه اشدهم تعلقا به على الحقيقة ، لان البيان غذى القرآن والغاية، ان القرآن امات الفوضى فى اللغة واجبرها للانصياع لقانون بياني ثابت ، ودل فيما دل على تطورها ، كما اوضحنا فى الفصول الاولى لنظرية التطور اللغوي :

ونستخلص من استعراض التطور فى اللغة وجوه التخلف اللغوي الذي رافقنا خلال دراستنا .

فالعربية لم تزل على فوضى من الافعال والمصادر والجموع والموازين ، ولن تستقر على ما كان ما يريده العربي من لغته ، ولن تطمئن بين اشياء المستقبل الباقية .

الا بازالة ما بقي متشبثا بها من علائق الفوضى بسبب ظروف العربي ومغادرته لجزيرته .

وبسبب اللغويين وتشددهم فى السماع وفى ما يكتم العربية ، ويمنعها من الانفتاح على الحياة اللغوية العصرية والمستقبلة .

التنقيح فى اللغة العربية

فى الفصول السابقة التي اوضحنا فيها تطور اللغات ونشوء العربية فى المقدمة ، رأينا عمل التطور فى الغربية خلال هذه الفصول ، ان العربية تجاوزت حدا بعيدا دون ان تنتهي ، ولكنها مع ذلك اخذت بالاستقرار شيئا فشيئا واستمدت فى سيرها ما تدعو اليه الحاجة من موازين دخلتها الزيادة الصرفية كافتعل وما اليه ، ولقد يكون الاخذ الجديد الذي تدل عليه العربية ، من اقرار الموازين بدلالات ثابتة، واقرار الافعال على باب واحد ، وكذلك المصادر والجموع وهذا يعني الوصول بالعربية الى المستوى الذي كادت تبلغه لو بقيت فى محيطها بدون براح .

ولكن الامر الذي يضع اللغة فى مواضيع قلقة وبصورة تكاد تجعل منها لغتين :

1 ـ لغة القرآن الكريم :

ب ـ اللغة التي تبتدأ بالقرن العشرين .

وقد تتفاوت كلتا اللغتين تفاوتا يكون لا اقل فى اساليبه ومفرداته من اللاتينية والفرنسية هذا هو موقف اللغويين التقليدي وهذا هو رأيهم فى امر اللغة العربية ، وهذا الامر المتناقض ، وتهجمهم على اللغة العربية تهجما يجيزه هذا الدرع الذي يأخذون الناس به ، واعني به جمع لغات الجزيرة ، وبكلمة ادق تعبيرا لهجات الجزيرة ، والمداخلة بينها ، مداخلة مطلقة ، بغير تمييز ولا تنبيه ، بالاستنتاج منها مجتمعة قواعد اللغة فى حين انهم شهدوا بالاختلاف فيما بينها بصورة مؤكدة ، وهذا الموقف التقليدي لم يلج بابه المحدثون .

ـ ولا نكون على مقربة اذا قلنا بان موقف اللغويين المتفاوت باسباب اهمها ، عدم تفاهم لغويي البصرة والكوفة واتخاذ الخلاف بينهم صبغة تعصبية صرفا .

فلقد تشددوا بمنطق الاستماع وعدم الحفظ اخذا على مذاهب الخصوم ، ان هذا الافراق الشديد فيه هو من جراء التعصب القائم والتحامل البالغ ... وهذا ماخذ شعروا به ، ولكنهم **دعوه تنقيحا** .

وينتظم التنقيح للغة العربية باربعة ادوار :

1 ـ كان بما قدمته قبيلة يعرب بن قحطان .

2 ـ كان بفضل اسماعيل لما اصهر الى جرهم .

3 ـ بمعونة قريش بالتدريج انتخابا من لغات قبائل العرب التي كانت تفد عليهم فى كل عام .

4 ـ كان بعمل علماء المصرين ، الكوفة،البصرة، اذ قصروا اختيارهم على لغة قريش وست قبائل من صميم العرب ، لم تحتك بغيرها ...

ـ التنقيح الجديد :

ان الظروف التي رافقت العربي **بعد هجرته** من جزيرته ، وبعد مواقف اللغويين الذين خرجوا عما كان يقصد من لغته، فى هذين السببين يكمن مرض العربية الذي قصر بها مطالب العصر ، ناهيك من مطالب المستقبل ولا شفاء لها الا بمعاودة الدرس مرة ثانية وتنقيحها تنقيحا جديدا لا يخرج عليها بالاساس ولا يقصر بها من مطالب العصر ، وتطور المستقبل . ولا باس بتسمية ما نحاوله تنقيحا كان يكشف وحده حقيقة الماضي وينير طريق المستقبل ومن ثمة اصبح ضروريا ان نقول ما هي الاهداف الاساسية التي تلخص التنقيح الجديد .

اهـــداف التنقيـــح الجديـــد :

ان من اهداف التنقيح الجديد ان :

1 ــ نحذف السماع من اللغة العربية الا بالمعنى الذي سنقرره فيما يلي : وهذا يعيننا ان نخلص العربية من عوائق الفوضى في افعالها ونقرها على باب واحد هو باب ضرب يضرب ؛ وفاقا لما اوضحناه فيما قبل.

كذلك يجب ان ناخذ بعين الاعتبار بان التنقيح يجب ان يجارى معقول العربي في لغته ، ان في قواعد الاعلال او في كل ما يتفرع عن بحث الافعال : ثلاثية وغير ثلاثية من اشتقاق وغيره ...

2 ــ يجب ان يسمح بصوغ موازين الثلاثي كان، وكذلك الرباعي وموازينه ، لان التزايد المستمر في اللغات السامية يخضع لقانون الاشتقاق اى الموازين او قل التحرك من الداخل، لان العربية غنية في موازينها التي تبلغ الثلاثمائة للثلاثي الواحد ، كما اعطانا اياها سيبويه في كتابه النحو الضخم .

3 ــ تخصيص هذه الموازين مفردة او مجموعة بدلالات قارة ثابتة لا تختلف على اختلاف المواد، ففعال يخص بما يدل على الزائدة الاجنبية auto وفعالية يخص بما يلاقي في الاجنبية ism وبذلك تسهل مهمة الوضع الجديد ويكون اكثر علمية ، كما راينا في وجوه التخلف .

4 ــ توحيد المعاني في المادة الواحدة ... ونعني بذلك جعل كل معاني المشتقات من مادة ما معاني لها سواء اكانت مجردة ام مزيدة ، مما يصـــح معـــه اشتقاق المجرد من المزيد وبهذا تزيد الوحدات المادية للمادة الواحدة .

5 ــ الاستفادة من قاعدة الدوائر او القاعـدة الدائرية ، بوضع مواد جديدة لم يسبق للعرب انهم وضعوها او وضعوها واميتت ...

6 ــ الاستفادة من سنة الرباعي وما اليه بزيادة الحرف على الاخر بعد تحرير معاني الحروف الهجائية

7 ــ المعاقبة او الابدال .

ان الهدف الخامس والسادس والسابع هي ذات اهمية خطيرة في نتائجها .

ومن مجموع هذه الاهداف التي جاء بها تنقيحنا الجديد للغة العربية : وضع المعجم العربي بطريقـــة تلبي بمتطلبات وحاجات العصر وتمد المستقبل بمـــا يحتاج اليه ، وعلى تفصيل هذه الحاجة المزدوجـة ، وايضاح الشكليات اللغوية من خط واملاء ، وبيـــان ومعان ، وعروض ، وبديع وصرف،ونحو وسجع وغير ذلك من التابعيات ، كالاعجاز والتضمين ، والفك ، في حمل الادغام للدلالة والتصحيح في موجبه الاعـــلال لغرض ما .

مستقبل اللغة العربية

1 ــ داء العربية ودواؤها :

ان الفن كله قضية تعبير . والانسان الخالد كله قضية تعبير .

وقد قيل ان العربيـــة لا تتنـــاول من شؤون الحياة ما نحسه ونشعر به ، وتفتقدون البيان عنه بأى الفاظ من اية لغة فهي جديرة بان لا تكون الا في متحف يكتفي الناس منها بالنظر اليها . وانني غير مطمئن الى ان الجماعة تقرر فكرتها على هذا النحو ، ولكنها تعني معنى آخر هو ما سبق لنا ان ما تكهناه وهو ان الجدير بكلمة العربية هي : مجموعة الكلمات التي تضمنهـــا المعاجم بالنقل عن لسان العرب قبل ان عراه ما عراه، وهذا الوضع الحرج الذي وضعوا فيه العربية ، الحق بها فيما ارى نتائج كاسواء ما تكون نتائج ومن اهمها :

1 ــ قصور العربية عن تناول مقتضيات الفكر، ولا ادل على هذا من عرض مجموعة كلمات الاصطلاح في اللغة العربية (المادة والجهة والموجهة) وقد ذكر في تعريفها ان كيفية النسبة في القضايا (مادة) واللفظ الدال عليها (جهة) والقضية الواقع فيها هذا اللفظ (موجهة) .

2 ــ جمود اللفظ في معناه فلا تجد فيه شيئا من المرونة والبساطة كما يجب ان يكون ، بل تشعر بانه ينكمش في طبيعته حتى يعود اشبه شيء بالحصاة مهما تقاذفتها السيول تبقى كما هي حصاة غير متحولـــة شكلا ولا اعتبارا ، ومن هنا اتهم بعض مستشرقـــة الافرنج ، اللفظ العربي بانه (كليشة) لا اكثر وسمي العربية (لغة الاكليشات) .

ــ نشوء العامية : وقد يرى عجيبا ان يعد تشدد اللغويين للغة هذا التشدد جر الى نشوء العامية ، او كان الاثر الفعال اليها ، ولكني على ما يرى من عجيب اؤكده بصورة لا تقبل الريب وذلك لان الوقفة المتزمتة

بهذا الشكل الذي لا يكفل حاجة الناس ولا يعبر عن اغراضهم اليومية وهي لا تنفصل منهم بحال أو لا يتأتى لهم ان ينفصلوا باى وجه ، جعل العامة يهجرون تباعا هذه اللغة التي للخاصة رغم انها لغة التشريع والابتهالات ورغم أن العامة لا تهجر عادة اللغة التي يتميز بها الخاصة الا لاسباب ماسة لها حدتها ولها عنفها .

فالانصراف الذي نلمسه في العامية قد كان اذن لاسباب لا يحقر ابدا شأنها .

وكيف تحقر وقد سببت انصرافا عاما ، ولقد أوخذ بأن هذه النتائج التي لرتبها اذا سلم بأن العامية نجمت عن الانصراف المذكور ، ولم تكن لاسباب اكثر وضوحا مثل الدخيل والامتزاج .

الا ان الاعراب ليس وحده فارقة اللغة وميزتها وربما كان أقرب الى الظاهرة بمعناها الصحيح ، والمفردات المتميزة المنتقاة ، التي تشمل عليها لغة الخطاب .

ـ ان الفوارق في اللغة قد حملت الواضع على اختصاصها الا اذ ان الفوارق هذه تلبدت على مد التطور وغابت عن متناول الرواة ، وقد يقوى هذا الظن ان تكون آخذة شكلا تقنيا ، اذا ما تفحصنا هذه الكلمة تراها رجعت الى تقن العربية التي جاءت بمعنى الطبيعة والمواقف من كل الجهات ، على منحى موزون خذ مثلا ، (فعفعيل) الذي يظهر ان اصله (فيعل) (وفعليت) الذي يرجع الى (فعل) و (فعلين) كذلك وهكذا مما سنأتي على ابداء الراي به جميعه ، باعتماد المقارنة التشاكلية ، وان كنت اقطع باني مع هذا لا امثل تمام معقول العربي فيها ولكني اطمئن اليها على اي الاحوال .

الا أن الملاحظة التي لازمتنا في دراسة الموازين ، ان العربية كانت تصدر عن لواحق تزاد على الوزن اذا كان المراد الافادة عن معنى اللاحقة زيادة على معناه ، بدليل السوابق وما لها من المعنى المعتبر في العربية كسابقة (است) في استفعل التي تفيد الطلب او الصيرورة او العد . واظن بأن هذا يقطع عرق النزاع كما يقولون من انه كان في العربية سوابق ولواحق لم تتوضح تماما عند قدامى اللغويين .

واننا لا نريد ان نغوص في اشياء نحن بغنى عنها لاسباب وجاهية .

1 ـ انها خطوة واسعة تشبه الطفرة التي لا تخلو من البعثرة والفوضى ، وليس ذلك من عدم صدق النظر وانما من عدم سلامة التطبيق من وجه ، ولندرة الامثال المحفوظة على هذه موازين العربية التي تحتفظ باللواحق من وجه آخر .

2 ـ حرمة موازين العربية التي هي شخصية اللغة ، ان ينضاف اليها ما لم يكن منها ومعنى هذا بعيدا عن الميزان ثم اضافتها على الوزن لتحصيل المعنى المطلوب يؤدي الى تزايد كبير في الموازين الجديدة على اشكال لم تعرفها العربية العريقة ، وان كانت ظواهر الدرس تقتضي بأن العربي كان يعتمد لواحق بعينها لدلالات بعينها ، ومن يشك في هذا اذا تناولنا بعيدين عن تشبيه الدهشة من استنفار عابث مثل فعلوت ، وفعللوت ، وتفعلوت ، وفعلان ، فعلم وفعلين ، وفعلن ، وفعليت .

وانما خصصت هذه الموازين بالذكر الخاص لانه يظهر فيها صورة قاطعة للتردد في أن العربية كانت خاضعة لما يدعونه باللواحق في مذهب زيادتها ، ولكن تشذبت هذه اللواحق حتى عادت وهي جزء من الوزن لا تنفصل عنه وكان هذا بفعل الصقل اللغوي المستمر .

ان هذه الموازين هي اصطناع للعربية بخلاف ما اذا كان التفريع على مقتضى ما حفظ من الموازين فقط فانه يكون في غايته اشتقاقا متوسعا . وقد تدرك فرقا واضحا بينهما وان كنت أعود فأقرر بأن ظواهر الدرس الذى اخذت باسبابه على الموازين يعطي هذا وانه مذهب العرب ، ودليله ان لاحق (وت) لم تختص بوزن ما ، له طابع يميزه كما رايت في مفعلوت ، وتفعاوت ، ولكنه كان مع ذلك خاضعا لشروط من اهمها :

1 ـ ان لا تزيد الكلمة باللاحقة على اكثر العدد الذي تكون منه كلمة في العربية . ان لاتجتمع فيها لاحقتان (كفعلان) مثلا فلا يجيء منه (فعلاتين) (وكفعفعيل) لا يجيء منه فعفعلين) وهكذا من مثل هذه الانماط .

من الظاهر بأن اللاحقة تعتبر في اكثر من حرف ، فكل ما كانت الزيادة فيه حرفا فقط كان وزنا اصليا يمكن أن تسيره اللاحقة . وتنضاف عليه ونحن رغم انا نظن بانه مذهب العرب على صورة مؤكدة فالاخذ به فقط على شكلية المحافظة للعربية لا يقدر ان

يعطينا الموازين المحفوظة مغنية عن احياء اللواحق والاشتقاق فيها .

اما اذا ما تاملنا في لائحة الافعال فنرى .

فعل : انه يختص بالدلالة على الاتصاف بوحدة المادة تقول (رتج) للشيء فيه الغلق .

فعلل : وهو يختص بالدلالة على ما تعددت فيه الوحدات من الوصف تقول (زبدد) للمتعدد الزبد .

فعلاء : وخصوصية الدلالة على المكان الذي يوجد فيه الشيء وعلى معنى التميز وعلى تعدد الشيء في غير انفصال ، تقول حرجاء لمكان الغابات الكثيرة وصنعاء للمكان الذي تكثر فيه المصانع .

فعلان : وهو يختص بالدلالة على تكامل الوصف في الشيء تكاملا من كل الجهات تقول (رونان) اى صوت متكامل وآلة ذات روناق .

فعلت : وهذا الفعل يختص على سرعة التاثر او الانفعال وعلى سرعة الاحتراق تقول (عصبت) لتاثر الاعصاب السريع .

فعلن : ويقال هذا النفوذ الوصف الى غاية الباطن ومن ثم يوضع منه لظواهر الباطن ، تقول (نفسن) للرجل المختص بالاعمال النفسية كالمنوم المغنطيسي .

وهنالك ضروب شتى من انواع الفعل يتعذر علينا ان نوردها هنا .

وهنالك الزيادة بالتاء ، مثل :

تفعال : وهو يتم على تجسيم المعنى ، مثل تمثال اي صورة شاخصة تقول (تظلال) للظل يتجسم فيصير صورة .

وتفعل : وهذا يدل على المنفعل من الوصف باسباب مشتركة من نفسه ومن الغير تقول (تنور) للحشرة التي تضيء في الليل .

ـــ وكذلك الزيادة بالميم :

مفاعل : وتدل على المتصف بالمفاعلة بين منفصلين تقول (مداور) للذي يدير شيئا آخر في حركة دورانه كما في الدواليب المتعاشقة .

مفعلاء : وهي تدل على الذي يوجد في المكان ويميز عنه حين نقول (معفناء) للذى يوجد في مكان العفن النتن ولا يكاد يتميز عنه مما يصلح ان يسمى به مكروب العفونة .

مفعل : وهو يدل على الآلة ، وكذلك مفعال وفعلة .

مفعلان : وهو يدل على اسباب الوصف فنقول للمكان الذي نستظل به الجلوس فيه في ضوء القمر مقمران .

وكذلك مشمسان لحمام الشمس ، ويدل ايضا على مضامفة خصوصية (مفعل) فنقول (منظران) للمجهر المضاعف ...

وهنالك زيادة اخرى الا وهي زيادة النون .

فنعال : فناعل : فعنلى ، فنعلاء ، فعنلال ، فعنلوه ، فعنعل ، فعنلة ، فنعل .

الزيادة بالواو .

هفعولة : وتدل على اشاعة الوصف بحيث ينتسب الى كل جزء على انفراد اذ نقول (هرمول) للارض التي تشيع الرمال ، في كل مكان من انحائها ، ونقول كذلك هركولة ، ولقد اتى في هذا المعنى عند الشاعر الجاهلي الاعشي ، بقوله :

هركولة فنق درم مرافقها
تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل

وهذا في وصف امراة في احد ابياته الشهيرة في وصف النساء ، فهنا اتت كلمة هر كولة في المعنى المناسب .

فهركولة اذن هي المراة السمينة ذات الارداف

ـ وهنالك الزيادة لبعض الافعال من مثل :

فعوال ، فوعال ، فوعل ، فوعلاء ، فعول ، فوعلل .

الاوزان الكيماوية

فعليل ، وهو يعني في علم الكيمياء الاوكسيجين، الذي يعرف في اللغة الغربية بكلمة اكسيد . قبل

الاسم الممتزج ، ولكن للدلالة عليه يضاف اليه التـاء المتحركة ويصير الوزن فعليلة .

فعليت : وتعني في علم الكيمياء الهيدروجيـن وقد يحوي خواص الاسيد الحقيقـي ويميز باسـم ادراسيد ويسمونها في الاجنبية بزيادة اسيد ، على الاسم المتحد مثل (اسيد كلوريدريك)

الاوزان العدديـة :

فعل وهو مخصوص للدلالة على الآحادي نقول عقد لما فيه عقدة واحدة الى عشرة .

فعلان : وهو يدل على المثوى نقول (عقدان) لما فيه المائة الى الالف عقدة .

مفعل : خصوصيته الدلالة على الربـع نقـول (مشهر) أي ربع شهر يقال (مجلة مشهرية) للمجلة الاسبوعية ولكنها لا تستعمل لانها صعبة اللفظ .

وهكذا نكون قد انتهينا من اعداد بعض الافعـال والاوزان ، التي كانت داء في العربية وعرضنا كذلـك الدواء لذلك وهو الذي يعالج الامراض التي رافقـت اللغة العربية طوال عهدها .

اللغة العربية غاية لا وسيلة :

ان ما نبوح به في هذا القسـم من الفصـل الخامس هو ان اللغة العربية الفاظ يعبر بها كل قـوم عن اغراضهم ، وهما يحتاجون اليه ، فاذن هي غاية كي يجعلها دون الغرض تتناوله للكشف عنه ، ومشاركته عندما نتجه بنظرنا الى اللغة في دورها النشوئي، واما هي بعده فمجموعة من الافكار ، والتقاليد، والعواطف، والاحاسيس ، والنزوات وشتى المشاعر والاعتبارات تنتظمها الالفاظ انتظاما اصبح منها كما يكون الشيء من الطبيعة .

اذن اصبح للالفاظ وجود معنوي على مقدارها لا تزال دونه في الاعتبارات كما لا يقع دونها كذلك .

والزيادة التي يتأتى لنا ان نصفها بالطفيليـة لا يسهل تعليلها اذا كانت اللغة وسيلـة ، فقط تكيفهـا المعاني المتجددة على مقاديرها ، وانما تكون اقـرب قصدا من التعليل حينما نجعل للالفـاظ وجودهـا كالشاخص او الشاهد قيمة معنوية ، وبعبارة اخـرى كيانا معنويا ، تقصه افكارنا ، وقصته هذه تتوسل به الى الكشف عنها بالقياس على كون الالفاظ ، وهـذا رأي لا ننفرد به قيل من قبل ، والعربية هي غاية دون الابعاد والامتدادات ، وان كان بالنظر الى ما يفيدنـا منها تكون غاية بملحظ من الوسيلة ، واكثر الغايـات يكون لها هذا النصاب من الملحظ فهي غايات غيـر استقلالية يفرض فيها التعاون مما يتأتى لنا تسميتها بالغاية المطاوعة ، والمقصود من هذا التنحي في اسلوب الشرح بيان انه دلالة الالفاظ على المعاني المتجـددة لا المستقرة دلالة مقايسة فاذا اردنا ان نؤدي صورة ما فانما نؤديها بضرب من المقايسة **المحضة** بين ما هو حاصل في خيالنا وبين معاني الالفاظ المستقرة .

فكان لالفاظ اللغة اية لغة ، التي تستخدم للتعبير عن مختلف الصور زوائد أحيانا تفرغ على الصورة ما يزيد في معناها بحيث لا يظن انها كانت كذلـك على كمالها في خيال الاديب او العالم .

وهذا غير المجال التعبيري الذي يتأثر كل من يتذوق البيان لان ما نعني به نقص وزيادة على الصورة لا اشراق الديباجة ورونقة الالفاظ ورصاعة التعبير .

وهذا موضوع على ما فيه من جلاء غموضـا ، ولذا عبر وهو محل للاخذ والرد بين ادباء الجيل . ان في الادب لا بل في محيط البيان العربي عموما ، وجد يربي وحرى بكل عربي ، ان ينطـوي على حفيظـة مغرضة من هذا النوع واسميها ، مغرضة لاني ابتغيها غير قابلة للتفهم ابدا ولا تسمح بأيـة مناقشـة دون رعاية اساسها .

ولهذا نقصد ان نهدم بتحقيق اللغة غاية كما يكون الحساب ، والهندسة ، وما اليهما من انواع الرياضيات والعلوم ، وقرر مالم يكن في معرفة الكثيرين الديـن يفزعون اذا ما قالوا العربية قالوها عن عبث .

وان دلالة مفردات اللغة على المعانـي المتجددة دلالة مقايسة وموازنه ، والا لو دلت بالنفس لكان لها وجوادت متعددة بتعدد الاشخاص اللافين .

لنقول شيئا عن بيان ابيات الشعر لندل فيهـا على ما يجدر بالناقد البصير ان يميزه ، أعني به تحقيق الفرق بين اشراق اللفظ وبين زائدة اللفظ وينبنـي عليه في درس الادب والاديب كثير من التصحيح فقد قال قيس بن الملوح في ليلى :

بعيشك هل ضممت اليك ليلى
قبيل الصبح او قبلـت فاهـا

وهل رفت عليك فـــروع ليلـــى
رفيف الاقحوانة فى مداهـــــا

ويكاد يكون هذا الجزء عاما على لسان الشعراء العرب جميعا .

وهو لا يزيد فى اعتبارهم على (بريك) أو لعمرك وما يتبعهما وهذا ما يدلنا على أن قيس كان يقول هذه العبارات ليس اكثر من الحنف والتأكيد . وهـذا مـا يسمى مزاحمة تعبيرا فى محل تعبير .

كل هذا من زائدة الالفاظ وذلك حين نرى بأن المجنون يرى العبث فى ظل التي يهوى ويحب سعادة دونها السعادات الاخرى . وهو من نشدانها بقي يبكيها ابدا فى انشودة الحزن المرة . بهـذا النظـر الطالـع للقسم حين يستفهمه عن شكل من الاشكال تلك السعادة ولون ترى من الوانها مرسوما بضمة السحر وقبلة فى عين الصبـــاح .

ومهما يكن من امر فان غاية كل لغوي خدمـــة العربية وانماؤها والخروج بها من قوقعتها الضيقـة فاذا لم تكن للفرد غاية تامة صحيحة فلن يكون للجماعة فكر تام صحيح ، وفرض انسان بدون لغة معناه فرض انسان بدون فكر .

وبهذا نقدر ان نجدد القول بأن اللغة العربية هي لغة غاية لا لغة وسيلة .

والخلاصة ان قصة العربية هي قصة الحرية ، وان الفكر العربي مغلول بعبوديات كثيرة اهمها عبودية العادة والتاريخ ويتجلى هذا الامر فى الجانب اللغوي منهـــا .

فاللغة هي بيت الكائن الحي ومرآة فكره ، بل قد تكون اللغة هي وحدها الوسيلة للابداع والخلق ومرادف الانسان ، فالانسان لغة لا انسان بلا لغة ، واللغة غاية لا وسيلة ، منذ كان الانسان غاية سخر له كل شيء .

من هنا كان الاهتمام بالعربية اهتماما بالانسـان العربي ، ليست كما يزعمون اصعب اللغات ان لم تكن اسهلها وامرنها واينها ، هي اصلـح مـن اترابها مـن اللغات للحياة والتطور والنمو والترقي .

كل ذلك اثبت الفوضى فى تاريخنا واستجـلاء بداية العربية ثم مسايرتها فى ادوار رقيها وحلقـات تطورها حتى خروج اصحابها من جزيرتهم وتوقفهـا المفاجيء قبل اتمام دورتها التطوريـة ، مما حملهـا بعض الغلائق المتخلفة فى الافعال والمصادر والجموع، والاوزان ومما زاد فى عمر هذه المتخلفـات تزمـت اللغويين القدامى، ومتابعة المحدثين لهم .

هذا داء العربية تنفثه جهـات خارجيـة عن طبيعتهـا .

اما دواؤها فتخليصا من التزوير عليها ، الا زورا عما تريد هي وعما كان يريد اصحابها منها .

هذا الدواء الشافي لقد افصحنا عنه وهو حذف السماع من اللغة وتحكيم القياس فمغنى العربية انما يجيبها من غنى قواعدها وانتظامها لا من اي شيء آخر وفى تحديد معاني الموازين وصوغها من اى ثلاثي كان وكذلك موازين الرباعي وفي توحيد معاني المشتقـات جميعا للمادة ومن التنسيق لشكلياتها المختلفـة ، الخارجية كالخط والاملاء ، والداخلية كالبيان والمعاني والعروض والصرف والنحو .

فى الفصل الاول كان نشوء اللغة والتطـور فى اللهجة واللغة . وادراك المعقـول العربـي من خـلال ادوارها النشوئية ويرجع هذا التاخيـر فى اللغـة لسببيـن :

خروج العربي من جزيرته .

وتزمت اللغويين القدامى وتمسكهم بالسمـاع ، ومتابعة اللغويين المحدثين لهم رغم ضرورات العصـر الجديدة ...

ولقد كانت اهداف التنقيح الجديد الذي اوردناه فى احدى الفصول بالسير بالعربية بعـد توقفهـا ، ولدفعها نحو المستقبل اللامحدود لتكون خالـدة بين اشيائه الباقية .

وفى سبيل ذلك المستقبل المنشود للغتنا العزيزة وشعبها العظيم تنادي اخوة لنا فى المغرب الى اخراج مثل هذه الدراسات والابحاث .

وفى هذا السبيل اغتنم الفرصة لابـداء بعض الملاحظـات .

1 ـ ضرورة اعتماد الفكرة التطورية لانها وحدها الفكرة الجدية والحقيقية التي بها تزال مشكلات حياتنا اللغويـة .

2 ـ الانطلاق بثورة صحيحة فى اللغة العربية وكتابة قواعدها واساليب تدريسها وتفجير المزيـد من طاقاتها اللغوية .

3 ـ نتمنى ونحلم ، وهاتان قدرتان معجزتان ، فاذا ترجمنا عملا نحقق كل تطور وابداع .

ونتمنى على حكومات ومجامع الدول العربية ان تسير بالعربية وتمد يد المساعدة الى اللغويين ونحلم بـذلـك .

تعريب العلم

بترجمة الإنتاج الفكري والتقني الإنساني

أصدرت الامانة العامة لجامعة الدول العربية مذكرة اكدت فيها ان مجلس الجامعة قد اتخذ فى دور انعقاده العادي الثالث والخمسين (مارس 1970) بشان تعريب العلم فى الدول العربية القرار التالي :

ايمانا من اللجنة بقيمة الترجمة العلمية باعتبارها حجر الاساس فى النهضة العلمية العربية الشاملة .

وتقديرا منها لضرورة التنسيق بين الدول الاعضاء فى هذا المجال الخطير فى حياة امتنا ومنعا للازدواج أو التكرار ، وحتى تكون الترجمة على هدى من المعرفة والتجربة والخبرة بموضوع الترجمة

فانها توصي بما يلي :

1 ـ ان تواصل الادارة الثقافية اتصالاتها مع الدول الاعضاء من اجل استكشاف حال الترجمة العلمية فى الوطن العربي .

2 ـ وبعد ذلك تدعو الادارة الثقافية المكتب الدائم للجنة للنظر فيما انتهت اليه اتصالات الادارة الثقافية من مسح عام للترجمة العلمية فى البلاد العربية يستخلص المكتب منها عددا من امهات كتب العلوم يوصي بترجمتها .

3 ـ ان تعمل الادارة الثقافية وبالاتفاق مع الدول الاعضاء على تكوين لجنة تمثل فيها جميع الدول العربية (ما امكن) بعلماء متخصصين ممتازين ، تكون مهمتها :

ا) الاشراف على وضع خطة للترجمة واختيار الكتب والمترجمين من البلاد العربية .

ب) المساعدة (1) فى اصدار المعجم العلمي العربي الموحد الذي باشرت العمل فيه وزارة البحث العلمي فى الجمهورية العربية المتحدة .

ج) وضع الميزانية المناسبة للانفاق على هذا المشروع الضخم لشراء الكتب والمراجع والدوريات فى اللغات المختلفة من البلاد المختلفة ، مع توصية الامانة العامة بان تدرج بمشروع ميزانيتها للسنة القادمة 70 ـ 1971 اعتمادا قدره خمسة آلاف جنيه حتى يمكن تنفيذ المشروع على اساس سليم .

---

1) من المعلوم ان المكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربي يعمل الآن ضمن اختصاصاته وفى نطاق جامعة الدول العربية على اعداد معجم علمي وتقني عام موحد بعدة لغات .

4 ـ تعمل على ترجمة عدد من الكتب كل عام توزع على فروع العلوم الاساسية والتطبيقية المختلفة من كيمياء وطبيعة ورياضيات ونبات وحيوان وحشرات وجيولوجيا وفلك وارصاد واحصاء بالاضافة الى العلوم الطبية والفسيولوجية والهندسية والزراعية والصيدلية والبيطرية .. الخ .

5 ـ متابعة كل ما ينشر من الكتب والمطبوعات والدوريات فى اللغات المختلفة من انجليزية وفرنسية والمانية وروسية واختيار ما ترى نقله الى العربية .

ولما كان هذا القرار يشتمل على عدة نقاط هامة فان الامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة تتشرف بذكر ما يلي :

1 أن الادارة الثقافية بالامانة العامة للجامعة سبق لها ان كتبت الى الدول الاعضاء الموقرة من اجل :

ا) تزويد الادارة الثقافية بالامانة العامة لجامعة الدول العربية ببيان عما تم تعريبه حتى الآن من الكتب العلمية التي تعد مراجع اساسية ومصادر لا غنى عنها للباحث فى ميدان تخصصه .

ب) ان تتفضل الجهات المختصة فى حكومتكم الموقرة بتزويد الادارة الثقافية ايضا باقتراح ما ترتئي تعريبه من امهات كتب العلوم العالمية (بكافة الفروع) التي لم تعرب حتى الآن ، واذا كانت هناك بعض الدوريات التي ترتفع فى مستواها وبما تعالج من موضوعات وابحاث الى مستوى المصادر الاساسية وترى تعريبها فلا باس من ذكرها ايضا ، بين ما يجب تعريبه .

ج) ان تتفضل الوزارة الموقرة ايضا بالايعاز الى جهات الاختصاص فى حكومتها الجليلة من اجل تزويد الادارة الثقافية ، كل ستة شهور او كلما دعت الحاجة الى ذلك ببيان بما يتم تعريبه مفصلا من الكتب العلمية

لذلك فان الامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة ترجو التفضل بأن ترامي جهات الاختصاص فى الحكومات العربية الجليلة ان الترجمة العلمية مقصود بها نقل امهات الكتب العلمية (فى العلوم الاساسية ـ البحتة ـ او التطبيقية) التي تعد مصادر اساسية لا غنى عنها للباحث او طالب العلم المتخصص الى اللغة العربية .

وفى ضوء اجابات الجهات المختصة فى الدول الاعضاء يمكن الوقوف على حال الترجمة العلمية فى البلاد العربية ثم دعوة المكتب الدائم للجنة الثقافية « للنظر فيما انتهت اليه اتصالات الادارة الثقافية من مسح عام للترجمة العلمية فى البلاد العربية يستخلص المكتب منها عددا من امهات كتب العلوم يوصي بترجمتها » .

2 ـ اما فيما يختص بتكوين لجنة تمثل فيها جميع الدول العربية (ما امكن) وهي المشار اليها فى البند (2) من قرار المجلس المشار اليه فان الامانة العامة ترى ان يتم ذلك عند انعقاد المكتب الدائم وبعد ان تكون الدول الاعضاء قد امدت الادارة الثقافية بالامانة العامة بالصورة الحقيقية لحال الترجمة فى البلاد العربية .

3 ـ وعلى ذلك ، وحتى تكون نقطة البداية فى هذا العمل القومي العلمي الجليل قائمة على أساس سليم ، فان الامانة العامة (الادارة الثقافية) للجامعة، تكرر رجاءها الدول الاعضاء ان تزودها بما سبق لها طلبه منها فى هذا الخصوص من اجل ان تستفيد من الفترة (جـ) من البند (3) من قرار مجلس الجامعة المشار اليه والخاص باعتماد مبلغ خمسة آلاف جنيه فى ميزانية 70 ـ 1971 ، فتبادر الى تكوين اللجنة المشار اليها لاختيار عدد من المصادر الهامة فى مختلف فروع العلم الاساسية والتطبيقية لنقلها الى العربية

هذا والامانة العامة (الادارة الثقافية) لجامعة الدول العربية تامل فى ان تتلقى فى وقت قريب مناسب البيانات المطلوبة لتتمكن من تنفيذ قرار مجلس للجامعة ترجو التفضيل بأن ترامي جهات الاختصاص الجديدة 70 ـ 1971 للامانة العامة تبدأ اول يوليو (تموز) 1970 .

وتنتهز الامانة العامة هذه الفرصة لتعرب عن فائق تقديرها واحترامها ..

تعريب التعليم في الجزائر ومشاكله

الأستاذ عبد الحميد المهيري - الجزائر

القى الاستاذ عبد الحميد المهيري رئيس اللجنة المصغرة للتعريب في الجزائر محاضرة قيمة في مقر الجامعة الجزائرية حول تعريب التعليم ، تعطي صورة عما يتخبط فيه تعريب التعليم في المغرب العربي من مشاكل ، ونحن نلخصها فيما يلي :

ذكر المحاضر في البداية انه لا يريد القاء محاضرة بالمعنى المتعارف وانما اثارة المناقشة حول الموضوع .

ثم قال ان ما سيعرضه من افكار ليست افكاره ، وانما آراء نضجت مع الزمن عند المهتمين بالتربية في الجزائر .

وقال ان تعريف المشكل يضعنا في نهاية التحليل وجها لوجه ، اما ضرورة تحديد اختيار لغة او لغات التعليم ، وهو اختيار لم نقم به بعد ، ذلك لان على الجزائر ان تضع سياسة بعيدة المدى للتعليم ، وهنا يلقي السؤال : هل يحسن بنا ان نتخذ لغة واحدة للتعليم ؟ ، وان الاجابة على هذا السؤال ليست سهلة كما يتبادر الى الذهن ، فهذه القضايا تثير مجموعة من المشاكل منها ما له صبغة لغوية بحت ، ومنها ما له اتصال بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية في نفس الوقت .

ولهذا فان معالجة المشكل لا يمكن ان تتم الا عن طريق الدراسة الكاملة لكل هذه الجوانب ، والاقتصار على جانب واحد يؤدي بنا الى حلول ناقصة .

وقال ان هذا التعقيد الناجم عن طبيعة القضية قد يتخذ ذريعة لابقائها دائما تحت الدرس والمناقشة .

ولن نستطيع ان نوفي جميع جوانب المشكل حقها من الدرس في محاضرة واحدة . ولكن نكتفي باثارة القضايا التي يتكون من مجموعها ما نسميه قضية « تعريب التعليم » .

واول الاعتبارات التي ينبغي اثارتها قضية اللغة العربية نفسها . فهي ليست اللغة الام لجميع الجزائريين ولكنها اللغة الوطنية لجميع الجزائريين .

واختيار هذه اللغة لم يات ارتجالا ولا بصفة اصطناعية ولكنه تم عبر القرون والتجربة التاريخية الطويلة . وكانت لغة التعليم في الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي هي اللغة العربية في جميع مراحل الدراسة. وهذه حقيقة تجعلنا نقرر اولا بأن هذه المشكلة تهم سائر الجزائريين وبان حلها ينبغي ان يشارك فيه جميع الجزائريين بدون استثناء .

الحقيقة الثانية ان العربية كلغة ظهرت فجاة على المسرح العالمي وهي مكتملة من جميع النواحي . ولم يستطع اللغويون على ما اعرف ايجاد تحليل كاف لهذه الظاهرة .

ذكر المحاضر بتاريخ اللغة العربية الطويل وتطورها واضطلاعها ابان العصر العباسي بدور ضخم

هو تمثل مختلف الوان الحضارات ونقل هذا التراث الى الاجيال اللاحقة .

ثم اصاب العربية انتكاس نتيجة تخلف المجتمع العربي نفسه . وفي الوقت الحاضر تعرف هذه اللغة نهضة جديدة .

واشار المحاضر الى ظهور لهجات التخاطب في البلدان العربية ، مبينا ان هذه اللهجات على اختلافها تكون وحدة تمكن المتكلمين بها من التفاهم بجهد بسيط

وخلص المحاضر من ذلك الى القول :

باننا امام لغة قديمة قامت بدور اساسي وامام لغة خطاب مختلفة احتفظت بوحدتها . ثم امام ظاهرة ثالثة وهي ظهور ما يسمى باللغة المشتركة او العربية العصرية التي تجمع الاصالة ونوعا من التبسيط في متنها وتراكيبها يجعلها قادرة ومتفتحة على التيارات اللغوية المتصلة بها بشتى طرق الاتصال .

ثم اشار الى ان الاستعمار جعل ظل اللغة العربية يتقلص تدريجيا في المدرسة الجزائرية الى ان تفردت بها اللغة الفرنسية ، وهذا جعل المدرسة اداة لمسخ الشعب الجزائري وفرنسته .

وعند الاستقلال ، كان لا بد من تغيير هذه الوضعية ، وادخل في البداية وكخطوة اولى قدر ادنى من اللغة العربية كمادة درس اساسية في كل فصل .

وهنا وضعت مشكلة الاختيار أينصب على لغة واحدة للتعليم أم ينبغي الاحتفاظ بالازدواجية ؟ .

وقد راينا كيف ان هذا السؤال صعب الجواب نظرا لتشعب الموضوع ، وكيف ان طبيعة التشعب هذه تتخذ ذريعة لابقاء المشكل دائما تحت الدرس والمناقشة .

وقبل ان تتخذ الجزائر حلا جذريا ، حاولت الا يكون مجهودها المدرسي استمرارا لنشر الفرنسية في المدارس . فعربت مواد التاريخ والتربية الدينية والخلقية والمدنية والجغرافية مع كثير من التحفظ وعربت السنتان الاولى والثانية من التعليم الابتدائي واحدثت بعض الثانويات المعربة في اوائل الاستقلال . وكان هذا ما يمكن ان نسميه بالتجربة الجزائرية في حقل التعريب .

هل تكفي هذه الاجراءات لاخراج المدرسة الجزائرية من طبيعتها الموروثة وجعلها تعمل وفق الاختيارات الاساسية للجزائر ؟

اعتقادي الخاص وكثير من الاخوان في لجنة اصلاح التعليم ان ذلك لا يكفي وانها ان كانت خففت من هذه الطبيعة الموروثة ، فان المدرسة الجزائرية ما زالت وسيلة لنشر نوع من الفرنسية غير منظور . وهي لهذا السبب اخطر من المدرسة الفرنسية التي كانت تجابه الجزائريين بما يكرهون كاشفة القناع من وجهها .

والسبب الرئيسي لهذه الوضعية هو ان المدرسة الجزائرية لا عن اختيار بل لتوقفها على اختيار طريقة ناجعة للتعريب ، انتهت الى الازدواجية : العربية في الدراسات الادبية (النظريات) والفرنسية في العلوم

هذا الوضع يقدم للطفل الجزائري صورتين ، صورة الماضي متمثلا في اللغة العربية ، وصورة المستقبل وبالتالي للفعالية متمثلا في اللغة الفرنسية.

واذا استمر الوضع على هذه الحال فانه يوشك ان يحدث اختلال في شخصية المواطن الذي تكونه وان امتنا لا تريد ان تزيل ماضيا من الاذهان بعيدا عن الفعالية وقد يرتبط هذا الماضي عندها باللغة العربية .

وبعد ما اشار المحاضر الى الحجج التي يقدمها البعض عن قصد حسن بغية اصلاح جهاز التعليم وجعله ملائما لتوفير العدد الكافي من الاطارات لمقاومة التخلف ، وقولهم ان المهم ان يكون في البلاد مثل هذه الاطارات وان اللغة شيء ثانوي . هذا التيار في نظر المحاضر يعتمد على نظرة ليس فيها عمق ، لان التعريب لا يمكن ان يكون منافيا لهدف التنمية .

مقدرة اللغة العربية :

ويبدو من الوضع الحالي للتعليم بالجزائر ان هناك تعارضا ظاهريا بين تعريب التعليم وتقنيته . قد ينجم عنه الشك في مقدرة اللغة العربية كما قد يكون نتيجة نظرة سطحية الى واقع العالم العربي .

فمن حيث الشك في مقدرة اللغة العربية ، يمكن ان يرجع الى ان هناك دولة عربية تستعمل اللغة العربية كاداة لتعليم جميع المواد ، هي سوريا .

والمختصون بالدراسات اللغوية يؤكدون بان اللغة العربية قطعت شوطا بعيدا فى تطوير نفسها ، واصبحت مرشحة لان تكون لغة عالمية .

نعم هناك مشكل المصطلحات ما زال قائما لكون المجهودات الفردية بشانه مبعثرة غير منسقة . ولكن المشكل حاصل فى مستوى معين . هو غير حاصل فى مستوى التعليم الابتدائي ولا الثانوي ولا حتى بعض الدراسات الجامعية . وانما يوجد فى مستوى الاختصاص الضيق ـ والبحث العلمي ، والتبادل مع الغير .

فما يقال عن عجز اللغة العربية انما يقال بدون تمحيص . فهي صالحة كل الصلاحية بدون ادنى عائق فى مستوى الثانوي على الاقل .

على أن هناك الادعاء القائل بان اللغة العربية صالحة كاداة فى تلقين الدراسات الادبية والانسانية ، وغير صالحة لتلقين التقنيات .

أولا : مصطلحات العلوم الصحيحة قليلة ومحدودة .

ثانيا : الصفة التي تمتاز بها المصطلحات هي الدقة والوحدة .

وهذه مطالب غير عسير تحقيقها على جهود العاملين فى هذا المجال .

على أن هناك حقيقة يجهلها الكثير ، وهي أن مشكلة المصطلحات فى الدراسات الادبية والانسانية ، اكبر منها بكثير فى العلوم الصحيحة . وذلك لتشعب تلك الدراسات وصعوبة وضع المصطلح الدقيق بشانها

واعتقادنا ان هذا الامر المعكوس للغاية . وان القصد من ذلك تبرير الوضع القائم واكثر منه تعبير عن حقائق علمية .

الجانب الثاني : النظرة السطحية الى واقع العالم العربي .

تجارب العالم العربي فى ميدان التعريب :

اعتبر المحاضر ثلاث تجارب اساسية

1) تجربة سماها شاملة ، هي تجربة سوريا .

ليست جديدة،ابتدات اثناء الحرب العالمية الاولى تمت بتشجيع الخبراء الفرنسيين الذين كانوا يضعون التقارير تلو التقارير يؤكدون ان العربية صالحة فى جميع مراحل التعليم . وكان حافزهم الى الرغبة فى وقف انتشار اللغة الانجليزية فى المشرق العربي .

اعطت هذه التجربة نتائج يمكن ان تعتبر حجة كافية على صلاحية اللغة العربية . لكنها تصطبغ بنقص عابه السوريون انفسهم هو عدم اهتمامها بتدريس اللغات الاخرى .

هذا جعل المتخرجين ، وخاصة المختصين والمشاركين فى البحث العلمي يجدون بعض الصعوبة فى ميادين الاختصاص نظرا لضعفهم فى اللغات الاجنبية .

لكن هذا يمثل مرحلة هي الآن فى طريق الزوال.

2) تجربة وقفت فى نصف الطريق ، تمثلها ، مصر والعراق

وقفت عند الابتدائي والثانوي والدراسات الادبية والانسانية فى التعليم الجامعي ، وبقيت المواد العلمية باللغة الاجنبية .

وكان من نتائج هذه السياسة تناقض واضح يتمثل فى انشاء المجامع العلمية اللغوية من جهة ، ورفض استعمال العربية فى العلوم من جهة اخرى .

فوقوف التعليم فى الجامعة بالعربية لدى العلوم ليس منطقيا ، ولكنه مرتبط باوضاع .

هنا استعرض المحاضر الكفاح الذي خاضه الشعب المصري تحت الاحتلال الانجليزي لفرض اللغة العربية فى الابتدائي والثانوي ، واضطرار الحكومة للاستجابة واصرارها على عدم تعميمه على الجامعة .

وكيف ان الجامعات المصرية قامت بمجهودات الشعب الاهلية ولم تساهم فيها الحكومة .

وكيف أن القائمين عليها اقتصروا على تعريب النظريات لانها كانت فى متناول مجهوداتهم المتواضعة ولا تكلف كثيرا .

وكيف ان تجربة العراق تشابه كثيرا تجربة مصر ، ثم قال :

ان الاتجاه الذي فى سوريا ومصر والعراق هو التفكير الجدي فى اكمال الحلقة .

3) اقطار المغرب العربي :

تتميز تجربة اقطار المغرب العربي بالتوقيف عن البت فى اختيار لغة واحدة للتعليم ، وتخصيص اللغة الفرنسية لتلقين العلوم والتقنيات .

وهذه تجربة قد تؤدي الى مخاطر ، لانها مبنية على احكام سابقة غير ممحصة .

ثم لخص المحاضر الوضع فى العالم العربي ككل، فقال ان التجربة ككل تعتبر عامل اللغة ، وتتناسى اشياء اساسية ، وهي أن حركة التعريب بدأت فى وضع سياسي كان العالم العربي فيه خاضعا لنظم استعمارية، وان المجتمعات العربية فى ذلك الحين كانت مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية .

ولهذا فان تجربة التعريب كانت منعزلة تعتمد تطوير اللغة بمفردها ، دون البحث فى الاسباب المؤدية الى تطوير المجتمع ككل . اذ مدى تطوير اللغة مرتبط بتطور المجتمع . وقد كانت تجربة تستهدف احداث ثورة فى اللغة، فى نفس الوقت الذى تريد تلافي احداث ثورة فى المجتمع .

وهذا من شانه ان يؤدي الى الاخفاق .

اذ كيف يمكن ان تتطور اللغة العربية فى مجتمعات اقطاعية او شبه اقطاعية لا وجود فيها لاساس مادي للعلوم والتكنولوجيا .

التعريب يبدأ الآن

وعلى هذا ، فان التجربة الحقيقية للتعريب تبدأ الآن بعد ان اصبح واضحا ان هذا لا يمكن ان يتم الا فى نطاق ثورة شاملة . فى اطار هذه الثورة يمكن ان تستكمل التجربة جميع اسباب النجاح .

النتيجة

انه اذا كان التعريب لم يؤد فى نظر الاجانب الى نتائج ايجابية ، فالمسؤول عن ذلك ليس اللغة العربية. ولكن فساد النظم التي كانت سائدة ، تعكس صورة للمجتمع، وفقا على طبقة محظوظة، محشوة بالنظريات، بعيدة من مجالات التطبيق يتميز بغلبة التكوين العام او الثقافة العامة على حساب العلوم الصحيحة والتقنية.

هذا الوضع لم يتغير جذريا . وهو قسمة مشتركة بين سائر اقطار العالم العربي ، ولا تشذ الجزائر عن ذلك .

ان الجزائر تحاول الآن ان تقوم بثورة شاملة فى جميع المجالات وسلوك سبيل الاصلاحات الجذرية بغية تطوير المجتمع اقتصاديا واجتماعيا. واننا متجهون الآن الى اصلاح نظم التعليم بما يوافق اختياراتنا الاساسية . وهذا عنصر مساعد جدا .

سياسة رجعية ؟

على اننا نرى بعض المتحمسين للثورة ينكرون امكانية ان تكون العربية فى الجزائر اداة للتربية . ويذهبون الى ابعد من ذلك اذ يتصورون ان العربية التي مضى عليها ردح من الزمن انكمشت فيه واصبحت لغة التعليم الديني فحسب ، وانقطعت عن تيار الحضارات والافكار الحديثة والعلوم التقنية ، لا يمكن ان تكون الا اداة لسياسة رجعية .

ومع ملاحظتنا على هؤلاء انه سواء بسواء يمكن ان تنفذ سياسة رجعية عن طريق الفرنسية ، فاننا اذا سلمنا ان العربية بما اصابها من تاخر بفعل تاخر المجتمع ، نرى ان احسن وسيلة لاجبار العربية على القيام بدور سلبي ، هو ابقاؤها بعيدة عن ميدان العلوم الصحيحة . لا فرق اذا اننا اردنا ان تلعب العربية دورا ايجابيا فى تطوير البلاد وتحقيق الثورة ، يجب ان نتخذها اداة للعلوم . هذه الاختيارات النظرية .

اضيف الى ذلك شيئا اساسيا هو الدعوة الى الازدواجية . وبهذا الصدد تعدد مزايا الازدواجية فى التعليم وفى الحياة .

اعتقد ان الازدواجية ليست ذات معنى واحد . فهذا اللفظ يمكن ان يطلق على اشياء كثيرة تختلف من حيث الدرجة كما تختلف من حيث الطبيعة .

ونحن نرفض الازدواجية مبدئيا لاسباب بديهية هي :

1) ان الازدواجية بين العربية والفرنسية ليس لها سند سكاني .

كان الامر يختلف لو ان الاقلية الاوربية قررت البقاء فى الجزائر اذن لكان المشكل قائما .

2) **نحن نفرض الازدواجية ، اذا كانت تعني اعتماد الفرنسية كوسيلة وحيدة للتفتح على الحضارة العصرية ، لاننا لا نسلم بعجز اللغة العربية عن تادية هذا الدور .**

يبقى هناك نوع من الازدواجية نسميه بالازدواجية التربوية . ويدعو اليه الكثيرون من المربين فى العصر الحديث . **معناها تعلم اللغات الاجنبية .**

والازدواجية بهذا المعنى يمكن اعتبارها اذا كانت لغة التعليم موحدة والعربية لغة تدريس لجميع المواد فى جميع المراحل ، يمكن اذ ذاك ان نفكر فى تعليم اللغات الاخرى من اجل التفتح والاتصال .

والازدواجية بهذا المعنى بدا تطبيقها فى بعض البلدان على سبيل التجربة وهي ما زالت فى طور التجربة .

ونحن نستطيع ان نسلم جدلا بان الجزائر فى استطاعتها ان تتبنى هذه التجربة فى النطاق الوطني العام . وهذا يمكن ان يناقش ويستفاد منه .

التعريب من الناحية العلمية

الجميع يقر بان **العملية لا يمكن ان تتم دفعة واحدة . والتدرج نفسه اذا لم يطبق بدقة قد يكون سببا فى الفشل وذريعة تتخذ لفرض مبدا التعريب نفسه .**

والتدرج يصطدم بصعوبات اهمها :

صعوبة توفير الوسائل البشرية والمادية والتربوية لتعريب صف كامل (التدرج العمودي من الاسفل الى الاعلى) . وهذا التدرج العمودي منطقي، ولكن صعب تخطيطه . فهو يضع المسؤولين امام آجال لا تقبل التاخير . وفيه ايضا اجبار التلاميذ على تغيير اداة التعليم فجاة (ابتداء من السنة الثالثة الابتدائية الآن) : هناك التدرج الافقي = ان تعرب كل سنة مجموعة من المدارس الابتدائية والثانوية تعريبا شاملا وفق سلم التعليم .

مثلا = مائة مدرسة ابتدائية

وفى نفس الوقت 10 اعداديات

وبعد سنة 5 ثانويات

وقد يمكن التوسع اكثر اذا سمحت الامكانيات.

هذه الطريقة تضمن للتلاميذ ترقيا فى السلك يوصلهم الى الباكلوريا بدون عائق .

ويمكن ادخال اللغة الاجنبية ابتداء من السنة الرابعة او الخامسة ليتمكنوا من مواجهة تعليم الجامعة بالفرنسية ، اذا لم نكن قد تمكنا من تعريب الجامعة اذ ذاك .

خصم لوحدة التعليم :

هناك من يرى فى هذا التدرج خصما لنظام وحدة التعليم الواقع ان الامر لا يخلو من ذلك . وقد نعيش لفترة طويلة على نظامين تعليميين يختلفان قليلا . ومع ذلك فان الفرق بين النظامين يكون **فى العلوم الصحيحة فقط** . ومن السهل ان نتصور **التلاميذ الذين يتابعون النظام الانتقالي الحاضر بما يحصل لهم من ملكة فى اللغة العربية ، يصبحون قادرين على مواصلة تعليمهم العالي باللغة العربية .**

هذا التدريج يمكن من التغلب على كثير من المشاكل ، الا انه لا يعفينا ايضا من الاحتياجات البشرية والتربوية والمادية ، ومن الآجال الواضحة .

واخيرا فان تعريب التعليم لا يمكن ان يتم بواسطة الجهاز التقليدي لوزارة التربية ولا بد من انشاء مؤسسات تسهر على حركة التعريب ؛ وهي فى نظري :

1) **مركز وطني لتيسير اللغة العربية ونشرها .** لا كمجمع ، اذ لا فائدة من ذلك بل مركز يجمع بين البحوث الاساسية فى العربية ومحاولة ايجاد الحلول لمشاكل العربية ، وليست العربية بدعا بين اللغات فى ذلك . وقد تكون المشاكل فى العربية تختلف من حيث الدرجة ولكنها لا تختلف من حيث الطبيعة بالنسبة للغات اخرى .

اتصور **المركز ملتقى الباحثين** من رجال التربية واللغة والتعليم ، **لايجاد احسن الحلول لتعليم اللغة العربية** لا فى المدرسة وحدها ، ولكن باساليب عصرية ووظيفية للعدد العديد من الجزائريين المتعطشين للتزود بهذه الاداة التي تمكن من الاسهام الحقيقي فى تعميق جذور الثورة وجعل معركة التعريب معركة الشعب .

مدرسة الترجمة

من هذه النواة يمكن الانطلاق لاعطاء مفهوم جديد للترجمة يجعل منها لا عملا هامشيا ، ولكن أساسا لتطوير المجتمع وتنظيم العلاقة بينه وبين الشعوب .

ينبغي اذن تكليف المدرسة برسالة اخرى . لا ينبغي أن نقنع بتكوين التراجمة للاعمال اليومية ، بل أن ننزع الى تخصيص علماء في مختلف المواد والعلوم لتكريس جهودهم لعمل الترجمة الذي هو على ما اعتقد عمل اساسي في بناء النهضة العلمية .

المؤسسة الثالثة

تنظيم واسع شعبي اعتقد من السابق لاوانه تصور جميع عناصره. ولكن اتصوره على شكل مؤسسة تجمع بين مسؤولين معينين يحتلون مراكز حساسة بالنسبة للعمل الاداري والجماهيري ، يسهرون على تطبيق المخطط العام للتعريب وربط تعريب التعليم بتعريب بقية الميادين .

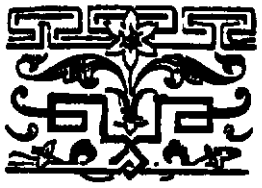

تأثير العربية في سنغال

الأستاذ مالك انجاي «سنغال»

احتلت فرنسا سنغال والعربية هي اللغة الحية الوحيدة المستعملة فيه ، ووسيلة التفاهم بين الملوك في مناطقه المختلفة اللغات . كان **الملوك يستعملون المستعربين** للكتابة والترجمة ، واتخذوا منهم القضاة والمستشارين في الشؤون الدينية ، **فكانت العربية لغة تدوين الوثائق** من معاهدات وعقود ورسائل ، واتخذت فرنسا نفسها العربية واستعملتها في التفاهم في الاعلانات والمناشير التي تهم الخاص والعام من الاهالي . وكان الملوك والمشائخ يراسلون السلطات الفرنسية بالعربية . وفي كتاب « دراسات اسلامية عن سنغال » يقول الافريقاني الفرنسي «بول مارتي» ان **جميع المشائخ كانوا يراسلون السلطات الادارية بالعربية** ما عدا الشيخ «بوكنت» زعيم الفرقة القادرية الكنتية ، وصكت النقود حاملة الكتابة العربية مع الكتابة الفرنسية ، وصدرت الجريدة الرسمية الاولى للحكومة الفرنسية في سنغال مكتوبة فيها الاخبار المهمة للاهالي بالعربية والفرنسية . وفتحت في سان لوي عاصمة سنغال الاولى مدرسة فرنسية عربية لاغراء الناس على تعلم الفرنسية مع العربية . قال الافريقاني الفرنسي « روبير ارنو » Robert Arnaud في كتابه (الاسلام وسياسة فرنسا الاسلامية في غرب افريقيا) :

« ... ما ترددنا عن فتح مدرسة عربية في كل من جنه وتمبكتو وسان لوي حيث يجد طالب العلوم الدينية تعليما فرنسيا رفيعا مع دروس النحو والفقه ... والفكرة الداعية لانشاء المدارس العربية الفرنسية هي ان تصير محل تلاق وتوافق بين العقلية القرآنية وروح العصر . » (1)

وهذا اقرار واعتراف بانه وجدت وتمثلت **عقلية قرآنية** تستحق ان تتكيف السياسة لمجاراتها والسلوك معها مسلكا خاصا ، ومعنى وجود عقلية قرآنية كهذه هو وجود ثقافة عربية دينية راسخة يعتبرها الاحتلال الجديد منافسا لا يمكن الافضاء عنه واخذ التدابير الحيلية للانتصار عليه .

ورغم اغراءات الحكومة وضغطها على الناس لارسال ابنائهم الى المدارس الفرنسية فلم تستطع ان تحمل الناس على الاعراض عن الكتاتيب ، ويشهد التقرير الرسمي لعام 1912 على ان 633 تلميذا فقط هم الذين كانوا يتابعون ، مع استمرارهم على دروسهم القرآنية في الكتاتيب ، دروس المدارس الفرنسية ، وهذا من بين 11.451 تلميذا الموزعين في كتاتيب سنغال البالغ عددها في العام المذكور **1385 كتابا** .

---

(1) L'Islam et la politique musulmane française en Afrique Occidentale

وفى مجموعة الجريدة الرسمية لعامي 1878 – 1879 م الموجودة فى مكتبة الاتحاد الثقافي الاسلامي، والتى نقلنا منها النصوص الآتية فى آخر هذا الفصل ، توجد الاخبار الهامة لدى الاهالي مكتوبة بالعربية والفرنسية. والورق المصكوك فى دكار بتاريخ 13 اكتوبر 1924 تحمل الكتابة العربية فى احدى جهتيها مع الفرنسية فى الجهة المقابلة .

دور الطرق الصوفية فى التعريب :

ومن اهم الدوافع للتعريب فى هذا القرن والقرون السابقة من غير شك الطرق الصوفية واهمها فى سنغال ثلاث : القادرية والتجانية والمريدية او القادرية المريدية بتعبير ادق . ويظهر تاثير هذه الطرق فى مجالين هامين هما مجال اعلام الاناس والاماكن والمنظمات والعوائد ومجال التعليم ، والمجال الثاني تتكفل ببيانه الفصول المعقودة للمدارس العربية الكبرى فى سنغال كمدرسة التجانية فى تراوون ومدرسة المريدية فى جربل

اما المجال الاول فان تعلق القوم بالشخصيات الصوفية البارزة فى هذه الطرق مثل الشيخ سعد ابيه والحاج مالك والشيخ الخديم احمد بمب كان سببا للتبرك بهم والتقرب اليهم بتسمية الابناء باسمائهم واسماء من تفرع منهم . ولكون هؤلاء متعلقين بدورهم بالوجهاء المشهورين فى التاريخ الاسلامي من النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وكبار المتصوفة فانهم لا يترددون فى اطلاق اسماء هؤلاء على ابنائهم وعلى ابناء من يخيرهم اسماء لمواليدهم من المريدين وعلى من اهتدوا الى الاسلام بواسطتهم بدلا من اسمائهم العائلية ، فمن هنا تنسخ الابوة الروحية عمل الابوة النسبية برضى ووفاق بين الطرفين . فما يلبث الولفي المهتدى الى الاسلام باسم « جبل » ان يتسمى باسم «محمد الامين» والسراري المهتدى باسم « لتير » ان يحمل اسم « ابراهيم » والفلاتي المهتدى باسم « جول » ان يحمل اسم «علي» وهكذا . ولو اراد الانسان ان يكتب عناوين الذين سموا الحاج مالك والخليفة ابا بكر سه والحاج منصور سه من الطائفة التجانية التواونية او عناوين الذين سموا احمد بمب ومصطفى البكي وبشير البكي من الطائفة القادرية المريدية للزمه للقيام بهذا العمل اضبارة من الاوراق . هذا ولم يمض على ميلاد اكبر هؤلاء سنا الا 115 سنة . فاذا عرفنا ان **هذا التعريب** يستمر بنفس الحماسة فى القادرية واللاهية . ادركنا اي سرعة يسير هذا التعريب الجماهيري فى اعلام الاشخاص ويتقدم نحو الشمول.

لا يسعنا وقد تكلمنا فى دور الطرق الصوفية عموما فى **تعريب اعلام الاشخاص** الا ان نتكلم عن دور المريدية والتجانية التواونية كل منهما فى فرع خاص من فروع المجال الاول من التعريب برت فيها غيرها من ضراتها . لقد فاقت المريدية فى **تعريب اسماء البقاع** وسبقت التجانية التواونية فى **تعريب اسماء المنظمات الداخلية** المسماة بـ « الدوائر » الموجودة فى جميع الطرق السنغالية والتى ابتدعها مجاراة للمريدية فى دساكرها الفلاحية .

ففي اقاليم بول وجلف وجنوب كجور يتجلى دور المريدية فى تعريب البقاع حيث قام الشيوخ المريدون بحماسة فائقة بتاسيس الدساكر والقرى والمدن حتى طبعوا المناطق المذكورة بطابع متميز عن طابع غيرها من المناطق السنغالية من حيث **تعريب كثير من اعلام قراها ودساكرها** . فنثروا على ارضها هذه الاسماء اللطيفة فى السمع مثل : طوبي – دار السلام – دار المعطي – دار الغفور – دار المنن – دار المنان – دار النعيم – دار العليم – دار الرحمن دار الرحمة – دار القدوس – الشام – مدينة – طائف – عالية – طوبي فال – طوبى كن ، وسموا سوق طوبي مهد المريدية هكذا .

ونشاط المريدية فى تعريب اعلام الامكنة يضاهيه نشاط التجانية فى تعريب اعلام المنظمات الداخلية « الدوائر » . ومنذ نشاة هذه الجماعات اختارت القيادة التجانية التواونية تعريب اسمائها فاطلقت على اول جماعة تكونت منها اسم « دائرة الكرام » ثم تتابعت الحلقات فى هذه السلسلة : دائرة المهتدين – دائرة المنة – دائرة المقتفين – دائر المتقين – دائرة الوفاء – دائرة المهاجرين والانصار – دائرة المقتدين – دائرة المحسنين – دائرة الابرار – دائرة الخليفة الاكبر – دائرة الخير والبر – دائرة المومنين . الى غير ذلك من **الاسماء الرنانة التى اطلقت على مئات الجماعات** .

وهذا التعريب الذى يتولى كبره قادة الطرق الصوفية فى الاسماء التى يختارونها للقرى والاشخاص والجماعات ادخل فى الشعب حماسة مماثلة فعرب الكثيرون منهم اسماء القرى التى اسسوها ويتجلى هذا فى الاحياء الشعبية فى المدن السنغالية الاساسية حيث اتخذت للكثيرة منها اسماء مثل : فاس ـ نمساط ـ طوبي ـ مدينة ـ دار السلام ـ مزدلفة الخ ..

خذ خريطة مفصلة للقرى والمدن السنغالية واجل بصرك فى اقاليمها المختلفة من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب او تناول سجل العمال لاحدى المؤسسات الصناعية او سجل الاعضاء المنخرطين فى احدى الجمعيات ، او اسماء الجنود فى احدى الثكنات العسكرية او اسماء التلاميذ فى احدى المدارس فسيكون اول ما يلفت انتباهك ذلك العدد الكثير من اسماء القرى والدساكر والاشخاص المعربة .

قمت انا شخصيا لاختبار سرعة التعريب فى اسماء الاشخاص فاعجبتني السرعة التى يتم ويسير بها هذا التعريب ، فبينما كانت النسبة المئوية تتردد بين 44 ٪ و 48 ٪ فى اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن اعتمادا على القائمين المئويتين المعدتين عن قوائم اسماء كثيرة من الجريدة الرسمية لعامي 1878م و 1879 م ارتفع خلال الستين سنة الماضية الى 69 ٪ و 77 ٪ فى عام 1966 م

اما الطريقة التى سلكناها فى هذا التحقيق فهي اننا اعددنا ست عشرة قائمة تتألف كل قائمة من مائة اسم . وقد مر فى السطور السابقة نتيجة القائمتين الاوليين . وثبتنا فى الجدول الملحق بهذا الفصل ثلاث مجموعات من القوائم تتألف المجموعة الاولى منها من ثلاثة قوائم مصدرها جريدة « دكار مثان» اليومية « Dakar Matin » فى عدديها الصادرين يومي الجمعة 22 ـ 7 ـ 1960 ويوم السبت 23 ـ 7 ـ 1960 . وهي قوائم اسماء النواب المرشحين للانتخاب للحزبين المتنافسين فى الحكم فى السنة المذكورة . والمجموعة الثانية مصدرها الجريدة المذكورة فى عددها الصادر يوم الخميس 18 ـ 1 ـ 1968 وهي قائمة اسماء النواب المرشحين للانتخابات التشريعية للعام المذكور مكملة بعشرين اسما من الوزراء وكبار المسؤولين فى الحكومة . والمجموعة الثالثة مؤلفة من عشرة قوائم مائوية مصدرها الجريدة المذكورة فى عددها الصادر يوم 2 ـ 8 ـ 1968 . وهي اكبر المجموعات الاربع واصدقها تمثيلا للواقع لانها تمثل قائمة اسماء الناجحين فى امتحانات الدخول فى السنة السادسة من التعليم الثانوي واصحاب اسماء هذه القائمة متقاربون فى السن لا يجاوز اكبرهم سنا ثلاث عشرة سنة ولا يقل عمر اصغرهم عن احدى عشرة سنة . ويزيد فى قيمة هذه المجموعة تمثيلها لجميع اقاليم السنغال السبعة لان الامتحان المذكور يجري فى جميع انحاء سنغال وتظهر نتائجه جملة مترتبة الاسماء فيها بترتيب ابجدي ومن هنا انتفت الاقليمية عن نتائج المجموعة .

تاثير العربية فى اللغات المحلية

اثرت العربية فى لغات سنغال المحلية ولاسيما الولفية والفلاتية فقد استعملت كل من الجماعتين الحروف العربية فى الكتابة بلغتها ، وذلك منذ زمان قديم مجهول يترسلون ويدونون بها خواطرهم ، اما الولفية فيوجد بينها وبين العربية شبه كبير من خصائص البناء ليس هذا الكتاب مجالا للتفصيل فيها مثل كون اكثر الافعال الماضية مركبة من ثلاثة حروف ، وتقديم علامة المضارع على اصل الفعل والتلفظ بعلامة الجمع . وتاخير الضمائر المتصلة بالماضي عنه الى غير ذلك .

ونظم الشعراء المستعربون الولف والتكلور القصائد ملتزمين فيها قوانين العروض العربية من التفعيلات والقوافي والبحور واستحدث الشعراء المستعربون الوف فنا شعريا سموه البديع وهو قصائد منها «المصدور» يتالف البيت منها من صدر ولفي وعجز عربي . ومنها المعجوز صدره عربي وعجزه ولفي . ومنها المحشو يحشي القسم الولفي بين جزئين عربيين ومنها غير ذلك . وسنلحق بهذا البحث نماذج من هذا الفن لبعض الشعراء الولفيين.

طبق المستعربون الفلاتيون والولفيون قواعد العروض ونظموا قصائد ذات اغراض مختلفة كالقصة والوعظ والمدح والهجاء والرثاء . ولا ينافي ذلك ان يستنكف الكثيرون من كبار المستعربين عن نظم الشعر

بالاعجمية ، ولعل ذلك ناتج عما يسود هذا المجال من اللغو المنافي للورع والمقاصد الصوفية .

يجد الباحث في العلاقات بين الولفية والعربية ظاهرتين لا محيص من ملاحظتهما والاقرار بهما والاعتراف بهما وهما **ظاهرة تاثير العربية في الولفية من حيث الحفظ وابقاء الكثير من مفرداتها وظاهرة تاثيرها فيها بانسداس الكثير من مفرداتها اليها .**

ففي الظاهرة الاولى نلاحظ ان **الكثير من المفردات الولفية المهجورة** في المخاطبات ومن ذواكر الاغلبية العظمى من الشعب ـ غير المستعربين ـ **بقيت محفوظة في صدور المستعربين من الفقهاء** واللغويين الولف ، وذلك بفضل المنهج الذي كانوا يسلكونه في الدرس بتفسير كل كلمة عربية على انفراد بالكلمة الولفية المرادفة لها . وبمرور قرون عدة على تدريس كتب الفقه والاصول والحديث واللغة مثل مختصر خليل في الفقه والورقات ومقامات الحريري ودواوين الشعر الجاهلي وغيرها . ولا شك انه اثناء تطور لغة الحديث بقيت اللغة الشبيهة بالمكتوبة متحجرة يتناقلها المستعربون كابرا عن كابر وحفظت الكثير من المفردات المندرسة من الذواكر . وفي العصر الحاضر **لا يمكن لاحد تاليف معجم ولغوي كامل قوي دونما استمداد واستعانة بهؤلاء المعممين** المدرسين في الحلقات المحظوظين بالدراسة على المنهج القديم المستحفظين في ذواكرهم جميع الكلمات الولفية المرادفة لما في مقامات الحريري ومختصر خليل وغيرهما من كتب الفقه والادب . وكفى للاستثبات من هذا الراي ان يستمع اكبر خبراء الولفية غير المستعربين الى عدة دروس لدى احد المعممين .

اما الجهة الثانية من تاثير العربية في الولفية وهي انسداس كثير من مفردات العربية الى الولفية **تتجلى في تسرب الكلمات العربية العديدة الى الولفية خلال الاحتكاك الطويل بين اللغتين** . والكلمات التي اقتحمت على الولفية عرينها ما اتيح لها ذلك النصر الا بالصبر على الجروح الغائرة التي اصابتها اثناء المعركة وهي متمثلة في التحريف المبنوي والمعنوي اصابها من اللحن والتحريف ما يصيب كلمات كل لغة عندما تغزو غيرها وتتسرب اليها .

والحق ان التحريف المبنوي للكلمات العربية المولفة اكثر شيوعا من التحريف المعنوي وهذا لا يعني ان كلمة من اطهر الكلمات العربية « صادقين » جمع صادق اقبلت ان تفتح دالها وان تكون لها معنى « فاسق » جزاء لدخولها الولفية .

يجرنا الكلام على تاثير العربية في الولفية الى ذكر ما يعترض الكلمة العربية من التحريف حينما تدخل في اللغة الولفية والى شرح ابرز قواعد التحريف . **ان الكلمة العربية قد تفقد بعض حروفها بالحذف ويتشوه البعض الآخر بالتحريف .**

العربية بتضمنها اثني عشرة حرفا غير موجودة بالولفية ، اصلا، تتعرض لتحريف لا محيد عنه، وهذا زيادة على ضروب التعبير التي تترك اثرها في الكلمة العربية . وهذه الحروف هي : ث ح ذ ز ش ص ض ط ظ ع غ هـ . اما اشهر دواعي التحريف المبنوي فهو :

1 ـ **الترخيم** : هو ضرب من التحريف يأتيه الولفي لاظهار التحنن على المعبر عنه وهو مستعمل في العربية ايضا ولكن بصورة تختلف عن الصور الولفية في الترخيم ، وقد يكون بحذف اول الكلمة او حذف آخرها ، وهكذا يقولون في :

زينب	نب	سي	جارية	جاد	فاطمة	فات
خديجة	جة	خد	محمود	مود	رقية	رق
نفيسة	نف	«	عبد	اب	حليمة	المه
صفية	سف	«	ابراهيم	اب، ابر	آدم	آد
فرمة	فر	«	هرون	ار	رحمة	رم

ولعلنا لاحظنا ان العلم «زينب» اصبح شبه مجهول الاصل بعد حذف الحرفية الاخيرين وتبديل الزاي في اوله سينا فلم يبق فيه من اصله العربي الا الياء ومثل هذا يقال في «هرون» وغيره .

2 ـ ويتحرف العلم بزيادة حرف مد في آخره عند النداء وعدم مراعاة قاعدة الوقف العربية : مود (محمود) مودو ! . سال (صالح) سالو ! . آد (آدم) آدا . .

3 ـ تقلب العين والهاء والحاء همزة في اول الكلمة وتحذف غالبا في وسط الكلمة : حبيب (ابيب) حليمة (المة) عبد الله (ابلاي) هادي (آد) عائشة (ايسة) هرون (آرون) محمد (ممد) معاذ (ماس) مهدي (مدي) .

4 ـ يقلبون الثاء ، والذال والزي والشين والصاد والظاء سينا لانها غير موجودة في لغتهم : زينب (سينب) صالح (سالو) .

5 ـ ويقلبون الضاد لاما والظاء تاء .

قال الدكتور عبد الواحد وافي في كتابه « علم اللغة » ص 231 ط : 4 : « والمفردات التي تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بامور قد اختص اهل هذه اللغات او برزوا او امتازوا بانتاجها او اكثروا استخدامها » وفيما يلي قائمة من الكلمات العربية المولفة التي يبين تاثير العربية في الولفية خصوصا من الناحية الدينية .

الكلمات العربية المولفة :

اجل (نعم)
آدم
ابيس
الاثنين
الاحد
الآخرة
الاربعاء
اسرافيل
الاول (الكاس الاولى من الشاي خاصة)
البيت (الجزء من القصيدة)
البدعة
البرادة
البرزخ (مقر الارواح بعد الموت وقبل البعث)
البركة
البطاقة
البلاء
البهيمة
التخمة
التربية (بالمعنى الصوفي)
الترجمان
التسبيح
التفسير
التهمة
التهجي
التوبة
التوفيق
التيمم
الثلاثاء
الجائحة
الجامع
الجان! (الحية)
الجاهل
جبريل
الجلباب
الجمعة
الجن
الجنة
الجنازة
الجهاد
جهنم
الجو
الجيب
الحاج
الحاجة
الحج
الحديث
الحرام
الحرف
الحرمة
الحق
حواء
الخاتم
الخبر
الخطبة
الخليفة
الخميس
الدائرة
الدابة
الدار
الدبران
دجنبر
الدراهة
الدرجة
الدرهم
الدنيا
الدواة
الدية
الدين
الذكر
ذو الوجهين
الراية
الربا
الركعة
الركوع
الروح
الروضة
الزاوية (مكان تجمع الصوفية للذكر)
الزيارة
الزكاة
الساعة
السبب
السبب
سبوح
الشر
السجادة
السجود
السر
السطر
السطل
السكر
السلام
السلام عليكم
السماء
السنة
السورة
الشرح
الشرط
الشريف
الشغل
الشيطان
الصابون
الصبح
الصدقة

الصراط	القلم	ما رضيت عليه	الناقة
الضر	القفطان	مارس	النصراني
الضعيف	القوال	المحراب	النفس
الطالب	القياس	المداراة	الهدية
الطبل	القيمة	المربط	الهلاك
الطريقة	لقصة	المسيح	الورقة
الطرة	الكافد	المسيح الدجال	الوقت
عزرائيل	الكافور	المسك	الوكيل
العادة	الكاس	المسكين	الوظيفة
العورة	الكامل	المصلحة	الورد
العيب	الكمال	المصيبة	الوفاة
الغوث	الكرامة	المعنى	الولي
الفتنة	كش !	المقامة	يرحمك الله
الفجر	الكفر	المكان	يهديك الله
القاضي	الكلام	الملحفة	يوم القيامة
القبر	الكوب	الملاك	الزمن
القبة	لا بد	المهدي	العرش
قدوس	الله	المنبر	اليهود
القصيدة	اللوح	الميراث	القصبة
القطب	الماموم	ميكائيل	الشر
القرنفل	المثال	المنافق	الفوقية
		لنافلة	الآية

لم انهمت بعد شيب عبرة وبمه
اراقها كلمتا سعدى بمه وبمه !

اذ كلمتني بتين الكلمتين بلا
هزل ومزح بدا لي انها بنمه

وان حبل وصال صار منصرما
او واهنا خلقا تجديده تنمه

مالي اراني ان لامست فانية
عصر الشباب تقبل او تقل ببمه

واليوم ان لمست خودا يدي لعبا
تافقت ثم نادت : « يا أبي سرمه ! »

وكل ناهدة الثديين تلحظني
بعين سخط فتعلي صوتها نومه

وان لهوت تلهت او دنوت نأت
وان اسل فجواب عندها خممه

كل كاعب واعدتني زورة عشقا
زمان شرخي ولما جئتها نخمه

ما قالت اذ كنت أملودا كلمتها
بهيم ليل سوادا فادة منمه

لكن للشيب في فودي وجمجمتي
وخطا وخطا فعذراء النسا نبمه

— * —

الا ارعواء لمن ولت شبيبته
وآذنت بمشيب معلم هرمه

بل كل ضيف كريم القوم حوله
قرى عليه وهذا شيبه كنمه

فاقره — ان ترى ما عشت شادي من
هو الشفيع وكل قائل تلمه

من ذاته كل ذات لازمت عرضا
في عشر شعرتها لو تفتدى سقمه

من كل جرم له قدر يعمره
عند الفراغ فداه والفداد يمه

من دونه كل منطوق بحرف هجا
في الأسم الا الها غيره سكمه

من تحته كل موجود له جهة
من أي ست وربي انني نرمه

محمد سيد السادات لا احد
منهم مدانيه او قالا كنمه

صلى عليه الله العرش ما رجيت
شفاعة منه او قول له ولمه

يا من شفاعته يرجو ويأملها
اهل الكبائر امثالي فدا تنمه

فان جاهك عند الله منجمل
هو العظيم ففي الاهوال فتلكمه

اهوال دنياي او اهوال آخرتي
أو برزخ ثم من ذكراك ديلتمه

لا زلت انبك واسمع ما اردده
يا خير من يرتجيه مرتج ويمه

وقال الشيخ ماجورسيه متحديا للقاضي
مجنحت كل ومنوها بشان الشيخ احمد بمب :

ابدى الكجوري فنا فى البديـع « كمن
ندف » بديعـا كما ابدى وما بدعـا

ان الحقيقة بحر غـاص فيه « تفـر
درمو » عند التقاط الغـائص الودعا

اجاد مدح النبـي الهاشمـي « تـوخ
سخلا ميتم » واجاد المـدح والقذعـا

فالليث ليث عريض الساعدين « كجس
جفم « تيقن ان قد طال ما صرعـا

نفى وحوش الفلا عن ارضه « بجـدو
جستى ج سو فم س» لاسيدا ولا ضبعا

— * —

لكن هنالـك شبـل رابـض « بجكـى
ج خمن » ان سيجيد الصيد والنقعـا

لولا حيـاء وتقـوى ربـه « اكتـم
د دول يم » شب بـرا عالـا ورعـا

وحرمة الشيخ « اكتم موك مك ث بدون
ك ملن من » رد مـاء حيثمـا نبعـا

نظرة في الصلات العربية الفارسية حتى مطلع الإسلام

الدكتور محمد التونجي

(2)

وكان من نتيجة اتجاه الحكم وجهة الشرق ان تأثر العرب بأساليب حكم الفرس ، وبمظاهر حياة جديدة اقوتهم جدتها وجدبهم لمعانها ، مما اضطر بعض خلفاء بني العباس خاصة الى التعرف على تاريخ الفرس والاطلاع على اخبار ملوكهم ومواعظ حكمائهم كجزء هام من ثقافة الخليفة او الامير . ولا زلنا نذكر ان المأمون حكم في بلاد فارس ردحا من الزمان، واستعان بالفرس على اخيه الامين في بغداد.

ولقد تطورت نظم الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة ، وشاع الترف واللهو والطرب ، وتعددت الازياء والفرش والاثاث والآنية . وكان كثير من هذا غير معروف للعرب ، فسموها باسمائها الفارسية او اليونانية او الهندية .

ونحن اذا تصفحنا المعجمات العربية ــ وليس ذلك بعسير ــ وجدنا **عددا وافرا من المفردات كتب المؤلف عنها انها اعجمية او معربة او ان اصلها فارسي.** كذلك اذا نظرنا الى القواميس الفارسية وجدنا **اكثر من ثلث الفاظهم** ــ ولم اغال في ذلك ــ **عربية ومستخدمة في لغتهم الى اليوم .**

ولم يتوان العربي عن اخذ اية مفردة احتاج اليها من جارته ، وقد تجرأ على تغيير شكلها بحرية بشكل يلائم نطقها العربي ، فابدل الحرف بحرف يدنو من مخرجه ، ان لم يكن هذا الحرف نفسه ، لان نطقه في الفارسية لا يوازن نطقه في العربية ، فحور في الشكل ، ولاءم في المخرج .

وقد جرى هذا ، اما بابدال حرف مكان ءاخر ، واما بزيادة حرف او حرفين ، واما بتغيير البناء كله ليصير من ابنية العرب ويتمكن من الاشتقاق منه . وقد ينقص حرفا او يبدل في الحركات ، او يسكن ، او يحرك الساكن . وقد يتركه على حاله دون تغيير ان لم يحوجه الامر الى ذلك .

والجدير بالملاحظة ان **العربي اخذ اسماء ولم ياخذ افعالا او حروفا** ، وحينما احتاج الى افعالها اشتق ما حلا له وما شاء . فمن (لجام) قال : الجمت الفرس . ومن (مهر) : مهر الكتاب . ومن (ديوان): دون الحساب. ويمكن حصر هذه الاسماء ، فهي اما اسماء نبات او حيوان او معادن او ءالات او ماكولات او مشروبات او عادات مما لم يكن يعهدها العربي من قبل .

فكلمة (طبرزين) التي هي في الفارسية (تبرزين) اسم لسلاح ، كان يحمله الفارس الفارسي معه . وقد تكلمت به العرب . قال جرير

في رجل من بني كليب ، يقال له (مجيب) ، اتهم بقرفة ، فلم يلحقوا عليه شيئا فخلوا عنه :

كان مجيد الخبث تلقى يمينه
طبرزبن قين مقضبا للمفاصل

تداركه عفو المهاجر بعدما
دعا دعوة يا لهفه عند نائل

وكانوا يبدلون الحرف (ب) بثلاث نقط باء احيانا ، واحيانا اخرى فاء ، لان نطقه واقع بين الباء والفاء ، والثلاثة من الحروف الشفوية . فقالوا لـ (برند) فرند وافرند وبرند وهو السيف او جوهره. وكذلك قالوا لـ (بنكان) فنجان . ومثلها : الاصفهاني والاصبهاني وكلاهما واحد . وكذلك قلبوا الشين سينا . فقالوا للصحراء (دست) وفارسيتها (دشت) قال الاعشى :

قد علمت فارس وحميـر والـ
اعـراب بالدسـت ايكـم نـزلا

وحولوا كلمتي (بنفشه ولشكر) الى بنفسج وعسكر . اما حرف (الكاف الفارسي) فقد اكثر من تبديله وتحويله . فبعض الكلمات الفارسية قلبت كافها الفارسية الى كاف عربية مثل : (كردن : عنق) فقالوا لها: كردان . وقالوا لـ (الكنج) كنزا . وهنا حصل ابدالان ، فالقاف مكان الكاف والزاي مكان الجيم . وقد تبدل الكاف الفارسية فينا كما في غربال التي اصلها (كربال). اما تحول الكاف العربية والكاف الفارسية الى جيم وقاف ، فقد كان كثيرا مثال : لكام ــ لجام . كربه ــ قربق ، ويعربها بعضهم (كربج وكربق) ، وهي بمعنى دكان البقال قديما ، لاننا سنرى بعد اسطر انهم كانوا يبدلون الهاء جيما او قافا اذا كانت في اخر الكلمة .

اما الكلمات الفارسية التي تنتهي بهاء السكت فانهم بدلوها جيما ، فكلمة (بالوده) عربت الى (فالوذج)، وهي حلوى من الطحين والنشاء والشراب ، والعوام عندنا يلفظونها (بالوظا) لفظا تركيا . و(برده) عربوها الى (بردج) وهي السبي من الجواري او الغلمان . قال العجاج :

كما رايت في الملاء البردجا

وقالوا للقصر (جوسق) واصلها (جوسه) وقد تحولت في العامية الى (كشك) . وقد يبدلونها قافا كما في (باشه) وهو صقر الصيد ، قالوا له (باشق).

واذا اتى قبل الهاء حرف الدال فانهم يبدلونها بالدال فالجيم مثل : ساده ونموده، قالوا : ساذج ونموذج . وبدلوا التاء طاء ، فقالوا لـ (تازه) طازج .

وقد يزيدون على الكلمة حرفا او ينقصون منها حرفا ، فقالوا لـ (كليد) التي هي بمعنى المفتاح (مقليد) او (اقليد) . قال الراجز :

لم يؤذها الديك بصوت تغريده ولم تعالج غلقا باقليد

ونلاحظ انه لم يجتمع في كلمة عربية الجيم والقاف الا بحاجز ، ولا الصاد والجيم . وليس في ابنية العرب اسم فيه نون بعدها راء مثل : نرجس . ولا زاي بعد دال مثل : اندازه ، ثم ابدلوا الزاي سينا فصارت هندسة. كما انه ليس في العربية كلمة مبنية من باء وسين وتاء ، واذا وجدنا كلمة رباعية او خماسية وليس فيها حرف او حرفان من حروف الزلاقة ، وهي ثلاثة من طرف اللسان : الراء والنون واللام ، وثلاثة من الشفة وهي : الفاء والباء والميم ، فالكلمة ليست عربية مثل : صهريج وشبارق وهو فلذات اللحم التي تقطع للطبيخ .

كما كان **يتم التاثر عن طريق الجواري او الاميرات الفارسيات** اللواتي انتقلن الى البيت العربي فكان لابد لهن من ان تؤثر لغتهن وعاداتهن في ازواجهن واولادهن ، وكم عشق الشعراء هؤلاء الجواري وكم نظموا فيهن . فلقد اهدى الوليد بن يزيد ابن ميادة الشاعر جارية طبرستانية رائعة الجمال ، كان نقصها الوحيد في نظره انها لا تحسن العربية ، فقال فيها :

باهلي ما لذلك عند نفسي
لو انك بالكلام تعربينا !

ويتبدى هذا التاثر بواسطة الاسر الفارسية التي هاجرت من ايران الى البلاد العربية ، كما حصل لوالد المهلب الذي هجر بلاده ، وسافر الى عمان ، فطلق ديانته الزردشتية ، واسلم وجعل اسمه ابا صفرة. والعرب اذا كانوا ياخذون اللفظة للحاجة ، فقد اخذوها للتفكه ، كقول ابي المهدي :

يقولون لي شنبل ، ولست مشنبلا
طوال الليالي او يزول ثبير

ولا قائلا زوذا ليعجل صاحبي
وبستان في صدري علي كبير

وشنبذ : من الكلمة الفارسية شنبه اي يوم السبت . وزوذا من زود معناها عجل . وبستان : خذ . او ياخذونها للتفاصح بمعرفتهم الفارسية ، كما نجد الامثال الكثيرة على ذلك فى كتابي : يتيمة الدهر ودمية القصر .

وعلى هذا فقد **تاثر العرب بالفرس لغويا كما تاثروا بالامم المجاورة** ، على ان تاثرهم بالفرس اكثر واوسع نطاقا . وقد جرت **هذه الالفاظ الى العربية فى ازمان متفاوتة** . فلم تزحمهم كثرتها ولم يعقهم نطقها . ومن الحق ان نقول **ان للفارسية فضل رأب الحاجة الحضارية وسد النقص اللغوي الذى تطلبه العصر الجديد بعد الفتح** ، فدخلت فى قرآننا ، وشعرنا ، ونثرنا ، وامثالنا .

واذا كنا تاثرنا بهم حكما وسياسة وتابعية ودينا ولغة قبل الاسلام ، فاننا اثرنا باستقلالهم واديانهم وعاداتهم ولغاتهم بعد الاسلام ، ولما ضاع استقلالهم ، واندمجوا فى دولة الاسلام التى قادها العرب ، ولما ضاعت اديانهم وذابوا فى الديانة الاسلامية ، انغمسوا فى اللغة العربية وعاداتها وعاداتها .

وكنا ذكرنا فى مقالنا السابق ان **الاثر العربي الاول فى الفارسية كان فى تغيير الخط البهلوي الصعب بالخط العربي السهل** .

على اننا لا نلبث نراهم يقتبسون الالفاظ الدينية لتتبعها الالفاظ العلمية ثم الالفاظ الادبية . ورغم ان **اللغة العربية هيمنت على الارض الفارسية** ، ورغم ان القرون الثلاثة الاولى كانت العربية لغة العلم فيها، فان العربية لم تستطع ان تمحو الفارسية تماما . فقد ظلت متداولة بين الناس على الاقل ، ويبين الشعراء لحاجتهم الى القوافي ، ولا يمكنهم استخدام الالفاظ الفارسية فى القافية دائما لان الفاظهم غير كافية لذلك . ويكفي ان ينظر المرء فى ديوان فارسي ليجد ان ثمانية بالمئة تقريبا من الفاظ القوافي عربية .

ولقد **بدا الفرس فى مقاومة العربية منذ القرن الرابع** ، فقد خاطبهم ان تكون العربية رائجة كل هذا الرواج فى بلادهم ، وان يكون العرب حكاما لهم ، واول هذه المقاومات كان استقلال الدويلات الفارسية فى مناطقها ، وتشجيع الشعراء الفرس على نظم القصائد الحماسية والقومية . فقام شعراء ينظمون الشاهنامات ، ويتعمدون الاقلال من ذكر الالفاظ العربية . وقام ادباء يحضون على الكتابة الفارسية — غير ان هاتين الطبقتين لم تستطيعا الحد من التاثر اللغوي للحاجة الماسة الى كل ما دخل من الفاظ، حتى انهم انفسهم استخدموا الالفاظ العربية فى موضوعاتهم الحماسية والقومية هذه .

وكما دخلت القرءان الكريم الفاظ فارسية فقد **دخل الحياة العربية كثير من الفاظ دالة على الزينة والترف** مما لم يكونوا راوها ، كما راوا من تنظيم الحكومة وتدوين الدواوين ما لم يخطر لهم على بال. فاضطروا ان يقتبسوا من الامم المفتوحة الفاظا يدخلونها فى لغتهم ، وكانت اللغة الفارسية اقرب نبع يستقون منه ما يحتاجون .

— فمن اسماء الازهار الفارسية : النرجس. البنفسج . النسرين . الخيرى . السوسن. الجلنار. الارجوان .

— ومن الطيب : المسك . العنبر . الكافور . الصندل . القرنفل .

— ومن الاطعمة : السميد . الكمك . السكباج. الدجاج . الكبة . الخربز وهو البطيخ . الفستق .

ومن الحلوى : الفالوذج (وعربت الى البالوظة). الجوزينج . اللوزنيج . الزرده . الجلاب .

— ومن التوابل : الفلفل . الزنجبيل . القرفة. الكراوية (وهي الاكلة المعروفة فى دمشق خاصة) .

— ومن المفردات الحضارية: مهندس. روزنامة. نرد. برسيس (برجيس) . طربوش . بابوج . كوز ابريق . طست . خوان . طبق ، كاسة (عربت الى قصعة) . خز . ديباج . سندس . لجام . غربال . كردان . ساذج . طازج . نموذج . برنامج . سمسار دهقان . صولجان . فنجان . نيزك . زنديق . بازار.

— ومن مفردات الدواوين : مهر . ديوان .

— ومن الاسلحة والحرب : سبهبد وهو كالامير والقائد عند العرب . درفش (علم) . طبرزين . جند . عسكر . لجام . صولجان .

— ومن الحيوانات : شاهين . باشق . جاموس جؤذر (كاونر) . ذئب .

ولقد عمد العربي الى ما خف على اللسان ، واستعذبت الاذن جرسه ، وان كان عنده اسم لها، فاستعار : مسك . توت . رصاص . ميزاب .

مكان : مشموم . فرصاد . صرفان . مشعب .

ـ كما اخذوا بعض التراكيب منها :

ـ جلاب (ماء الورد) . ميزاب (سيل ماء) . سرداب (الماء البارد) سراب (راس الماء) . زركشة (التطريز بالذهب) .

ـ كما استعملنا في عاميتنا عددا كبيرا من الالفاظ كانت الخلافة العثمانية سببا هاما في نقل بعضها لان اللغة الرسمية في بلاط استانبول كانت اللغة الفارسية :

كبة . كفتة . نازيك . سيخ . كباب . كفكير . بشكير . خولية . عرموط . جادة . جاكوج . بوقالة . تهنا . بقلاوة . ارمغان . برشت . كشتبان . باروج . طربوش .

ولقد استخدم الادباء العرب الكلمات الفارسية في تراكيبهم . من ذلك قول الجاحظ في البخلاء : « ويسكروا الدرياجة على صغار السمك » . والدرياجة هي البحيرة ، و (سكر) كلمة سريانية . وكان الاخفش يقول لتلاميذه : لا تقولوا عندي كلمة هم وبس . وهكذا لا تقولوا لفلان بخت . وفي حديث مجاهد : يغدو الشيطان بقيروانه الى السوق . وقيروان معربة عن كاروان معناها القافلة .

اما المفردات العربية التي استخدمها الفرس في لغتهم ، فقد كانت في كل باب . اذ انهم اخذوا :

ـ مفردات دينية : زكاة . حج . مسلم . مؤمن . كافر . منافق . فاسق . حنث . خبيث . قرءان . اقامة . تيمم . متعة . طلاق . زواج . قبلة محراب . منارة . ابليس ـ زقوم . سلسبيل . حلال . حرام . بركة .

ـ ومفردات في الادارة والسياسة : خليفة . ملك . امير . وزير . حاجب . قاض . غلط . خطا . عارية . نصح . فضيحة . جلاد . سياف . مستخدم

ـ ومفردات الدواوين : كتاب . حبر . قلم . مداد . خط . درس . فصل . باب . الاعداد حتى العشرة .

ـ ومفردات الالبسة : جبة . ازار . لحاف . مخدة . طراز . رداء .

ـ ومن اسماء الاطيار : فاختة . قمري . بلبل . لقلق . غراب .

ـ ومن اسماء ادوات الزينة : حناء . غالية . بخور .

ـ ومن اسماء البلاد والافلاك : بلد . صحراء . طبيعة . بركة . حوض . سهيل . فلك . مشرق . مغرب . شمال . جنوب . طالع . صبا : دبور .

ـ ومن اسماء اصحاب المهن : خياط . قصاب . بيطار . بقال . صراف . دلال .

ـ واسماء خاصة بالاطعمة واللهو : قمار . سفرة . قنينة . شراب . خمرة . غذاء . حلواء . هريسة . قطائف . قلية . نقل .

ـ واسماء في الحرب : حرب . جهاد . علم . طبل . عرادة . منجنيق . ركاب . لواء . نصل . دبوس . حربة . حلقة . قفل .

ـ واوصافها : نبيل . لطيف . ظريف . عاشق . شاعر . كاتب . وفاء . احمق . جاهل .

ـ كما اخذوا تراكيب وافعالا ، واعتبروها بشكل مفرد :

سرحدات : راس الحدود . فهميدم : فهمت (من الفهم) .

مرد لا ابالي : رجل مهمل . زمين لا يزرع : ارض لا يمكن زرعها . بالاضافة الى عشرات المفردات التاريخية . وعشرات المفردات الجغرافية ، وكذلك الطبية والفلكية . واذا طالعنا نثرا او شعرا فارسيا وجدنا ان النسبة المائوية للمفردات العربية تبلغ احيانا 45 او 50 ٪ ، واذا سعى الاديب ان يقل من الالفاظ العربية ، فانه لا يمكنه ان يستغني عن 20 ٪ من المفردات العربية .

والجدير بالملاحظة ان اغلب الالفاظ العربية التي دخلت الفارسية بقيت محفوظة على شكلها الذي اخذوه لعدم وجود الاشتقاق عندهم ، اما اللفظة الفارسية التي دخلت العربية فانها صهرت بالعربية واشتقوا منها حتى ضاع اصلها على المطالع . وربما قيض الله يوما لائمة اللغة من الامتين تجمعهم حمية العلم وفريضة الادب ليتحلقوا حول الدواوين والمعجمات سنوات ليصفوا ما لنا وما علينا ، وما احسب ان الامر يسير ، لما حدث من تلاحم واندماج ، بل لما هنالك من تشابهات وصدف . وهل اخذت اللفظة من العربية ام من العبرية ام من السريانية . ومن ناحية ثانية هل

اخذت من البهلوية ام السنسكريتية ام الفارسية الدرية ؟ .

ملاحظة اخرى جديرة بالانتباة تدل على **مدى التبادل اللغوي بين الامتين** . ذلك ان **العرب استخدموا اسماء فارسية لمسميات ، في حين ان الفرس استخدموا اسماءها العربية** . وقد حصل هذا في العصر الحديث خاصة :

فنحن نقول روزنامة ومعناها (كتاب اليوم) والفرس يستخدمون (تقويم)

ونحن نقول كهرباء ومعناها (جاذب القش) والفرس يستخدمون (برق)

ونحن نقول دستور ومعناها (قانون) والفرس يستخدمون (قانون)

ونحن نقول اركيلة ـ نارکيلة ومعناها (جوز الهند) والفرس يستخدمون (غليان)

ونحن نقول كنار ومعناها (طرف) والفرس يستخدمون (حاشية)

ونحن نقول كاسة ومعناها (زبدية) والفرس يستخدمون (باطية)

ونحن نقول دستور ومعناها (القانون الاساسي) والفرس يستخدمون (مشروطة)

ونحن نقول شرشف ومعناها (غطاء الليل) والفرس يستخدمون (ملاءة اي ملحفة)

ونحن نقول خرضة ومعناها (القراضة والاشياء الدقيقة) والفرس يستخدمون (خرزة)

ونحن نقول بخشيش ومعناها (الانعام) والفرس يستخدمون (انعام)

وقد اخذ العرب اسماء فارسية وتسموا بها مثل : قابوس وهو معرب عن (كاووس) . وقد لقب بها النعمان بن المنذر . ومن النساء دختنوش ، وهو اسم بنت لقيط بن زرارة وهو معرب عن (دخت نوش) .

كما اننا نلاحظ وجود **مدن عربية اسماؤها فارسية** مثل : بغداد ومعناها اعطى الصنم او الله المعطي . البصرة ومعناها بعد الطريق وكانت (بس راه) . الانبار ومعناها المخزن ثم حورت الى عنبر . القيروان ومعناها القافلة . ونجد عددا من القرى والنواحي حول دمشق اسماؤها فارسية مثل : مزة ، كيوان ، برامكة ، بلودان . زبداني . جرجانية . وقد تكون هذه التسميات اطلقها النازحون من بلاد فارس الى بلاد الشام .

وقد استعملنا اعلاما فارسية حديثة مثل : شيرين . مهتاب . شهرزاد . شهناز . سوزان . كيتي . مهيار . فرهود . جهان . فرزان . وقد تكون هذه الاسماء اسماء غلمان وجوار وقد نكون استخدمناها تحببا برقتها .

واذا دخلت الاعلام الفارسية . فان **اغلب اسماء الفرس كانت عربية او مركبة مع العربية** . فقد تاثرت الاعلام الفارسية بالاسلام فاستقوا من الدين الاسلامي ، ومن المذهب الجعفري خاصة هذه الاعلام . فمنها : خير الله . شكر الله . وقد تكون هذه الاعلام غير مستعملة عند العرب مثل : ذبيح الله ، قدرة الله ، يد الله . وقد يركب العلم من كلمة فارسية وكلمة عربية مثل : خدا مراد . خدا رحم . خدا كرم . وقد يستخدمون اسماء الانبياء واسماء ءال البيت مثل : عبد . محمد . عبد الرسول . عبد النبي . وقد يتغير اسم محمد الى ممد ، واسم محمد علي الى ممد لي . ويسمون كلثوم فيقولون لها كرسوم .

ثم هناك : علي . حسن . حسين . باقر . صادق . اصغر . كاظم . رضا . تقي . نقي . وقد يحرفون بعضها فيقولون لزين العابدين زينل او زنيل لابدين . وقد يركبونها او يدخلون عليها لفظة (عبد) : عبد الحسين . على اصغر . عبد الرضا . غلامحسين . غلامعلي . كما ادخلوا عليها اسماء الاشهر الهجرية فقالوا : صفر علي . رجب علي . رمضان حسين .

وقد **تاثرنا باعيادهم التقليدية القديمة** ، واهمها النوروز والمهرجان . وبالرغم من ان الامويين لم يتعمدوا التاثر بالاعياد الفارسية . فانها اخذت تتسرب الى العرب بدون استئذان ، حتى اذا كان العصر العباسي نقلوا الينا الكثير من عاداتهم ، والتي كان لها النفع الكبير لمحبي اللهو والطرب ، والاثر في الادب العربي .

ونوروز ومعناها اليوم الجديد اي عيد راس السنة ، ويأتي في 21 ءاذار من كل عام ، ويعتبر اول الربيع ، وهو اعظم اعيادهم . اما المهرجان ولفظه الفارسي مهركان ، فهو عيد الخريف ، ويبدأ في اول الخريف ، واوله 23 ايلول . واهم امر في هذين

العيدين اهداء الملابس والاموال الى الشعب وتقديم الاطعمة المنوعة . يحكى انه قدم لسيدنا علي كرم الله وجهم طعام فارسي ، فاحبه وسأل : ما هذا ؟ قالوا : هو النوروز . فقال : نورزونا كل يوم . كما يحكى ان الحجاج اول من رسم هدايا النوروز والمهرجان في الاسلام ، وابطلها عمر بن عبد العزيز . وشاعت في العصر العباسي اذ كان الامراء يوزعون البستهم على حاشيتهم ، كما كان يفعل الاكاسرة . وصار من الشائع ان نسمع عن النوروز في الشعر ، كما في قول البحتري وهو يصف الربيع :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد ان يتكلما

وقد نبه النيروز في غسق الدجى
اوائل ورد كن بالامس نوما

وقد مدح المتنبي ابن العميد وهو يهنئه بعيد النوروز بقوله :

جاء نوروزنا وانت مراده
وورت بالذى اراد زناده

عظمته ممالك الفرس حتى
كل ايام عامه حساده

ووصف ابن الرومي عيد المهرجان حينما هنأ عبيد الله بن عبد الله به فقال :

ما رات مثل مهرجانك عينا
اردشير ولا انو شروان

مهرجان كانما صورته
كيف شاءت مخيرات الامانى

اما **الحركة الادبية فقد حصل فيها تبادل تام بين الامتين** : ولكن هذه الصلة وهذا التبادل يقل ظهورهما في الجاهلية ، الا ما ذكرنا من الفاظ وصور. واذا بقي الشعر الجاهلي الى اليوم واستطعنا تمييز ما اقتبسوه من الفرس ، فان الادب الفارسي ضاع قبل الاسلام ، فلم نعد نعرف بماذا تأثر العرب وبماذا اثر العرب .

على اننا عندما نقول الادب الفارسي فانما نعني الادب الذى يظهر بعد الاسلام ، وبعد ان ترعرع ونشأ في حقل الادب العربي ، وبعد ان غذته اللغة العربية والثقافة الاسلامية بجملها وتراكيبها وامثالها واساليبها وبلاغتها .

واذا طالعنا **كتبهم الادبية وجدناها زاخرة بالاقاصيص العربية والحكايات الشهيرة** كحكايات حاتم الطائي ولقمان الحكيم وقيس وليلى . ومن اهم هذه الكتب : كلستان . بوستان . منطق الطير . قابوسنامه . كما انهم اقتبسوا من القرءان والحديث وقصائد الشعراء المشهورين كالمتنبي والمعري ، وكذلك تاثروا بالمقامات . والفوا على منوالها في القرن السادس الهجري . على انهم اذا بداوا مقلدين لمذاهب واغراض الادب والشعر فانهم ما لبثوا ان تخطوا مراحل تجديدية ومبتكرة لدرجة انروا فيها بالادب العربي والهندي والتركي .

اما **الادب العربي فقد تاثر بدوره بالادب الفارسي وثقافته** ، ذلك ان **كثيرا ممن دخلوا في الاسلام اضطروا الى تعلم اللغة العربية** ، وسرعان ما ظهر منهم ومن نسلهم **كتاب وشعراء بالعربية** في حين ان نطقهم للحروف العربية لم يكن سليما — في بادىء الامر — ومن اقدم هؤلاء : زياد الاعجم ، اسماعيل بن يسار النسائي . ابو العباس الاعمى . موسى شهوات. فهؤلاء وغيرهم نشاوا نشأة فارسية، وتادبوا بالاداب الفارسية ثم صاغوا ادبهم بالقالب العربي فاحكموا التقليد اذ ان الفاظهم عربية وتراكيبهم عربية واوزانهم عربية ، وكان الخيال الفارسي ، والروح الفارسية ، والمعاني الفارسية بادية في شعرهم العربي الذى يصوغونه .

وعندما كان الشاعر الفارسي يفخر بقومه على العرب ، كان يستوحي من تراث اجداده ما يقدر ويتخيل ما كانوا فيعرضه بشكل تفاخر ، كقول اسماعيل :

رب خال متوج لي وعم
ما جد مجتدى كريم النصاب

انما سمي الفوارس بالفر
س ، مضاهاة رفعة الانساب

فاتركي الفخر يا امام علينا
واتركي الجور وانطقي بالصواب

واسالي — ان جهلت — عنا وعنكم
كيف كنا في سالف الاحقاب

اذ نربي بناتنا وتدسو
ن سفاها بناتكم في التراب

وكان اشعب في السامعين ، فقال له : صدقت والله ، اراد العرب بناتهم لغير ما اردتموهن له . قال

اسماعيل : وما ذلك ؟ . قال الشعب : دفن العرب بناتهم خوفا من العار ، وربيتموهن لتنكحوهن ، (ويقصد انهم كانوا يتزوجون بناتهم) . فضحك القوم وخجل اسماعيل .

ومع قلة ما وصلنا ، فقد استفاد من ذلك الادب قدماؤنا فكثيرا ما يقول ابن قتيبة في عيون الاخبار: وفي كتب العجم كذا ، وقرات كتاب ابرويز الى ابنه شيرويه . وكثيرا ما ينقل صاحب التاج اشياء عن اخلاق ملوك الفرس وعاداتهم وكتبهم .

كما ان كثيرا من الشعراء والادباء من العرب كانوا ينزلون فارس او العراق ، ويخالطون اهله ، ويرون مدنيته ، ويكون لذلك اثر في ادبهم وفي شعرهم . فقد نزل الطرماح وابو النجم الراجز وجرير والفرزدق العراق ، وابو تمام والمتنبي فارس. وقد كان الفرس شديدي الاعجاب بالشعر العربي فكانوا يتوخون محاكاته في كل اشكاله واغراضه .

فالموضوعات التي نظموا فيها ، بعضها تابع لموضوعات العرب **كالمديح والفخر والهجاء والغزل والرثاء والوصف والحكمة** ، وتفوقوا في **موضوعات الحماسة والقصص ووصف الطبيعة** . وقد قلدوا العرب في وصف الاطلال مع انه عربي خالص كالشاعر منوجهري في القرن الخامس الهجري وهو اول من قلد الاطلال . كما قلدوهم في بكاء الديار والآثار كما فعل خاقاني في وصف ايوان كسرى الذي سبقه البحتري بقرون في وصفه . وكذا بكى حميد الدين البلخي مدينة بلخ عندما خربها الغز سنة 548 هـ . كما انهم غالوا في الموضوعات الشعرية التي اخذوها من العرب كالمديح والخمرة والغزل . وبرعوا في الشعر القصصي، وتجلت براعتهم في نظر الفردوسي للشاهنامة التي يزيد عدد ابياتها على خمس وخمسين الفا من الابيات على بحر واحد هو المتقارب . ثم هناك يوسف وزليخا ، خسرو وشيرين ، ليلى والمجنون .

والتصوف من الموضوعات التي تاثر العرب بها واهم الشعراء المتصوفين الفرس جلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي . اما الاوزان والقوافي فقد نشا العروض الفارسي في احضان العروض العربي وفي دوائره وبحوره واصطلاحاته وقوافيه . الا ان الفرس غايروا بعض الاوزان العربية لانها اكثر طواعية للغتهم واقرب الى انطباعهم ، واضافوا ثلاثة ابحر وهجروا بعضها ، واكثروا من المثنوي اي الشعر مزدوج القافية بين الشطرين . كما اخترعوا الرباعيات ونظموا بها قبل الخيام وقبل العرب . وخالفوا الموشحات العربية بموشحات سموها ترجيع بند منذ اوائل القرن الخامس الهجري .

ومن الشعراء العرب الذين تاثروا بالصور الفارسية : الكميت . المتنابي . الفرزدق . البحتري ابو تمام . المتنبي . المعري . وتورد بعض الكتب الادبية قطعا وابياتا تشير الى انها مقتبسة عن الشعر الفارسي كالبيان والتبيين للجاحظ ، ويتيمة الدهر لابن قتيبة ودمية القصر للباخرزي . على ان المجال الضيق لايسمح لنا باستعراض نماذج من ذلك. ونذكر ان ابا نواس له قصائد فارسية لا يعرفها الادباء العرب ، سميناها (فارسيات ابي نواس) .

وما يقال عن الادب والشعر والعروض يقال عن البلاغة ، فقد كانت **قواعد الاسلوب الادبي الفارسي مطابقة تماما لقواعد الاسلوب العربي** من حيث الايجاز والاطناب والتشبيهات والاستعارات . كما ظهر نوع من الشعراء زادوا من التبادل الثقافي ، لانهم نظموا باللغتين فسموا (ذو يالسانين) .

ويحسن ان اتوقف لحظات عند الخمرة والغزل المكشوف قبل ان اختم الموضوعات الشعرية . فالخمرة كانت معروفة في الجاهلية ، تاجروا بها ، وشربوها ، وحرمها القرءان ، ووصفها الشعراء . وازدادت مع الزمان حتى بلغت اوجها في الاتساع والجراة في العصر العباسي . وعلى هذا فالشعراء العرب الذين وصفوا الخمرة لم يقتبسوا من الشعراء الفرس لسبب بسيط هو ان ميلاد الشعر الفارسي لم يبدا قبل اواخر القرن الثالث الهجري ، ونعلم ان الاخطل وبشارا وابا نواس ومن لف لفهم عاشوا وماتوا قبل ذلك بكثير . ولكننا نقول ان الترف الذي عرفه العرب عند تماسهم بالفرس فسح الطريق لمثل هذا اللهو اكثر .

والغزل المكشوف كان معروفا كذلك عند امريء القيس والنابغة والاعشى منذ الجاهلية ، وعند الاخطل وعمر والوليد وغيرهم في العصر الاموي . وبزداد الغزل المكشوف حرية حتى يبلغ العصر العباسي عند بشار وابي نواس واسماعيل بن يسار وغيرهم . ولم يتاثر الشعراء العرب بالغزل الفارسي للسبب الذي ذكرناه في الخمرة، ولكنهم تاثروا بالحضارة الفارسية التي زادت من جهة هذه الجراة في الكشف . اما الغزل الغلامي فالجاهلية لم تعرفه

ولا القرن الاول ، ولكن جاء به الترف والحضارة الجديدة وكثرة الغلمان والسقاة . على ان الفرس ليس عندهم ضمير خاص بالمؤنث وضمير خاص بالمذكر ، فالضمير لكليهما واحد ، وكذا الامر في المخاطب والمخاطبة واسم الاشارة ، لذا فاذا نادى الفارسي لم يعرف السامع هل المنادى مذكر ام مؤنث، على ان هذا ليس دفاعا عن الفرس فهذا هو الواقع ، كما ان الفرس لم يقولوا الشعر قبل رواج الغزل الغلامي ، وبعدئذ برعوا فيه ، انما الحضارة وكثرة الغلمان والترف هي التي ساقت الشاعر والحياة الى هذا اللون من الغزل . وجدير بالملاحظة ان العرب في الطرف الغربي من الامبراطورية العربية لم يفعلوا فعل الشرقيين في الغزل المكشوف والغزل الغلامي .

وما يقال عن كل ما مضى من تبادل في التاثر والتاثير نقوله عن القصص والحكايات ، فقد تاثرنا باساطيرهم وحكاياتهم واثرنا بهم في حكاياتنا وقصص قرءاننا . وكذا استفاد الفرس من الامثلة العربية ، كما استفاد العرب من الامثال الفارسية .

وتعتبر العقائد من اكثر الامور تاثيرا في الامم وفي ءادابها . فقد عرف العرب في الجاهلية الزردشتية وهي المجوسية ، والمانوية ، والمزدكية . وقد تجلى ذلك بتقديس العرب للنار المقدسة عند المجوس بحلفهم بها وبوصفها ، كما عبد بعض العرب الشمس وهي من عناصر الطبيعة التي عبدها الفرس والشرق ، وبدا كل ذلك في شعرهم . ونجد بقايا ذلك في اشعار الشعراء بعد الاسلام كبشار والمعري والمتنبي وابي تمام . ولا ادل على تاثرهم بالاديان الفارسية من قول ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ، عند كلامه على اديان العرب في الجاهلية : « وكانت النصرانية في ربيعة وغسان ، وبعض قضاعة . وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث ابن كعب وكنده ، وكانت المجوسية في تميم ، وكانت الزندقة في قريش . اخذوها عن الحيرة » . وقد رفض المنذر الثالث اعتناق المزدكية فعزله قباذ وعين مكانه الحارث ابن عمرو امير كندة بعد ان اعتنق المزدكية .

وقد تاثر الاسلام بالزردشتية كما يقول احمد امين بعقيدة العامة من المسلمين في بعض الامور ، كما تاثرت المعتزلة بمسالة الجبر والاختيار . ومن الجدير بالذكر ان الاعاجم عندما دخلوا الاسلام كانوا على دين خاص ورثوه عن اجدادهم ، ولم تمح من مخيلتهم هلائم دينهم القديم فاضافوها على ما يتعلمونه من الدين الاسلامي .

ووجود الزندقة ، وبقايا المجوسية خلق حركة فكرية ومعركة ادبية جديدة ممثلة في مدارس علماء الكلام واهمهم المعتزلة . وقد الفوا الكتب ضد هؤلاء الزنادقة ، ونظم الشعراء القصائد في الرد عليهم او مشاركتهم ءاراءهم . ومن اهم من الف في هذا المضمار واصل بن عطاء في كتابه (الالف مسالة) للرد على المانوية . والجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) .

ورغم كل ذلك فقد ازال العرب من ارض فارس تلك الديانات التي وزعتهم فرقا ، وشتتتهم مزقا ، فجمعتهم تحت راية التوحيد ، الطاهرة ، وحررتهم من النظم الاجتماعية والطبقة الفاسدة .

وقد تبع هذه الحركة الفكرية ، حركة ادبية قريبة الشبه منها وفي مسالة تفاخر الموالي على العرب ، ورد العرب مزاعم الموالي الشعوبيين . ومهما كانت النتائج ونوعية الخصام فقد نتج عن ذلك تبادل ثقافي تام الاركان فيه التاريخ والفلسفة ، وفيه الشعر والنثر ، وفيه التاليف الواسعة ، والاطلاع على الفلسفة . ومهما غشت هذه الحركة من مزاعم يشوبها الخطا ، فان نتيجتها الادبية والفكرية الجديدة واقعة على الادبين العربي والفارسي على السواء .

ولقد كانت حركة المناواة شديدة في العصر الاموي، وتضعف الحدة ويتسع نطاقها الادبي كلما دنونا من العصر العباسي او خطونا فيه . ولقد شرقت قصور الخلفاء العباسيين بالموالي رجالا ونساء وغلمانا وغصت الجيوش بهم .

واذا كان الموالي يتخوفون من الرد على الشعراء العرب في العصر الاموي فانهم لم يتورعوا عن التفاخر بجدودهم امام خلفاء العصر العباسي ، وها هو الشاعر المتوكلي ، شاعر المتوكل ونديمه يقول :

انا ابن المكارم من نسل جم
وحائز ارث ملوك العجم

ومحيي الذي باد من عزهم
وعفى عليه طول القدم

الى ان يقول :

فعودا الى ارضكم بالحجاز
لاكل الضباب ورعي الغنم

فاني ساعلو سريـــر الملـــوك
بحد الحســـام وحـــرف القـــلم

ويتهجم ابو نواس على العرب بوسيلة اخرى ، هي تهكمه الكثير بطريقة العرب في التقديم لقصائدهم بالغزل وبكاء الاطلال ، ودعوته الملحة الى بدء القصائد بالخمريات . ولا يمكننا ـ كعرب ـ ان نعتبره تجديدا في الادب لان ابا نواس احاط رغبته هذه بالسخرية والوضع من قواعد الشعر العربية ، وقد كان يستطيع ان يجدد بغير تندر ، كما في قوله :

عاج الشقي على دار يسائلها
وعجبت اسال عن خمارة البلـد

دع ذا ، عدمتك ، واشربها معتقة
صفراء تعتق بين الماء والزبـد

كم بين من يشتري خمرا يلذ بها
وبين باك على نـؤى ومنتضـد

اما التجديد الحق ، فهو الذي قام به المتنبي، حينما عجب من الشعراء المتكلفين للحب ، اذا افتتحوا مدائحهم بالغزل ، فقال صادقا :

اذا كان مدح فالنسيب المقـدم
اكل فصيح قال شعرا متيـم ؟

لحب ابن عبد الله اولـى فانـه
به يبدأ الذكر الجميـل ويختـم

على ان الامر لم يقف في هذه المعركة على الشعر بل انبرى الطرفان بتاليف كتب في هذا المضمـار. فمن الكتب التي الفت انتصارا للشعوبيين من الموالي:

ـ فضل العجم على العرب وانتصار العجم من العرب . تاليف : سعيد بن حميد البختكان .

ـ ادعياء العرب . لصوص العرب . فضائـل الفرس . تاليف : ابي عبيدة معمر ابن المثنى .

ـ المثالب . تاليف : علان الفارسي . المثالب الكبير والمثالب الصغير. تاليف : الهيثم بن عدي .

ومن الخير للطرفين ان هذه الكتب فقـدت ، ولم يبق بين ايدينا الا الاسـم ، والا النـزر القليـل منتشرة في كتب الادب وعيون اخبارها . ومن اهم الكتب التي ردت على مزاعمهم :

ـ العرب ـ لابن قتيبـة . البيـان والتبيـين للجاحظ .

وقد امتدت حركة الشعوبية الى ارض الاندلس بلون ءاخر ، فقد الف ابن فرسية رسالة في التهجـم على العرب ، فرد عليه عدد من الادباء منهم : يحيى ابن مسعدة وابو جعفر احمد البلنسي .

كما ان الموالي ناهضوا افكارهم بتلفيق احاديث مكذوبة على لسان النبي (صلى الله عليه وسلم) . من ذلك : لا تسبوا فارسيا ، فما سبه احد الا انتقم منه عاجلا او ءاجلا » . كذلك اخترع العرب احاديث ترفع من قيمة العرب وتحط بالعجم ، من ذلـك : « من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ، ولم تنلـه مودتي » . على ان هذه الحركة لم تنفع التبادل الثقافي ولم تنفع الحركات الادبية بل ضرتها . كما ان انتصار الموالي للرواة الفرس كابي عبيدة، وانتصـار العرب للرواة العرب كالاصمعي لم يات بالنفع بـل اتى بالضرر . ومن اجمـل الـردود على مزاعمهـم الشعوبية قول المتنبي :

وانمـا النـاس بالملـوك ومـا
تفلـح عـرب ملوكهـا عـجـم

لا ادب عنـدهـم ولا حسـب
ولا عهـــود لهـم ولا ذمـــم

اما الحكم والامثال : فالانسان مع انه يغمـض عينيه اذا سمع حكمة فانه ينصت اليها ويميل الى الاستفادة منها والاستشهاد بها . ولقد كان للفـرس اثر كبير في الاخلاق الساميـة والآداب من ناحيـة حكمهم . ذلك ان الاخلاق الاسلاميـة تاثرت بثلاثـة مؤثرات :

1 ـ بالتعاليم الدينية التي وردت في القرءان والاثر ، ومن الانجيل والتوراة .

2 ـ بالفلسفة اليونانية التي نقلت في العصـر العباسي .

3 ـ وثالثا بحكم واقاسيص الفرس او ما نقل بواسطتهم عن الهندية ، بما نقل عن الملوك والوزراء ورجال الاديان الفارسية ووعاظهم . وقد ملئت كتب الادب بها، ومن اهم الكتب التي ملئت بامثـال هـذه الحكم، عيون الاخبار، سراج الملوك ، وكتب الجاحظ وابي حيان . العقد الفريد.

ومن جملة الامثال الفارسية التي عرفها العرب واستخدموها :

ـ اذا جاء البعير حام حول البير .

ـ سألوا الثعاب اين شاهدك ؟ قال : ذنبي .

ـ احذروا صولة الكريم اذا جاع ، واللئيم اذا شبـــع .

ـ اذا اردت ان يقبل قولك فصحح رايـك ولا تشوبنه بشيء من الهوى . فان الراي الصحيح يقبله منك العدو ، والهوى يرده عنك الولد والصديق .

ـ اذا كلمك الوالـي فاصـغ الى كلامـه ، ولا تشغل طرفك عنه بنظرة الى غيره ، ولا اطرافك بعمل ولا قلبك بحديث نفسي .

ـ استح الحياء كله من ان تخبر صاحبك انك عالم وانه جاهل ، مصرحا او معرضا. الى غير ذلك مما تزخر به كتب الادب والحكم .

على ان **الفرس اخذوا حكمهم كذلك من القرءان والحديث ومن حكم حاتم ولقمان والمتنبـي والمعـري** وغيرهم واستفادوا منها بعد الاسلام .

ومن اهم الامـور التـي ادخلت العربيـة في الفارسية ، والفارسية في العربيـة **التـــرف** ، والجواري خاصة من اسباب الترف . فلقد ادخـل نظام التسري الى الاسر العربيـة عادات وتقاليـد والوانا من الامور الاجتماعية ، وفنونا وموسيقا مـا كانت معروفة عندهم انما جاء بها هؤلاء الجواري من بلادهم .

ولقد كان العربي يشتري القينة لفن تجيده ، والشعراء كان عندهم قينات ، وافرموا بهن وعرفوا منهن اسماء الآلات الموسيقية والازهـار ورقة الغناء والوان الطعام . كان كل ذلك ينابيع للشعراء علـى تاوين شعرهم وتطعيمه باوصاف وتشبيهات لم تكن عربية . واذا استهجن الأمويون ابناء الاماء فان اغلب امهات الخلفاء العباسيين كن اماء وقينات فارسيات وغير فارسيات .

وختاما لحديثي ، انه لمن الخطا والغلو ـ كمـا يقول احمد امين ـ أن نعتبر ان العرب كانوا بمعـزل عما حولهم من الثقافات والاديـان ، وان آراءهـم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية ، من غير ان تغذى بغيرها.

فقد راينا انهم ـ حتى في جاهليتهم ـ لم يكونوا بمعزل ، وانهم كانوا بعد الاسلام اكثر اتصالا والتحاما وعلاقة . ولا يقدح التبادل الثقافي اية امة ، فالعلـم ملك شائع ومرفق مباح يغترف منه الناس جميعا ، وليس له حدود فاصلة كالتي ترسمها السياسات ، وانما الذي يقدح في الامة حقا ان تغمض عيونهـا ، وتسد ءاذانها عما حولها من نظريات وافكار ، او ان يدفعها التعصب الاعمى ان تنسب لنفسها ما ليس عليها ، وتعزو اليها خلق ما لم تخلق ، وابتداع ما لم تبتدع . كما على الامة أن تبحث عن تراثها، ولا تتهاون فيه ، وتحافظ عليه ، فهو الذخيرة الدسمة والمجـد الاثيل الذي عليها ان تبقى عليه .

ولشدة الارتباط الوثيـق بيـن الادب العربـي والادب الفارسي الاسلامي في العصر العباسي غـدا لزاما على دارسي الادب العربـي من الفـرس دراسة الخطوط العريضة على الاقل للادب العربي ، واصبح من الضروري لفهم الادب العباسي العربي تفهم الثقافة العربية التي كانت مفرغة من ارض الجزيرة العربية شرقها وغربها ، او مستقاة من الامم المجاورة ودراسة تطور الادب الفارسي لمعرفة الجديد في ادبنا والجديد في ادبهم .

لغة البادية

الأستاذ عبدالله بن خميس
«الرياض»

البادية خلاف الحاضرة ، وجمعها بـــوادي ، وتسمى بداوة بالكسر ، والنسبة اليها : بـــداوي ، بالفتح والكسر ، وبدوي أيضا .

وهي من بدا اذا نشأ ، أو اذا ظهر وبرز . وهو الارجح ، لبروز البادية في الفيافي والقفار ..

والبادية هم سكان الوبر ، الذين يتتبعـــون مساقط الغيث ، ويطلبون الكلأ والمرعى لماشيتهم ، ولا يستقر بهم القرار في مكان معين ، الا في فصـــل الصيف حيث يقطنون المناهل ، ويدنون من المياه . والبادية هي اصل العرب ، وسكان جزيرتهم الاولون ، وسفر لغتهم المعتمد ، منها تكونت الحواضر ، واليها ترجع الارومات الاصيلة ، ومنها تفرعت الشعـــوب والقبائل ..

وهي في الجاهلية رمز العرب ، ووجههم الامثل، وفي الاسلام ـــ كما قال عمر ـــ اصل العرب ومـــادة الاسلام . صريح اللغة ومصيحها مصدره البادية ، وعادات العرب الكريمة، وتقاليدهم الاصيلة، ومميزاتهم الاثيرة .. مصدرها البادية ، والشعراء المقاويـــل ، والخطباء المصاقع ، والمتكلمون اللسن .. اعلامهـــم ، ومبرزوهم ، من البادية .. لم تفسد الحضارة سجنهم ، ولم تلن السنتهم ولم تغمز لهم صعدة ، ولم تقل لهم حد .. يتكلمون بالسليقة والفطرة ، فتفتر شفاههم عن قول فصل ، وكلام جزل ، وبيان سليم مستقيم .. يصدر عن طبع أبي ، وخاطر ذكي ، ولسان ذرب طلق ..

هذه الصفات دفعـــت بالامراء ، والرؤســـاء والخلفاء ، وعلية القوم ، وذواتهم .. ان يبعثوا بابنائهم الى البادية ، المدرسة الاولى لتربية اصيلة ، تعطـــي الشاب الى جانب الرشاقة ، وبناء الجسم بناء رياضيا متينا ، وتكوينا متكاملا فارها .. تعطيه قوة الشخصية، واستحصاد الراي ، ونفاذ الارادة ، ومصادر الشجاعة والدربة ، وسلامة المنطق ، وقوة العارضة ..

قال بعض الاعراب : نحن امراء الكلام ، فينـــا وشجت عروقه ، وعلينا تدلت غصونه ، فنحن نجني منها ما احلولى وعذب ، ونترك ما املوح وخبث ..

وقال الجاحظ : ليس في الارض كلام هو امتع ، ولا انفع ، ولا آنق ، في الاسماع ، ولا اقود للطباع ، ولا افتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان .. من كـــلام الاعراب الفصحاء العقلاء .

ووصفهم الحارث بن كلدة امام كسرى فقـــال : لهم انفس سخية ، وقلوب جرية ، وعقول صحيحة ، وانساب صريحة يمرق الكلام من افواههم مـــروق السهم من الرمية ، اعذب من الماء ، وارق من الهواء يطعمون الطعام ، ويضربون الهام ، وعزهم لا يرام ، وجارهم لا يضام .. ووصف احدهم امراة فقال : كاد الغزال يكونها ، لولا ما نقص منه وتم منها .

واوجز احدهم قصيدة كاملة في جملة مقتضبـــة فقال : سبقنا الحي ، وفيهم ادوية السقام ، فقران بالحدق السلام ، وخرست الالسن عن الكلام ..

في هذه البيئة المتابية ، واللغة الصريحة .. تربى سيد العرب عليه السلام ، وتربى اعلام الخلافة ، وكبراء القادة ، ونبلاء المجتمع الاسلامي .. ولم يكن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، من ثقفته البادية ، واصلحت لسانه ، فكان لحنة ، وظل لحنه وصمة عار في تاريخه . قال ابوه : اضر بالوليد حبنا له حيث لم نبعثه الى البادية .

خطب الناس يوم عيد فقرأ في خطبته : يا ليتها كانت القاضية بضم تاء ليت . فقال عمر بن عبد العزيز: عليك واراحنا الله منك .

وعن البادية اخذ علماء اللغة فصيحها ، ومتوحها ، وتعلموا في اختيار الافصح ، والا بعد عن الحواضر ، ومجاورة الاعاجم .. فعنوا عناية فائقة بما دونوه ، فاخلصوا لغة العرب في صميمها الذين لم ترتضخ لغتهم عجمة ، ولم يخدشها شذوذ ، ولم يداخلها تقصير .. دونوا لغة قريش ، وقيس ، وتميم ، واسد ، وهذيل ، وبعض كنانة ، وبعض طيء ..

وتحاشوا الاخذ من لغة لخم ، وجذام ، وقضاعة، وغسان ، واياد .. لمجاورتهم اهل الشام . وكذلك تحاشوا لغة تغلب ، ويمن الجزيرة ، وبكر ، وعبد القيس ، وازد عمان ، واهل اليمن ، وبني حنيفة ، وثقيف .. لمجاورة بعضهم للفرس ، ولمجاورة الآخرين للاحباش ، ولان بعضهم اهل تجارة ، ونقلة ، واختلاط بمشبوهي اللغة ..

فاخلصوها من تلتلة بهراء ، ومن طمطمانية حمير ، ومن كشكشة ربيعة ، ومن ككة هوازن ، وفحفحة هذيل ، ووكم ربيعة ، ووهم كلب ، وعجعجة قضاعة ، وشنشنة اليمن ووتمها ، وعجرفة ضبة ..

وممن أخذ عن البادية ، ولقيهم في مرابعهم ومراتعهم ، وسمع منهم : يونس بن حبيب الضبي ، وخلف الاحمر ، والخليل بن احمد ، وابو زيد الانصاري ، والاصمعي ، وابو عبيدة ، والكسائي.. وهؤلاء هم من أول من رحل الى البادية واخذ عنها ، وهم من علماء القرن الثاني ..

وكان العلماء في القرن الاول يعتمدون الفطرة ، ويرجعون الى السليقة ، ويستانسون بمن يلقونه من الاعراب ، ولما أوغل العلماء في التحقيق ، وتأنقوا في الاحصاء والاستقصاء ، وبعدت الحواضر الاسلامية عن البادية ، وداخل لغة البادية المجاورين للحواضر ما داخلها .. بدأ عصر الرحلات ، ولقيا الاعراب ..

وكانوا اذا لقوا الاعرابي وشكوا في سلامة لغته ، امتحنوه ، وربما وضعوا له قياسا غير صحيح ، او جمعا غير وارد ، أو لفظا غير فصيح ، فان نطق به ، أو اقره ، طرحوا لغته ، وان أبت سليقته ذلك أخذوا عنه ..

قال الاصمعي : سمعت أبا عمرو يقول : ارتبت بفصاحة اعرابي ، فاردت امتحانه ، فقلت بيتا . والقيته عليه وهو :

كم رأينا من مسحب مسلحب
صار لحم النسور والعقبان

فأفكر فيه ، ثم قال رد على ذكر المسحوب ، حتى قالها مرات : فعلمت ان فصاحته باقية ..

وقال ابن جني : سألت مرة الشجري ـ وهو اعرابي من عقيل ، كانوا يرجعون اليه في اللغة ـ ومعه ابن عم له ، كان دونه في الفصاحة ، وكان اسمه غصنا ـ فقلت لهما : كيف تحتران حمراء ؟ فقالا : حميراء ، ووالله من ذلك احرفا وهما يجيئان بالصواب ، ثم دسست في ذلك علباء ، فقال غصن : عليباء وتبعه الشجري فلما هم بفتح الباء : تراجع كالمدعور ، ثم قال : آه عليبى ..

وقال في موضع آخر : سألته يوما ـ يعني الشجري ـ : كيف تجمع دكانا ؟ فقال دكاكين . قلت : فسرحانا ؟ قال : سراحين .. قلت فعثمان؟ قال : عثمانون ! فقلت له : هلا قلت عثامين ؟ قال : أيش عثامت ؟ أرأيت انسانا يتكلم بما ليس من لغته ؟ .

وهكذا خاطب القرآن هؤلاء القوم ، بمستوى من البيان على غير مثال سبق ، ونهج من التعبير على غير مهيع عرف ، وبلاغة من القول هي المثل الاعلى ، والقول الفصل .. في كل ما تكلمت به أمة الضاد ..

لقد كان ازدهار لغة العرب بين يدي الاسلام برعيل ممتاز من الشعراء المقاويل ، وبصفوة من الخطباء المصاقع ، وبصيارفة من النقاد ، يزنون ما تفيض به قرائح القوم ، وما تجود به خواطرهم .. كانت تلك اليقظة اللغوية ، توطئة بين يدي الاسلام ، وترشيحا للذهن العربي لاستقبال المعجزة المنتظرة .. فكان البيان العربي قبيل ظهور الاسلام ، غاية في الابداع ، ونموذجا حيا في تاريخ اللسان العربي .. والا لما وقعت آية محمد عليه السلام من هؤلاء المقاويل ، موقع الذهول ، ثم الاستسلام ..

لم يكن الاعراب بلغتهم الصافية، وذكائهم الفطري واستعدادهم الذهني .. قوم استماع ولهم فحسب ، بل رشحتهم هذه الصفات ، ليكونوا مرجعا فى تفسير القرآن ، وايضاح غريبه ، وتاصيل لغته ..

سأل عمر بن الخطاب وهو على المنبر جماعة المسجد عن معنى قوله تعالى : او ياخذهم على تخوف. فسكت القوم ثم قام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا التخوف : التنقص . قال عمر : هل تجد له شاهدا من لغة قومك ؟ قال نعم . قال شاعرنا :

تخوف الرحل منها تامكا قـــــردا
كما تخوف عود النبعة السفـــــن

وكان ابن عباس ــ وهو حبر الامة ، وترجمان القرآن ــ يقول : الشعر ديوان العرب ، فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي انزله الله بلغة العـرب ، رجعنا الى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه .

وكان رضي الله عنه يجلس بفناء الكعبة ، ثـــم يكتنفه الناس ، يسالونه عن التفسير ، وثبته مـــن كلام العرب ، وقد استشهد على جواب سؤال واحـد بنيف وتسعين بيتا من الشعر العربي الفصيح .. وهو ما سأله عنه نافع بن الازرق .

وتابى سليقة الأعـراب ان تقبـل ما خـرج عن مقاييسها الفطرية ، او تفهم ما جاءى لسانها . بل ترد كل ما سمعته الى اصوله ..

دخل اعرابي على الوليد بن عبد الملك ــ وقـد اسلفنا انه لحان ــ وكان عنده عمر بن عبد العزيز ، فقال الوليد للاعرابي : من انت بوصل الهمزة ؟ فظـن الاعرابي انه يقول : مننت فقال : المنـة لله ولاميـر المؤمنين . فقال عمر بن عبد العزيز : ان امير المؤمنين يقول لك : من انت ؟ قال : فلان بن فلان . قال الوليد : ما شانك وفتح النون ؟ قال جدري فى وجهي ، ونحج بساقي . فقال عمر بن عبد العزيز : ويحك ان امير المؤمنين يقول : ما شانك وضم النون ؟ قال ظلمنـي ختني . قال الوليد : ومن ختنك وفتح النون ؟ قال : وما سؤالك عن ذلك يا امير المؤمنين حجام عندنـا بالبادية قال عمر : ان امير المومنين يقول لك : من ختنك وضم النون ؟ قال : فلان . وهكذا نـدرك ان البادية مصدر اللغة العربية الاول ، ومعدنها الاصيل ، وهي المرجع فيما اختلف فيه ، حتى فى الفاظ القرآن والسنة .

ورغم ما اصاب الامة العربية من نكبات وهزات، عبر القرون المتتالية ، ورغم ما لحق لغتهـا مـــن انتكاسات ، وعلق بها من أوضـار ، وداخلها من عجمة.. مما جعل المعول فى حفظها ، وبقائها .. على القـرآن الكريم ، وعلى معاجم علمائها البررة .. رغم ذلك كله فقد بقيت البادية الى يومنا هذا ، تعتز بلغتها ، وتدل بلسانها الذرب ، وبيانها الجميل .. ففي هضبة نجد ، ومرتفعات الحجاز ، ومناكب السروات .. قبائل تابت لغتها على الواكـز واللاكـز ، وانفت من اللغـة الحضرية اللينة الملحونة . وهي وان كانت لا تنطق لغة القرآن سليمة مستقيمة، ولا تواكب لغة امرىء القيس، والنابغة ، وزهير .. واضرابهم ، على نحو ما وصل الينا من شعرهم ، الا اننا نجعل فى الحسبان اختلاف اللهجات ، بشكل واضح ، ربما يصل الى استعصاء فهم قبيلة لهجة اخرى فى بعض الاستعمالات والمسميات. ومعلوم ان لغة القرآن حصرت فى لسان قريش .. كما نجعل فى الحسبان ايضا ما هنالك من تسهيل فى الهمز، وتسكين لاواخر الحروف ، وادغام لبعضها فى بعض .. ونحو ذلك مما يكاد يتفق فيه نطق الجميع .. بحيث اذا اجتمع بهم دارس العربية ، واستمع اليهم ينطقون.. ظنهم يرتضخون عجمة موغلة .. واذا تدبر ما يقولون ، وتفهم حقيقة النطق .. تكشفت له حقائق ما كان يظنها باقية فى قومه .. وابرز ما يكون هذا فى بلاد عسير ، وسراة تحطان ، ومنحدرات جبال الجنوب ، وسهول نجـــد ..

فى احدى زياراتي لتلك المناطق ، كنت يومـــا جالسا فى دكان احد الاخوة فى مدينة ابها ، فدخـــل الدكان رجل مؤتزر بازار مصبوغ باللون الاحمر الغامق، ويلف اعلى جسمه ما عدا منكبه الايمن ، وجزءا مـن جنبه ، برداء سمك اغبث ، يشد وسطه على خنجـر مفرطة الطول ، بحزام من الادم ــ هذا الرجل قصير اسمر ، نحيف ، عاري الاشاجع ، تتوقد عينـــاه ، وتريغان نظرهما هنا وهنالك ، مكشوف الراس ، عن لمة منسدلة على مؤخرة رقبته ، مشدودة برباط من الادم ، غارزا فى جوانبها طاقات من اغصان البعيثران والشيح .. فتكلم بما يشبه النقيق ، فهمه صاحب الدكان وانا لم افهمه .. ولما قضى حاجته احب هذا البائع ان يعرفني مكانة هذا من اللغة العربية ، سليقة ، وفطرة، وكان البائع يعرف اهتمامي بمثل ذلك . فاجلسه معنا ، وقال لي تفهم كل ما يقول ، فاخذ يساله عن قبيلته ، وعن ارضه ، وماشيته ، ومن اية الطرق اتى ، وبماذا هبط المدينة.. الخ واذا به يتكلم اللغة العربية الفصيحة،

التي بعضها مهجور الاستعمال ، مودع بطون المعاجم ولولا سرعة نطقه ، وادغام بعض الفاظه ، وترك الهمز في بعضها ، لم يفتني من عربيته الاصيلة شيء..

قلت لصاحبي : ممن هذا ؟ قال : من قبيلة ربيعة. ومعلوم انها ربيعة اليمن لا ربيعة اخت مضر .

اما بادية نجد ، فهم صميم القبائل القحطانية ، والعدنانية . قحطان ، والدواسر ، وسبيع والعجمان، وآل مرة ، وبنو هاجر ، وبنو خالد ، والسهول ، وعتيبة، ومطير، وشمر، وحرب، وعنزة، والقرينية.. وغيرهم من القبائل الضاربة في نجد وما جاورها ، هؤلاء لكل منهم لهجة خاصة به ، من اليسير على العارف ان يلقى فردا لا يعرفه ، ولا يعرف من اية القبائل هو .. وبمجرد مخاطبته يدرك انه من القبيلة الفلانية ..

فمثلا قبيلة شمر ، نشير الى شيء من لهجتها : هي تقلب الهمزة (شيء) الى نون ، فتقول : ما رايت شينا ، وما وجد شين ، وما حظيت بشين .

وهي ايضا تستعمل لفظ (دهج) بمعنى مر ، او الم ، تقول : دهجت المنهل الفلاني : يعني مررت به ، او المت به .

وتستعمل (نهج) بمعنى ذهب ، ومرادفاته ، تقول : نهج فلان : بمعنى ذهب او سافر ، او راح ..

كما ان لهجتهم على مذهب القائل :

ايها السائل عنهم وعني
لست من قيس ولا قيس مني

فهم يحذفون نون الوقاية ، من (عن) و (من) الشاذ حذفها فيهما لغة ، اذا اتصل بها ضمير المتكلم . فيقولون : ليس عليك مني ، بكسر النون فقط . وهل سأل عني بكسر النون فقط وهكذا ..

وهم ايضا يقلبون الهمزة من (ماء) نونا فيقولون: مان :

وباء الجر المتصلة بالضمير يضمونها ، فيقولون: ما به مان : اي ما به ماء .

ويسمون الجدول : سريا ، وهذه موافقة للغة القرآن .

ويسمون السنبل : سبلا

ويسمون المنجل : مخلبا

ويسمون البندقية : بارودا .

وهكذا تتميز لهجتهم ، كما تتميز كل لهجة من اللهجات الاخرى ، عن اختها .. غير انها تلتقي في صميم اللغة وفصيحها .. وتجمع على محاربة الدخيل والشاذ .. ويتفق اهلها على نقد ما تأباه اللغة وتنكره.. ادخل احد الحضريين انفه في حديث في الابل ، بحضرة رجل كبير في بلادنا ، فجاء هذا الواغل بمفرد للابل ، فقال : ما راينا ولا (بلة) واحدة ، فكانت مثار سخرية ، وهمز وغمز ، واستهجان ومعروف ان الابل لا مفرد لجمعها ، وفي لهجتهم : يقال : ابل واحده للمجموعة الواحدة من الابل، وفي المجموعتين من الابل يقال : فلان يملك ابلين . ويقولون اذا تجاوزت الابلين: فلان يملك ثلاث رعايا ، او ثلاث عصي ، فيكنى بالعصا عن الابل . وهكذا .

واسماء اعضاء الناقة ، واجزاء جسمها ، تختلف عن اسماء ذلك . من الفرس ، ومن الشاة ، ومن غيرهما ، وكذا الحال بالنسبة للطير ، والوحش ، وسائر الدواب .. فاذا اعطى حضري ، او مستعرب ، اسما او صفة لجنس من ذلك هو معروف للجنس الثاني، فقد استهدف للنقد، وتعرض للسخرية والهزء..

ونجد ان من يعيش في احضان البادية من الحاضرة ، او يكثر الاحتكاك بالاعراب ، او يعيش في قرى او مواضع تربها البادية .. نجد لغته تتسم بالفحولة ، والجزالة والقوة ..

ولما كان الشعر حليفا للعربي منذ اقدم العصور، تغنى به وفخر ، ووصف وبكى ، ومدح ورثى .. وسلك به شتى المذاهب، وولج شتى الابواب .. ولم يزل كذلكم فما هو شعر بادية اليوم ونحن لا نزال نعترف لهم بسلامة اللغة واصالة المنطق !

رغم ان شعر البادية اليوم يسمى شعرا شعبيا، ويسمى شعرا نبطيا ، ويعيش في عصر فارق فيه شعر السليقة والطبع ، وسلامة اللغة ، منذ ما يزيد على الف سنة ، ولكنه ينزع الى اصله ، ويمت اليه .. تقرؤه على انه شعر شعبي ، ويقرؤه الكل كذلك ، ولكن اذا وقفت عنده وقفة الدارس ، واردت ان تواشج بينه وبين الفصيح ، وجدته يعود اليه ، ويعول في اوزانه ، ورويه وقوافيه ، عليه ، ويلتقي معه في اغراضه ومناحيه ، ويحمل صورا من الجمال، ودقات من الفن ، والموسيقى ، والجرس تطرب وتعجب ..

ان من يتذوق هذا الشعر ، بعد دراسة ورياضة طبع.. يجده ذلك الشعر الفصيح بعينه ، بل يمتاز عليه شعر البادية اليوم ، أو الشعر الشعبي ، بانطلاقه من بيئة عربي اليوم ، ومجتمعه ، وحمله طبع العربي ، وصفته كما خلقه الله ، من غير تحمل ، ولا تعمل ، حيث ينطلق من الخباء ، والمزرعة ، والريف ، والفلاة، والقرية ، والمعسكر . الخ .. أما شعرنا الفصيح اليوم، فهو ابن المدرسة ، أو المدينة المترفة ، أو المجتمع المتحضر ..

تعالوا نستقرىء طاقة من شعر البادية، ونتلمس خلالها صلتها بشعرنا العربي الفصيح :

قال الشاعر الشعبي ما جد القباني :

فما الناس الا من تراب معادن
وما طاب من تلك المعادن طابا

بيت من قصيدةشعبية طويلة، قالها اعرابي فيشملته انطلق فيها عن سجيته، وقرأها كما يقرؤها غير من رواة الشعر الشعبي، ومريديه، بلغة عامية دارجة .. ولكن حينما تعود بهذا البيت الى أصله ، بصفتك دارسا للشعر الفصيح ، ومتذوقا له، الست تجده بيتا موزونا مقفى ، سليم اللغة بكر السبل يرمز الى حكمة نبوية كريمة : الناس معادن كمعادن الذهب والفضة .. الخ.

ثم اقرأ للشاعر نفسه :

نديت على الدنيا شقا لو نديبه
على الدين ما مس النفوس عذاب

يقول نداب في طلب الدنيا ، دأبا لو دأبناه على ديننا ، ما مس نفوسنا عذاب . جرى شاعرنا على لغة من لا يهمز ، وقلب الهمزة ياء ، كما هو شأن الشعر الشعبي .

وللشاعر الشعبي راشد الخلاوي :

ولا يد الا يد الله فوقها
ولا غالب الا له الله غالبه

كل يد مهما تويت فهناك يد أقوى منها ، هي يد الله ، وكل غالب قاهر ، فالله أقوى منه ، وقادر على قهره ودحره .

وله أيضا :

غلي من قديم العمر نفس عزيزة
أعض على عصيانها بالنواجد

منذ نعومة أظفاري ، ونفسي لا تقبل الدون ، ولا ترضى بالهون ، واذا راودتني عصيتها ، وعضضت على عصيانها نواجذي ، فهي عزيزة أبدا ..

وقوله :

مقام الفتى في منصب العز ساعة
ولا ألف عام يصحب الذل صاحبه

فلا بالتمني تبلغ النفس حظها
ولا بالتأني فاز بالصيد طالبه

حياة الفتى هي العز ، ولو لم يكن الا ساعة واحدة ولو عاش ألف عام ، وهو في ذل ، فليست حياة الذل بحياة ..

ثم دعا في البيت الثاني الى العمل ، ورفض التمني ، ودعا الى انتهاز الفرص ، واهتبال الاوقات.. فبئس من كانت بضاعته الاماني ، وتعس من فرط في الفرص واضاعها ..

وقال الشاعر الشعبي ابو حمزة العامري :

نأبى عن الطمع الزهيد نفوسنا
وفروجنا تأبى عن الفحشاء

نفوسنا أبية لا تقودها المطامع الى ذلة ، وفروجنا عفة لا تستهويها الفحشاء .. ونعم الصفات صفاتهم .

وقال بركات الشريف :

فلا تعد تعدلاني لاني من وقوفي بربعها
فمن قبلكم خالفت بالنصح عذالي

أروم الامور العاليات بهمة
ويمنعني خذلان قومي واقلالي

وجزت فجاج الارض شرقا ومغربا
على كل عيس تقطع البيد مرقال

وليس يلام المرء بعد اجتهاده
ولا يدفع المقدور حيلات محتال

الى ان قال مادحـــا :

فتى لا يرى الامـــوال الا ودائعـــا
لديه سوى سيف ورمح وسربـــال

وعدة بولاد ولدن مـــن القنـــا
وصقرا علنداة من الخيل مصهـــال

الستم معي في ان هذا الشعر الى جانب كونه صحيحا فصيحا ، فهو يحمل صورا حية من الجمال ، ولفتات بارزة من المعاني الشعرية ، المؤثرة .. وانـــه بهذا يمثل الشعر العربي الفصيح ، رغم انه قيـــل بالسليقة ، ونبع من البيئة العامية ؟ !

وبعد فهذه هي لغة البادية ، نثرها وشعرها ، تبرز من خلالها سجايا هؤلاء الاعراب ، وتشف عن طباعهم الكريمة ، واخلاقهم المثلى ، وتنبيء عن الاصرة التي تربطها بالفصحى ..

لنا اذا لغة في بطون الاسفار ، نجترها ، ونرجع اليها ، ونصدر عنها .. تلتقي اخرى توارثتها السنة الاجيال ، وتناقلها الخلف عن السلف ، وبقيت مصدرها السليقة ، ومنطقها الطبع ، وحارسها الغيرة ..

وعلى الغياري من علماء هذه الامة وادبائها في هذا الجيل مسؤولية حملها اياهم اسلافهم البـــررة الاوفياء ، الذين خلصوا هذه اللغة من كل شائبـــة وريبة ، ولم يزالوا قوامين عليها ، غيرا على حماها.. يلقون ما يخدش لغتهم بالنقد اللاذع ، ويتقبلـــون ما يانفونه بالرد الموجع ، ويلاحقون الواغل الدخيـــل ، كما يلاحق المجرم .. حتى وصلت الينا ..

فما هو موقفنا من هذا التراث الضخم ، في عصر العلوم ، والفنون ، والمخترعات . وعصر تواشـــج الامم، وتقاربها واندماجها .. وعصر التقليد والمحاكاة ــ تقليد الاضعف للاقوى .. ان هذه الامانة تستهدفها هذه التيارات ، وتنقصها من اطرافها ، وتنازعها البقاء .. تريد منا غيرة ولا كغيرتنا على التراب ، والكيـــان ، والمصالح ..

وتريد منا لغة البادية ــ وقد علمنا مكانتها من لغتنا وقومنا ــ ان نتخذ الوسائل الكفيلة برعايتهـــا ، وحمايتها وجعلها منطلقا لاحياء لغة الضاد ، سليقة وطبعا ، في السواد الاعظم من بني جلدتنا ، على نحو ما كان اسلافنا يعملون ، في الاستفادة من لغة البادية، وطبعها ، وخشونتها ، ورجولتها ...

واننا ان شاء الله لفاعلون .

الصراع بين الفصحى والعامية
أو
أثر الازدواج اللغوي في أسلوب يوسف السباعي

الدكتور زكي عبد الملك
أستاذ الأدب العربي والعلوم اللغوية
جامعة يوطا (الولايات المتحدة)

في العالم العربي ازدواج لغوي قوامه اللغة الفصحى واللهجات العامية الدارجة . فاما اللغة الفصحى فتستخدم في اكثر الاغراض الكتابية كما تستخدم في اكثر الاحاديث التي يغلب عليها الطابع الرسمي . واما اللهجات العامية فيستخدمها الناس في غير تكلف لقضاء حاجاتهم العادية . والاغلبية الساحقة من المثقفين في البلاد العربية يرون ان **اللهجات العامية لا تصلح للتعبير الادبي** ، ولهم في ذلك حجج يجدر بنا ان نعرض لها في ايجاز :

واهم تلك الحجج ان **اللغة الفصحى لغة القرءان** وعلى معرفتها يتوقف فهم القرءان . لذلك تحمل علماء اللغة فيما مضى الوانا من المشقة وضروبا من العناء في شرح قواعدها (1) ، ولذلك يابى العرب اليوم ان يستبدلوا بها اللهجات العامية في كتابة الادب فيقصوها من حياتهم اقصاء لا ندري اتعود بعده ام لا تعود .

ثم ان **اللغة الفصحى** تعتبر عند العرب **ارقى من اللهجات العامية واعذب** ، واتقانها دليل عندهم على الثقافة العالية والذوق الرفيع . ليس غريبا اذن ان يرد طه حسين جهل فريق من الشعراء بالفصحى الى الكسل والتقصير والقصور (2) .

واللغة الفصحى مشتركة بين العرب اينما وجدوا فالمغربي يقرا ما يكتب في مصر فيفهمه ، والمصري يقرا ما يكتب في المغرب فيفهمه . اما اللهجات العامية فتختلف باختلاف المناطق ، واستخدامها في كتابة الادب يحول بين الادباء في كل منطقة وبين القراء في المناطق الاخرى .

بقيت حجة اعرب عنها الدكتور محمد مندور حين زعم ان العامية الدارجة تضيق عادة بالتعبير عن اعمق المشاعر وادق المعاني « بحكم انها لا تزال مقصورة على حياة الاميين الذين لا يستعملونها الا في التعبير عن حاجات حياتهم الضيقة في نوع المشاعر ودقة التمييز بينها ، فضلا عن عمق الخاطر او اصالته » (3) .

ولما ظهرت القصة الحديثة في الادب العربي ونشا فن المسرح العربي الحديث ، اخذ بعض الادباء يتبرمون باضطرارهم الى انطاق الشخصيات القصصية والمسرحية باللغة الفصحى . وتساءل اولئك الادباء : اليس عجيبا ان يجري الحوار بلغة فصيحة متينة السبك بين اشخاص لم يصيبوا من الثقافة كثيرا ولا قليلا ؟ اليس ذلك مما يفسد القصة والمسرحية ويناى

(1) « المقدمة » للعلامة ابن خلدون (القاهرة:مطبعة التقدم) ، الجزء الاول ، ص 455 .
(2) « حديث الاربعاء » لطه حسين (القاهرة :دار المعارف ، 1957) ، الجزء الثالث ، ص 200 – 201 .
(3) « المسرح النثري » للدكتور محمد مندور(القاهرة : معهد الدراسات العربية العالية ، 1959)، ص 81 .

بهما عن الواقع الذي تجتهدان فى تصويره ؟ ومع ذلك ظل اكثر الادباء والنقاد يرون **اللغة الفصحى خير اداة للتعبير فى المسرحية والقصة ، ويقاومون استبدال العامية بها** ؛ فالدكتور محمد مندور مثلا لا يتردد فى رفض الدعوة الى استخدام العامية فى المسرحية ، وهو يعلل رفضه على النحو التالي :

« كل مسرحية انما هي حكايـــة حال ... ولا يمكن أن تكون حكاية لسان ، فالمؤلف لا ينطق لسان مقال شخصياته الروائية بل ينطق لسان حالهـــم ، والواقعية ليست فى اللغة وانما فى التصوير النفسي للشخصيات ومدى مطابقة هذا التصوير لواقع الحياة الظاهر منها والخفي ، والذي تستطيع الشخصيات التعبير عنه أو لا تستطيع . والذي يحدث فعلا هو ان المؤلف يعبر بلغته هو وبلسانه ، وكل ما يطلب منـه هو أن يأتي تعبيره صادق التصوير لواقع شخصياته . وسيان فى ذلك ــ من الناحية الفنية ــ أن يستخـــدم لغة عربية فصيحة أو عامية أو اية لغة اخرى » (4) .

والاديب المصري يوسف السباعي ممن يرون ان للعامية فى القصة والمسرحية دورا يجب ان تؤديه . وقد عرضه ذلك لنقد عنيف رد عليه اكثر من مرة ثم تظاهر بالاعراض عنه ، ولكنه تاثر به ما فى ذلك شك ، فقد مر اسلوبه القصصـــي بمراحـــل ثـــلاث : كان فى المرحلة الاولى اسلوبا جـــزلا فصيحـــا يكثر فيـــه الاستشهاد بالشعر ويوشك أن يبرا من العامية . ومن خير الامثلة على اسلوب هذه المرحلة كتاب «اطياف» (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1947) ، فانت تقرا فيه الصفحة تلو الصفحة فلا تجد من العامية (5) الا الفاظا قلائل متفرقة ، يدل عليها المؤلف ويميزها من بقية الالفاظ كانه يعتذر منها الى القارىء : (6)

اني لم أرك منذ كنت تصطـــاد الســـمك على شاطيء الترعة « بالبنطلون القصير »

ما زالت ذاكرتك قوية « يا عم محمد »

ساجهز لك « سنارة » لصيد السمك .

وقد تجد بين صفحات الكتاب احيانا ما يبعث فى نفسك شعورا قويا بأن المؤلف يشق على نفسه فى الكتابة ، ويتكلف من العناء شيئا غير قليل فى اختيار الالفاظ حتى تستقيم له العبارة ويبرا اسلوبـــه من العامية : (7) .

— قم يا ابن اللئيمة . ماذا تفعل هنـــا ؟ تالله لئن رايتك خطوت الى هنا مرة ثانية لادقن عنقك .

— لتقر عيناك يا ابا لهب ، ولتهدا بالا . لتتخذن لك من داري مأوى ومخبا .

وفى المرحلة الثانية تنقسم القصة من حيـــث الاسلوب الى قسمين : القسم الاول هو ما يقدمـــه السباعي نفسه بين يدي القارىء من تحليل ووصف للزمان والمكان والاحداث والشخصيات . واسلـــوب هذا القسم فصيح رغم أن الالفاظ العامية تتسرب اليه بين الحين والحين . والقسم الثاني هو الحـــوار ، واسلوبه عامي ليس فيه من آثار الفصحى الا الهجاء . ومن خير الامثلة على اسلوب هذه المرحلـــة كتـــاب « السقامات » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1952) الذي شرح السباعي فى مقدمته موقفه من العامية :

« التقيت ذات يوم بالاستاذ احمد بك عباســـي كبير مفتشي اللغة العربية بوزارة المعارف ، فانباني ان الوزارة كانت توشك أن تقرر بعض كتبي لمدارسها لولا أن اللجنة المختصة رات ان الكتب تحوي بعض عبارات بالعامية ....

« وعلى هذا فلم اكد ابدا هذه القصة حتى ذكرت وزارة المعارف ومطالبها التي تتفرع عن اللغة العامية، وعزمت أن اقيم سياجا منيعا يحـــول دون تســـرب الالفاظ العامية التي تابى الا أن تفرض نفسها فرضا فى سياق الحديث . واخذت فى الكتابة محاولا اجـــراء الحوار بين ابطال القصة باللغة الفصحى ، ولكني لـــم اكد اكتب بضع صفحات ، ولم اكد « احمـــي » فى الكتابة ، حتى وجدت ابطال القصة ينطلقون على الرغم مني فى الحديث بالعامية ...

---

(4) المرجع السابق ، ص 57 ــ 58 .
(5) اللهجة العامية التي يستخدمهـــا يوسف السباعي فى قصصه هي اللهجة القاهرية .
(6) ص 82 .
(7) المثال الاول مقتبس من صفحة 25 والثاني مقتبس من صفحة 28 .

« ولست اشك اننا في فترة صراع بين العامية والفصحى ....

« وهذه قصة يبدو فيها هذا الصراع بين الفصحى والعامية . ولا جدال هناك في ان الغلبة ـ في الحوار ـ للعامية ، لانه من المستثقل المعجوج ان نحاول انطاق اشخاص القصة باللغة الفصيحة وهم لا يمكنهم في حياتهم الطبيعية ان ينطقوا بها » . (8)

واستئثار العامية بالحوار جاء في العبارات التالية التي نقتبسها من الكتاب : (9) .

ـــ ما فيش لزوم يا شحاتة افندي . انا رايح القهوة بتاعتنا عشان عندي شوية شغل عايز اقضيهم .

ـــ وماله . تقضي شغلك وبعدين نروح سوا .

بقي اسلوب المرحلة الثالثة ، وهو يفوق الاساوبين السابقين في الاهمية لسببين :

اما السبب الأول فهو ان السباعي يلتزم ذلك الاسلوب في اكثر ما كتب من قصص ، ولعله قد استقر واتخذه مذهبا دائما . واذن فقد يكون ذلك الاسلوب النتيجة التي انتهى اليها الصراع بين العامية والفصحى عند السباعي . وما دامت **خصائص الازدواج اللغوي واحدة في كل مكان** (10) فقد يكون في اسلوب هذه المرحلة من الخصائص ما هو شائع في الاساليب القصصية اينما يوجد الازدواج اللغوي .

واما السبب الثاني فهو ان السباعي من اكثر العرب انتاجا ، فقد نشر بين عامي 1947 و 1968 خمسة واربعين كتابا ، منها خمس مطولات مسرفة في الطول هي : « رد قلبي » و « ناديا » و « جفت الدموع » و « ليل له آخر » و « نحن لا نزرع الشوك » . واكثر قراء السباعي من الشبان الذين تبدأ حياتهم الادبية عادة بتقليد ما يطالعون . وقد ظفر السباعي من ثناء النقاد (11) بما يغري القراء بتقليده ان كانوا في حاجة الى الاغراء ومنهم من يعجبون به اعجابا يخرجهم من طورهم احيانا . (12) لن يدهشنا اذن ان يكتب عدد كبير من قصص المستقبل باسلوب المرحلة الثالثة .

لهذين السببين يجدر بنا ان نحلل اسلوب المرحلة الثالثة في شيء من الاناة والتفصيل . واول ما نلاحظه **ان السباعي في تحليله ووصفه يصطنع اسلوبا فصيحا تعترضه احيانا الفاظ عامية او اجنبية** كالالفاظ التالية:

برنيطة ، معبز ، بنج بونج ، دكة ، شلة ، شورت ، بوز ، تنس ، مد موازيل .

لكن الجديد حقا في اسلوب هذه المرحلة هو ما تجده في الحوار . ذلك ان لغة الحوار ليست فصيحة صرفا ولا عامية صرفا ، وانما هي بين بين ، تاخذ من هذه بمقدار ومن تلك بمقدار . ومن خير امثلة على هذا الاسلوب كتاب « نادية » (القاهرة : مؤسسة الخانجي ، 1960) . تقرأ ذلك الكتاب فيخيل اليك ان الاشخاص يتخاطبون على فطرتهم بالعامية ، ولكنك تتامل ما يقولون فاذا انت مضطر الى الاعتراف بان للفصحى اثرا ظاهرا لا سبيل الى انكاره . **على هذا النحو يجتهد السباعي في التوفيق بين العامية والفصحى** وهو يتوسل الى هذا التوفيق باربع وسائل هي : اقتباس ، واصطناع كلمات « الطبقة الدنيا » ، وترجمة التعابير العامية الى الفصحى ، وتجريد الكلمات من علامات الاعراب . ولنفصل :

الاقتباس

يقتبس السباعي من الانجليزية والفرنسية عددا غير قليل من المفردات ولكنه ، كما يتضح من الامثلة التالية ، قل ان يقتبس العبارات :

هالو
ول
تيم
جمنزيم
بونجور

---

(8) ص 6 ـ 8 .
(9) ص 261 .
(10) Charles Ferguson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), pp. 325-340.
(11) من هذا الثناء ما كتبه توفيق الحكيم في « يا امة ضحكت » ليوسف السباعي (القاهرة : مطبعة روز اليوسف 1955) ، ص 5 ـ 8 .
(12) سجل يوسف السباعي شيئا من هذا الاعجاب في كتابه « اني راحلة » (القاهرة : مؤسسة الخانجي 1950 ، ص 10 ـ 15 .

غير ان ما يقتبسه السباعي من اللغات الاجنبية قليل اذا قيس بما يقتبسه من العامية . ذلك أن السباعي لا يقنع فى اقتباسه من العامية بالمفردات بل يتعداها ، كما ترى فى الامثلة التالية ، الى التعابير ولا سيما التعابير المجازية والامثال السائرة :

ماما	فسحة	عبيطة
بابا	جاكتة	يزغد
شماعة	فانلة	طس
زور	فتلة	
امال	سي (سي عمر)	
الله !	يا ريت	
اما (اما مفاجاة !)	ومالة	

على سن ورمح ـ عيون فارغة ـ يفتح الله
لا هنا ولا هناك (انا لا هنا ولا هناك)
جه نقبها على شونة
اكف الجرة على فمها تطلع البنت لامها
الله يخرب بيته ـ الله يعمر بيته ـ لا مؤاخذة
راح النه لا يرجعه ـ اشيل مين فيهم ـ راجل اليط
انت بنت مايعة ـ مياعة بنات ـ مش بطال ـ برك على انفاسي ـ حاضر يا فندم .

وثمة نوع آخر من الاقتباس يتميز به الحوار فى المرحلة الثالثة هو اقتباس التراكيب من العامية . ومن امثلة ذلك :

(1) العطف بدون حرف عطف :
قومي البسي

(2) تكرار اللفظة للدلالة على الاستهتار :
شيوعيون شيوعيون

(3) مخالفة البدل للمبدل منه فى التعريف والتنكير :
عند دادة فاطمة

(4) استعمال الواو للدلالة على الاستمرار :
ثلاث ساعات وانا واقف على قدمي

(5) مخالفة بعض الصفات للموصوف فى التذكير والتانيث ، او فى الافراد والتثنية والجمع :
فستان بمبة ـ زهور بمبة ـ ناس بلدي

ولنلاحظ ان السباعي فى اقتباسه من العامية متاثر بالفصحى من حيث لا يدري . فما ينطق فى بعض الكلمات العامية همزة يكتبه السباعي قافا ، وما ينطق فى البعض الآخر دالا يكتبه ذالا :

نقبها ـ خد بالك

اصطناع كلمات « الطبقة الدنيا »

الكلمات المشتركة بين اللغة الفصحى واللهجة العامية القاهرية ثلاثة انواع :

(1) كلمات لا تختلف صيغها العامية عن صيغها الفصيحة ، ومن هذه الكلمات « كتب » و « درس » و « بلد » و « من » وهلم جرا .

(2) كلمات لكل منها صيغة فصيحة واخرى عامية : والصيغتان تختلفان اختلافا يقرره قانون لغوي عام . فالصيغ الفصيحة « نائم » و « صائم » و « عائم » و « دائم » و « فوائد » تختلف عن نظائرها فى اللهجة القاهرية (« نايم » و « صايم » و «عايم » و « دايم » و « فوايد »)
اختلافا يقرره القانون اللغوي القائل ان المشتقات من مجرد الثلاثي الاجوف تكون عينها فى العامية القاهرية ياء اذا كانت فى الفصحى همزة .

(3) كلمات لكل منها صيغة فصيحة واخرى عامية : والصيغتان تتشابهان الى حد وتختلفان الى حد ، ولكن ما بينهما من فرق لا يقرره قانون عام. فالفروق التي تميز الصيغ الفصيحة « رجل » و « امراة » و « عربة » من نظائرها فى اللهجة القاهرية (« راجل » و « مره » و « عربيه ») لا تقررها قوانين عامة .

ومن الكلمات المشتركة ما له مترادفات تنفرد بها الفصحى من دون العامية ، ومنها ما ليس له مثيل هذه المترادفات : فالفعل « دوخ » مشترك بين العامية والفصحى ، وله مرادف فصيح لا تشترك فيه العامية هو « ارهق » . واسم الفاعل « صائم » مشترك بين العامية والفصحى كذلك ، الا اننا لا نجد له مرادفا تنفرد به الفصحى من دون العامية .

يمكننا اذن ان نقسم الكلمات الفصيحة الى ثلاث طبقات : طبقة عليا تائلف من كلمات تنفرد بها الفصحى من دون العامية (مثل « حذاء ») ، وطبقة وسطى تائلف من كلمات مشتركة فصيحة الصيغة ليس لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « صائم ») ، وطبقة دنيا تائلف من كلمات مشتركة فصيحة الصيغة لها مترادفات بين كلمات الطبقة العليا (مثل « دوخ »).

وكلمات الطبقة الدنيا تتسم بطابع عامي مصدره وجود مترادفات لها فى الطبقة العليا . لذلك يزور انصار الفصحى عن كلمات الطبقة الدنيا ؛ اما يوسف السباعي فيتعمد اختيار تلك الكلمات ليبلغ ما يريد من التوفيق بين العامية والفصحى . وفيما يلي بعض ما يستعمله السباعي من كلمات الطبقة الدنيا ، وما يؤثره انصار الفصحى من كلمات .

كلمات الطبقة الدنيا	كلمات الطبقة العليا
قومي	انهضي
راقدة	مضطجعة
يدوخونه	يرهقونه

ترجمة التعابير العامية الى الفصحى

نصح الدكتور محمد مندور للقصاصين بترجمة اقوال العامة كلما دعت الى ذلك مشاكلة الواقع (13). وقد وفق السباعي الى نوع من الترجمة لا نزعم انه يرضي الدكتور محمد مندور ، ولكنه ابرز ما يتميز به الحوار فى المرحلة الثالثة .

يعمد السباعي الى العبارة العامية فيبقي فيها على النوع الاول من الكلمات المشتركة ، اما بقية الكلمات المشتركة فانه يستبدل صيغها العامية بالصيغ الفصيحة ، واما الكلمات التي تنفرد بها العامية من دون الفصحى فانه يستبدلها بنظائرها الفصيحة . وفيما يلي بعض العبارات العامية ، والترجمة التي يستعملها السباعي ، والعبارات التي يؤثرها انصار الفصحى :

العبارات العامية	الترجمة	العبارات الفصيحة
سليم اربعة وعشرين قيراط	سليم اربعة وعشرين قيراطا	معافى تماما
سليم ميه فى الميه	سليم مائة فى المائة	معافى تماما
زي الجن الازرق	كالجن الازرق	معافى تماما
فاتك نص عمرك	فاتك نصف عمرك	ضاع عليك الكثير
وراني نجوم الظهر	اراني نجوم الظهر	ارهقني من امري عسرا
تشتغل عليه	تشتغل عليه	تنصب له اشراكها
ادهاني وانا واقف	اعطاها لي وانا واقف	اعطاني اياها فى الحال
ميهمنيش رمضان	لا يهمني رمضان	رمضان لا يعنيني فى شيء
راجل امير	رجل امير	رجل طيب القلب
تعملي العمله	تعمليين العملة	تاتين ما يشين
لمي جسمك	لمي جسمك	احتشمي
لازم الفستان ما جاش عند المكوجي	لا بد ان الثوب لم يات من عند المكوجي	لا بد ان الثوب لا زال عند الكواء

(13) « فى الميزان الجديد » للدكتور محمدمندور (القاهرة : مطبعة نهضة مصر) ، ص 55 .

ونحن نصر على ان نقطة الانطلاق ليست العبارات الفصيحة ، اي ان السباعي لا يعمد الى العبارات الفصيحة فيختار منها أقربها الى العامية . ولو كان ذلك مذهبه لما عثرنا فى كتبه على تعابير مثل « رجل امير » و « تشتغل عليه » لانها لا تؤدي فى اللغة الفصحى ما يقصد اليه من معنى .

تجريد بعض الكلمات من علامات الاعراب

اكثر الكلمات التي يجردها السباعي من علامات الاعراب هي اسماء العلم ، وهو يجردها عادة من علامة النصب ومن التنوين . غير ان السباعي احيانا يجرد من علامات الاعراب ومن التنوين كلمات غير اسماء العامية . وستجد فى الجمل التالية امثلة على ما نقول: العلم ، ولا سيما اذا كانت تلك الكلمات مقتبسة من

ساعود الى البيت لارى فاضل

لا بد ان اذهب لارى عصام

انا احب عصام

اريد غيار لنادية

وضع الدكتور لها مرهم

اتظنين الرئيس جمال عبد الناصر فاضي ؟

يرى تشارلز فرغيسون ان « التخصص من اهم مميزات الازدواج اللغوي » . (14) وهو يقصد بذلك ان العامية قل أن تؤدي من وظائف الفصحى شيئا ، وان الفصحى قل ان تؤدي من وظائف العامية شيئا. ذلك حق ، ولكنا نرى مما سبق ان العامية والفصحى تتنازعان فى بداية الامر ، وان ما يكون بينهما من تنازع على وظيفة بعينها لا يتمخض عن نصر حاسم الا بعد مرور زمن قد يطول . فظهور وظيفة جديدة فى الادب العربي ، هي القصة الحديثة ، قد اثار بين العامية والفصحى خصومة شديدة وصراعا عنيفا . وليس اسلوب المرحلة الثالثة عند السباعي الا اثرا من آثار هذه الخصومة وصدى من اصداء ذلك الصراع .

(14) Charles Fergusson, « Diglossia », Word, Vol. XV (1959), p. 328.

أساليب ومناهج صياغة اللفظ في التعبير العربي

للدكتور باناهي (باكو) "الاتحاد السوفياتي"
ترجمة الأستاذ فؤاد حمودة "الرباط"

لم تزل صياغة الكلمات التي تعالج شتى مناحي الحياة الاجتماعية تشكل القضية العلمية التي تواجه المصطلح اللغوي او الفني الحديث في اللغة العربية ، والتي لما يتوصل بعد الى حلها .

ان مراجعة معاجم اللغة واستقراء المواد والنشرات العلمية لتعطي للقارىء فرصة الوقوف ـ بين الحين والاخر ـ على بعض المصطلحات الاوربية الدخيلة .

وفي العصر الحاضر وخلافا لما كان سائدا في العصور الوسطى فان عددا وافرا من تلك المصطلحات الاوربية الغربية ، تحيد عن قواعد اللغة العربية من حيث الصرف والاعراب وفن تركيب الكلمات وضبط التهجئة بل وفي قواعد علم الاصوات والسمعيات اللغوية ويتمثل ذلك في علوم الفسيولوجيا . والمترولوجيا . والجيولوجيا . . . الخ .

ولا مناص من القول بان اقحام مثل هذه الكلمات في اللغة العربية من شانه ان يتهدد مستقبل تلك اللغة وعوامل تطورها ، فضلا عما يؤدي اليه من بلبلة واضطراب في ضبط التهجئة واحكام الاملاء وصحة اللفظ وصياغة الكلمات واخيرا في قواعد الاعراب .

فاذا وقرت في الاذهان تلك الحقيقة العلمية فانه يجب ان يكون التدرج في الاخذ بتلك الكلمات الاوربية وفسح مجال لها في معاجم اللغة العربية ومراجعها بكيفية محدودة للغاية .

وثمة خطر آخر يواجه اللغة العربية يتمثل في نقل المصطلحات الفنية انطلاقا من اللغات الاوربية وترجمتها الى العربية . وليس بخاف ان معظم الكلمات المركبة والاوربية الاصل قد استعارتها بحالتها الانشائية الثابتة اي اخذت الكلمة بصورتها الاوربية وكتبت باحرف عربية. بالرغم من انه كثيرا ما نجد ان الكلمة الاوربية تلك انما يتكون هيكلها من مزيج مركبين او اكثر الامر الذي ينتج عنه في بعض الحالات ان العديد من تلك الالفاظ لا يتواءم ومقتضيات مفهوم الكلمات ومعناها . لا سيما وان منها ما هو متعدد المعنى ، اي يمكن استعماله للدلالة على اكثر من معنى واحد فهي ـ والحال هذه ـ ليست محكمة الضبط للتعبير عن معنى بعينه ، مما قد يؤدي في النهاية ـ حال استعمالها بتمام شكليتها الاوروبية معربة ـ الى عدم تحديد مؤداها وما تستهدفه على وجه التدقيق ـ من معنى او صفات وسمات مميزة تلك هي النتيجة المبتسرة التي يؤدي اليها استعمال تلك الكلمات والتي مردها عدم احكامها وتوثيقها والاقتصار على مجرد تغيير ملامحها باستبدال الحروف العربية بالاحرف الاوربية. ولهذا فانه لمن الاهمية بمكان الاشارة الى ان اي تركيب لغوي ـ يراد تحويله الى كلمة مركبة او تغيير فني او مصطلح علمي ـ يجب التيقن بادىء ذي بدء انه يتوفر على صيغة متماسكة معينة كما يحتوي على مضامين مدققة فكما ان من شان ذلك تلخيص هذا التركيب من خاصية تعدد المعنى وتكريسه للدلالة على مفهوم محقق ومضبوط ، فانه من شانه ايضا ان يؤدي الى

تفهم صياغة الكلمات المتزاوجة وليدة هذا التركيب . وهذا التركيب فى اللغة العربية يطابق ما يسمى بالمركب المزجي الذي يساير كل القواعد اللغوية . وكما ان اساليب متنوعة قد استخدمت فى انشاء التركيب المزجي هذا فان طبيعة المادة التي هي موضوع التركيب تسهم فى الدور الذي يؤديه التركيب المزجي فى تشكيل علم الاصطلاح اللغوي لوضع الاسماء العلمية ومصطلحات الفنون .

وتسود علم اللغات العربية آراء متضاربة فيما يتعلق بكيفية تاليف تلك المصطلحات الفنية فى نطاق المركب المزجي .

وعلى ضوء ما هو ملموس لدينا يمكن القول بان استيعاب المؤلفين لاسلوب صياغة المصطلح من خلال المركب المزجي لا يرتكز على قواعد التحول او التطور الذاتي للغة العربية .

كما يبدو لنا انه فى صدد صياغة المصطلح الحديث ـ نجد لزاما علينا استخدام نماذج واساليب من تلك التي كانت سائدة فى العصور الوسطى والاستعانة بها. ومن ثم ، فان النماذج يجب أن تكون ـ دون غيرها ـ الانماط التي تتمثلها اللغة العربية وتهتدي بهديها . كما ينبغي ان تكون الكلمات المركبة الوليدة متوائمة وقوام اللغة العربية .

ويختلف تركيب هذه العناصر اختلافا جذريا عن تركيبها فى اللغات التركية والهند و ـ أوروبية

ولما كانت الكلمات المركبة يجب ان تتساوى مع نماذج ثابتة محددة المعالم فى بنية اللغة العربية فان عملية المركب المزجي قد تتم بالاحتفاظ بحرف ساكن أو حرفين من كل مركب وطرح ما تبقى من احرف ، اما الآحاد المعجمية واللغوية فتتركب من عناصر مختلفة بواسطة الابقاء على ثلاثة او اربعة حروف او خمسة ـ فى حلات نادرة ـ تتشكل طبقا لقواعد قارة .

والتركيب المزجي الذي كان بمثابة حقل تزدهر فيه صياغة الكلمات المركبة فى العصور الوسطى قد لا يكون هذا شانه اليوم . وقد يكون العكس صحيحا . اذ بمقارنة النماذج التي تؤلف فيما بينها المصطلحات الحديثة فى اللغة العربية المعاصرة مع تلك كانت سارية فى اللغة التقليدية ـ نلاحظ ان هناك توافقا فيما بينها وقصورا فى الصلة بين اللغتين فى هذا المجال :

ففي العصور الوسطى كانت الكلمات المؤلفة فى سياق المركب المزجي تنشأ من ادغام اداة النفي (لا) فى الاسم أو اسم الفعل على الشكل التالي :

(لا + بد) = لا بد ، (لا + شيء) = لاشيء ، (لا + أبالي + يه) = لا ابالية ، (لا + مبالاة) = اللامبالاة .

وبتتبع هذا المنهج من مناهج المركب المزجي فى معاجم اللغة العربية نلمس انه لم يكن له نصيب وافر فى صياغة الكلمات المركبة ، بينما نجد فى الطور المعاصر من اطوار اللغة العربية أن مثل هذه الصياغة للمصطلحات الحديثة معتادة مالوفة .

وعلى ضوء هذه الحقيقة اقر المجمع العلمي العربي بدمشق صلاحية العديد من الكلمات المركبة طبقا للقاعدة المذكورة واجاز استعمالها فى مجالات الفلسفة والاحياء والطب والصيدلة الخ مثل :

اللا ادريه ، اللادينية ، اللاسياسية ، لا تمري ، لا توبجي ، اللاتزاوجي اللاتزامل ، اللادماغية ، اللامقلة اللامكوسية ، اللاجفن ، لاسلكي ... الخ .

وهناك ايضا عدد من الكلمات المركبة نشأ من دمج الاداة (ما) فيما يتلوها من كلام مثل :

(ما + هي + ية) ماهية ، (ما + جرى) = مجريات اوماجريات ، (قل + ما) = قاما ، (حيث+ما) حيثما ، (لا + سى + ما) = لا سيما .

وهكذا نجد فى اللغة العربية المعاصرة بعضا من تلك المصطلحات الفنية فى ميادين الفلسفة والصيدلية وسائر فروع العلوم صيغت جريا على قاعدة دمج حرف (ما) فيما يلحقه من كلمات مثال ذلك :

(ال + ما + لا + عرف) = المالايعرف . و (ال + ما + كشف) = المايكشف ، (ما + فوق × بنفسجي) = مافوسجي) .

وعلى اي حال فان استعمال تلك المصطلحات الحديثة على النمط المشار اليه ـ ما زال يحدوه عامل الندرة فى الوقت الحاضر .

هذا وان استحالة التركيب اللفظي المستقل الى مزيج لغوي قد لوحظت فقط بالنسبة للغة العربية المعصرية نتيجة لترجمة بعض المصطلحات الحديثة من اللغات الاوربية مثل :

حيهوائـــي = حي بالهـــواء ـ airobic ،
الحلماة ـ التحليل بالماء = hydration يحلمىء =
يحلـل بالمـــاء hydrolyse (to)

ويتبين من استقراء تلك الامثلة ان النهج الذي اشيع في صياغة تلك الكلمات المركبـــة كان باضافـــة الحرفين الاولية من المركب الاول الى المركب الثاني، وتلك القاعدة كانت متبعة من زمن بعيد في اللغة العربية تشهد بذلك الامثلة الآتية :

(مش « من مشمس » + لوز) ـ شلـــوز ،
(شق « من شق » + حطب) ـ شقحطب ، (حـــب « من حب) او عب « من عب » ـ حبقر .

ونجد اليوم ان تلك الصياغة اضحت نسبيـــا مثمرة وان المصطلحات الحديثة التي صار تشكيلها على هذا النمط قد حظيت بموافقة المجمع العلمي العربي مثال ذلك ما تم اقراره منها مثل :

(حرارة + ماء) الحرمائي ، (بر + مـــاء) =
البرمائية ، (تحت + تربة) التحتربة (شبه + بلور) = شباور ، (ماء + غول) ـ ماغول ، (شبه + غراء) شبغـــراء .

(لبنان + ارز ـ لبارز ، (حيـــز + زمن) =
حيزمن ... الخ .

فاذا ما كان الحرف الاول او الثاني في التركيبين همزة ساكنة فانها تحذف عند صياغة المركب المزجي: مثل : (راس + مال) ـ رسمال .

وقد كان العديد من الافعال والصفات الموصولة تتم صياغته منذ زمن بعيد يرتد الى العصور الوسطى بوصل الحرفين الاولين من كل مركب على وزن تفعلل، فعلل وقد كانت صياغة التركيب على هذا النحو اجدى في ابتكار العديد من التركيبات بالقياس الى غيره مثل:

(جعلت فداك) ـ جعفد ، (عبد شمس) =
عبشم ، (عبد القيس) = عبقس ، (عبد الدار) ـ
عبدري ، (امرىالقيس) ـ مرقسي) .

ويظهر الكثير من تلك المصطلحات الحديثة في الادب العربي المعاصر مصوغا على نهج الامثلة السابق تبيانها وقد حظيت هي ايضا بموافقة المجمع العلمي العربي عليها ومثال ذلك :

(انف + فم) ـ انفمي ، (بروم + حديد) =
برحد ، (كبريت + أكسوجين + حديد) = كباحد .

وبانعام النظر في التركيب الاخير (كباحد) يتضح ان اشتقاقه تاتى من وصل الحرفين الاولين في كل من المركبات الثلاثة بعضها ببعض .

وتحتوي اللغة العربية القديمة على عـــدد من النماذج لم تعهدها في العصر الحديث مثال ذلك مـــا تتضمنه من كلمات مركبة تصاغ باضافة الحرف الاول الصامت من المركب الثاني الى المركب الاول مثل :

(عين + دم) ـ دمع حيث اخذت ع من عيـن واضيفت الى دم فصار دمع (خرم + شرم)ـ خرمش، اضيف الحرف ش اخذا من شرم الى خرم فصارت خرمـــش .

ويمكن متابعة نفس القاعدة في الكلمات المركبة التي يرجع اصلها الى اللغة الفارسية والتـــي صـــار استعمالها من قبل اللغة العربية مثل :

(ك ماخوذة من كاه . P = ق A + خوردن = خوردن .) الخورنق A = خوردنكاه . P
وليس ثمة جدال ان اللغة العربية كانت تشمـل على الكثير من الانماط في كيفية صياغة الكلمات وان بحثا خاصا في تاريخ جذور اللغة العربية وصلتها باللغـــات الاخرى التي كانت متآخية معها ليبدو ضروريا للتعرف على ماهية هذه الانماط وتبيان معالمها .

ولقد استطاع اللغويون في العصور الوسطى ان يتعرفوا على العناصر او المركبات التي صيغت منهـــا الكلمات التالية :

(برق + نقش ـ برقش ، (برق + رقعه) =
برقع الخ .

بيد انه من الصعوبة بمكان تحديـــد الاحـــرف الماخوذة من كل مركب في المثال السابق ، فبالنسبة للمصطلح الاول نجد انه يشتمل على الاحرف ب، ر ،ق من الكلمة الاولى، كما يشمل على الحرفين ق ، ش من الكلمة الثانية . وايضا بصدد المصطلح الثاني نجد انه يشتمل على الحرف « ب » من (برق) والحرف «ع» من الكلمة الثانية . الا انه بموزنا الاساس او الدليـــل حتى يتاتى لنا الجزم بأن الحرفين (ر، ق) انما ينتسبان الى واحدة من الكلمتين دون الاخرى لان كلا الكلمتين تشتملان على ذات الحرفين فليس من وسيلـــة الى ارجاع كلا الحرفين الى الكلمة الاولى دون الثانية او العكس . وما يقال عن المصطلح الاول في هذه الحيثية ينصب على المصطلح الثاني .

وانه من المتعذر تحديد النمط او النهج الذي استعمل فى صياغة مثل هذين المصطلحين الاخيرين او التعرف على الاسلوب المتبع فى تدبيرها . كما انه يتعذر ايضا مقارنتهما او القياس عليهما بالنسبة للمصطلحات اللغوية الحديثة التي تشكلت فى اللغة العربية المعاصرة .

هذا ولا غرابة فى ان وصل الحرف الاخير من الكلمة الاولى بالحرف الاول من الكلمة الثانية من شانه ان ييسر عملية الاشتقاق وتوليد المصطلح المقصود بمعنى ان نهج هذا الاسلوب من خاصيته توفير الجهد وتخفيف المشقة فى صياغة الكلمات المركبة . مثل :

حيز + من او حي + زمن او (حيز + زمن) ـ حيزمن .

وهناك عدد من التغييرات الحديثة فى اللغة العربية المعاصرة تختلف عن المصطلحات المشار اليها فى طريقة صياغتها وعن الانماط التي يمكن اتباعها من أجل توليدها ، ويمكن تحديدها فى النقاط التالية : والتي صيغت من امتزاج المركبين (orthos + pteron) يتضح لنا ان الاختزال قد تناول المركبين معا وليس احدهما فحسب كما بالنسبة لصورة الكلمة بالعربية السالف شرحها .

الكلمات المركبة التي تشير الى ظرفين الزمان والمكان والمترجمة حرفيا عن الاصل الاوروبي والتي صيغت من وصل المقطع الهجائي الاول من المركب الاول بالمركب الثاني مثل :

قبل التاريخ ـ قبتاريخ واصلها الفرنسي ... Préhistoire

ثم الصفات المركبة التي تكونت من تواكب اسمين جغرافيين متساويين . ومما يميز هذه الحالة من الصياغة ان المركب الثاني من تلك الصفة المركبة لا يفقد قوامه الذي كان عليه قبل التركيب بحيث يبدو دائما وكانه كلمة مستقلة تؤدي ذات المعنى الذي كان متعلقا بها قبل الصياغة والكلمات التي من هذا القبيل قد صيغت فى العربية مرتكزة على حرف الوصل « ي » الذي استبدل بحرف o فى اللغات الاوروبية مثل :

انجلو امريكي Ingilu : amriki

افرو آسيوي Ifru : asiiavi

أسيوي افريقي asiiu : afriki

هذا وان استعمال التراكيب المقتضبة طبقا لهذه الحالة فى الخطابة ولغة الصحافة قد حظى بقبول المجمع العلمي العربي فى سنوات 1946 ـ 1947 الامر الذي ثارت بسببه المجادلات والمساجلات بل واحيانا مشادة بين العلماء .

وختاما لهذا البحث لم يبق الا ان نقرر ان نشاة المصطلحات الحديثة فى ظل المركب المزجي وانتشارها انما يرتكز على الاصول الآتية :

اولا : من المسلم به ان الكلمات المركبة قد شاع استعمالها فى اللغات الاوروبية وهكذا نرى الكثير من المصطلحات الحديثة التي ذاعت فى الوقت الحاضر فى شتى مجالات العلوم ، قد قامت صروحها على هذا التركيب . كما ان تلك المصطلحات الحديثة قد وجدت طريقها الى اللغات الاخرى ومنها اللغة العربية ومن ثم كان ظهور الكلمات المركبة وفقا لاسلوب التركيب المزجي فيها .

ثانيا : ان المصطلحات المركبة هذه ليست بالشيء الجديد او الغريب على اللغة العربية التي عهدت انماطها وطرق صياغتها ومناهجها منذ زمن بعيد وهذا ما يفسر تقبل اللغة العربية المعاصرة لهذه المصطلحات وتبنيها .

1 ـ التعابير التى تتكون من تزاوج كلمتين مثال:

(عرض + حال) ـ عرضحال ؛ (قائم + مقام) = قائمقام ؛ (قبل + فكى) ـ قبلفكى ؛ (يا + نصيب) = يانصيب .

فاذا ما كانت الهمزة هي حرف استهلال المركب الثاني فى مثل هذه الكلمات فانه ، كقاعدة عامة ، تسقط من الحسبان عند الصياغة كما تبين من الامثلة التالية :

(حمض + أمين) حمضمين ؛ (غول + أثير) ـ غولثير .

واحيانا ما تجوز الصياغة بتآلف الكلمتين بتمامهما معا مثل :

البادزهر ، يوسف افندي .

2 ـ الكلمات المركبة من حرفي التصدير من المركب الاول والحرفين الاخيرين من المركب الثاني على وزن فعلل مثل :

(قل « من قلم » + بر « من حبر ») ـ قلبر .

3 ـ الكلمات المصوغة من المقطع الهجائي المكون من حرفين من المركب الاول والحرف الاخير من المركب الثاني فتاتي الكلمة المشتقة على وزن فعليل مثل :

(كهرباء + مغنطيس) ـ كهرطيس .

4 ـ الكلمات المولدة من ربط المركب الاول بالحرفين الاخيرين من المركب الثاني وبذا تكون الكلمة الناتجة على وزن فعليل مثل :

(حمض + اسيل) ـ حمضيل .

5 ـ الكلمات المركبة من اضافة الحرفين الاولين من المركب الاول الى المركب الثاني ـ اي الحالة العكسية للكلمات المشتقة وفقا للاسلوب المتبع في البند السابق ـ ومثل هذه المصطلحات تستعمل في حالات المجمع مثل :

(جوف + معى) ـ الجومعيات ، (مستقيم + جناح) = مسجناحيات ، (شمال + غرب) ـ الشمغربيات .

والكلمات المركبة وفقا لهذا الاسلوب دخلت اللغة العربية عن طريق استعارتها من اللغات الاوروبية بعد ترجمتها الى العربية وتشكيلها وفقا لما يتلاءم وقواعدها مما ادى الى تباين في كيفية صياغة الكلمة في اللغتين ـ (لغة الاصل واللغة الناقلة) ـ ففي كلمة مسجناحيات التي تاتت من امتزاج المركبين (مستقيم + جناح) يلاحظ انه عند الصياغة قد جرى الاختزال بالنسبة للمركب الاول وحده في الوقت الذي ظل بمناى عن المركب الثاني اي ظل هذا بكامل هيئته. بينما لو انعمنا النظر في اصل كلمة مسجناحيات هذه في اللغة الفرنسية : orthoptères (1)

ثالثا : ان استعمال المصطلحات الحديثة يجب ان يكون بكيفية واضحة لا يكتنفها غموض .

رابعا : ان استعارة تلك الكلمات المركبة من اللغات الاخرى ونقلها الى اللغة العربية حرفيا دون تعديلها بما يتوامم وقواعد تلك اللغة قد يضربها بل قد ينتهي الامر تدريجيا الى افسادها .

---

1) يبدو ان هناك نقصا في الاصل .

"الشعر العربي"

اللغة عنصر من عناصر الحياة يجب أن يتجدد باستمرار

الأستاذ إلياس فنصل ، بوينوس آيريس"

ترجمة الاستاذ محمد محمد الخطابي

تلقينا هذا البحث القيم من الاستاذ الياس فنصل وهو عبارة عن محاضرة القاها حضرة الاستاذ باللغة الاسبانية من الاذاعة الارجنتينية تحت رعاية المعهد الثقافي الارجنتيني ـ العربي بعنوان : « تمهيد لمعرفة الثقافة العربية » وقد نشرنا الاصل في مكان آخر من هذا العدد

ليس هناك شعب من بين الشعوب القديمة فاق الجنس العربي في تقديره للشعر ، ونستعمل كلمة « تقدير » ونحن على علم انها لن تستطيع ان تعطينا التعريف القاطع للاحترام الذي كان يوليه العرب لفن الشعر .

البديهيات على ذلك كثيرة ، فحتى **تاريخ العرب في الجاهلية انما هو تاريخ الشعر .**

وكل ما نعرفه من اخبار الحقبة التي سبقت الاسلام جاءت مروية ضمن « القصائد » التي وصلتنا منذ ذلك العهد ، والتي ما زالت حتى ايامنا هذه موضع بحوث ودراسات مختلفة .

تلك القطع الشعرية الموضوعة على نسق واحد ـ التي جادت بها القرائح في عزلة الصحراء وفي لحظات الضيق الروحي ـ رغم القرون البعيدة ـ ما زالت تحتفظ حتى الآن بالنكهة التي تصور لنا حنينا موسيقيا نحو الاوطان .

واذا استثنينا من هذه القطع الشعرية الكلمات التي فقدت مدلولها بمرور الزمن ـ ونحن نعتبر **اللغة عنصرا مجهزا من عناصر الحياة ينبغي له أن يتجدد بصفة مستمرة** ـ اي اذا استثنينا الكلمات التي لم تعد تكتسب صبغة الحاضر ـ والتي هي قليلة جدا ـ فاننا سنجد في **الشعر العربي الجاهلي تعبير الروح النقية الصافية لمشاكل الحياة العصرية ، هذه** الروح التي هي شبيهة « برادار » كفيل بالتقاط اقل ذبذبات القلق الانساني .

لقد كانت « الكعبة » التي تقع في مدينة « مكة » بمثابة المكان المقدس لدى القبائل العربية ، وفي مطلع كل عام ، كان يهرع نحو هذه المنطقة ، ذوو الوقار والمهابة من مختلف الميول والاتجاهات ، لاقامة تجمعات كبيرة ، كانت ذات موضوع مميز الا وهو الادب ، حيث كانوا ينشدون القصائد التي تخضع لنقد بناء ، ويحللون فيها تلك التي تتوافق واهواء العامة ، واجود هذه القصائد ـ اي التي كانت تحظى برضى الحكام الثقات ـ كانت تكتب على رقوق فاخرة ثم تعلق على « الكعبة » . في هذا المكان الذي كان ينال احترام الجميع من شيخ القبيلة العظيم الى الرجل العادي المجهول ، كان في امكان الجميع قراءة هذه القصائد ، وبهذه الوسيلة يصبح **للفن والبلاغة شعائر وطقوس .** ولما جاء الاسلام الغى هذه العادة التي كانت تتضمن بعضا من الوثنية البدائية . وفي تلك الحقبة نفسها كانت تقام دعائم **المباريات الادبية** التي ما زالت لها ردود فعل عديدة في الوقت الحاضر . لقد كان « **سوق عكاظ** » ضربا من « **الاولمبياد** » **الفني** ، كان يضم

احسن الشعراء ينشدون امام الجميع آلافا من اجود القصائد المنتقاة . ودائما كان هناك مراقبون من « حكام الكلمة » المتسمين بالنزاهة والانصاف ، يدلون بافكارهم القيمة ، والذين كانوا صريحين فى آرائهم وموجهين فى احكامهم ، **وكانت القصائد المختارة بمثابة البرهان الكبير على عظمة القبيلة التي ينتمي اليها الشاعر الفائز .**

ان الاسلام لم يضع حجر العثرة فى طريق الشعر المزدهر ـ كما يزعم ذلك بعض المستشرقين ذوي النظرة السطحية العجلى ـ وانما **جعل الاسلام حدا لعبادة الوثنية وحولها الى اهتماماته العادية ؛ ويحسن القول انه احل محلها معرفة فنية خالصة .**

« حسان ابن ثابت » الشاعر العظيم الذي كان صديقا حميما للرسول « محمد » رافقه فى عديد من غزواته ، وتغنى بانتصاراته ، كان النبي يوليه اهمية خاصة واضعا بذلك الشعر فى مكانه المناسب من الاعتبار دون ان يسمو به الى قمة الالوهية او يهوى به الى سفح الانحطاط .

وحينما بسط العرب نفوذهم حول العالم ظفر الشعر العربي ظفرات جديدة ، تحول الى وسيلة لنشر الافكار ، وتعضيد قوى الفتح الجديد ، وتسخير الاتجاهات السياسية ، رافلا فى ثوب جديد من اثواب البيان ؛ تحول الى **قاعدة للنشر والذيوع ، وقام بالدور الذي تقوم به الآن الجريدة والمذياع والتلفاز .**

كانت الامور غريبة ، بحيث يحدث أن نجد اثنين من الشعراء المرموقين ذوي نزعات متباينة وهما يجاهدان تحت سياسة واحدة ، ذات مصلحة عليا تهم العالم العربي واماراته التي كانت تمتد من الشرق الى الغرب .

وكانت للمعركة ايديلوجيات مختلفة ، فاحيانا تكون معمقها ذات سلاح متنوع قاطع ، تكون الكلمة البليغة احده واخطره ، واحيانا اخرى تكون سخرية حرة من خلال تطاحن الكلمات ، الشيء الذي يوضح لنا بجلاء التمكن التام من اللغة ، ويبرز لنا ـ فى ذات الوقت ـ الذكاء الخارق للعادة المسخر لخدمة المثل العليا .

سيطول بنا الحديث اذا عددنا الامثال ، وترجمنا القصائد ، او اذا شرحنا المواقف ، غير انه لا بد لنا ان نورد **ثلاثة من الشعراء الذين يشكلون فى رأينا ـ صروح القمة فى الشعر العربي القديم .**

انهم **الوان مختلفة ذات قدرة بلاغية ، دعائمها الخيال الخصيب ، والملاحظة الحازمة والحجة الناطقة.** ان دواوين الشعراء الثلاثة ما زالت تدرس ـ حتى ايامنا هذه ـ فى المدارس ، وسوف تظل دائما موضوعات بحث وتحليل .

« **المتنبي** » الشاعر الذي اودع الخيال العربي فى القصائد ، وهو الذي عين فى امثال سيارة طريقة التفكير عند العرب ووسيلة تصويرهم للحياة وكل ما هو موجود فيها من سمو وقوة .

ككل عبقري كان « المتنبي » يعد من المفتونين الاكابر الذين ينشرون ـ فى كل مكان ـ اشعارهم وامثالهم بين الاعداء المتطرفين الذين كانوا ينتقدون على المتنبي كبرياءه وفروره اللذين جاوزا كل حد .

لقد كان المتنبي ، فى نظرته الرجولية يمي جيدا طموح الماضي العربي ، كان **نذيرا متحمسا لوحدة العرب ، وواحدا من المبشرين بالقومية النقية من كل تعصب .**

الشاعر الثاني هو « **المعري** » الذي كان ضريرا منذ طفولته البعيدة ، **الرجل الواسع المتبحر العارف باحاسيس البشرية** ، لقد كان **فيلسوفا** بالمعنى الدقيق للكلمة ، وكانت فلسفته متنوعة بحيث شملت كل انواع الاضطرابات وجميع مستويات العقل ، سواء كان يتخللها حزن متعاقب او يعلوها حدث سعيد. انه ساخر رقيق تكاد تكون سخريته غير مرئية ، ولقد كان يضمن سخريته هذه افكاره التي كانت تتعارض ووجهات نظر الحكام .

وحسب البحوث الاخيرة الخالية من كل تعصب، فقد تاثر « دانتي » فى كتابته لعمله الخالد « الجحيم » او (الكوميديا الالهية) ـ تاثر « برسالة الغفران » للمعري التي كانت مترجمة فى ذلك العهد الى لغات مختلفة .

الشاعر الثالث هو « **ابن الرومي** » وهو الذي يكمل **الثالوث الحاكم فى الشعر العربي** ، هذا الشاعر الذي **اثرى الشعر العربي بفنائياته التي هي جديرة بكل اعجاب** ، هذا العاشق الواله للجمال فى جميع اشكاله ، لقد استطاع هذا الشاعر ان يسبر ابعد اغوار التفكير ، نطبع كل ذلك فى قصائد حافلة بالحركة والحياة . لقد كانت عيناه المتلهفتان ابدا الى التقاط كل مظاهر الحياة ، بمثابة عدستين فوتوغرافيتين غاية

في الحساسية تلتقطان ادق دقائق الامور ، باعثتين الحياة في كل الاشياء ، ان اوصافه لما كان يراه او يحس به او يجري وراءه ـ انما هي استعراض متوال من الصور التي تفوق كل شيء حيوية ونقاوة ولمعانا.

لم تتوان المرأة العربية في مشاركتها المحمودة في الشعر العربي ، لقد عرفت الكثيرات ممن قرضن الشعر ، ولكي تتضح لنا مشاركة المرأة في عالم الفن نورد الحكاية التالية :

سأل خليفة أحد رعاياه المشهورين مرة فقال له :

ـ بلغني انك تستطيع ان تنشد الف قصيدة فهل هذا صحيح ؟ .

فأجاب الاعرابي :

ـ اجل يا صاحب المهابة ، ولكن هل تريدون ان اسمعكم الالف قصيدة من شعر الرجال أم من شعر النساء .. ؟ (1)

ان الشعر العربي المعاصر قد تأقلم مع طبيعة الحياة العصرية ، مدفوعا بتجدد العقل العربي بعد ان عاش احداث اربعمائة سنة من الضيق الخارجي محتفظا ـ في جوهره بكآبة خفية ـ عن اجياله الماضية.

ان الشاعر العربي المعاصر يقف حاملا بين اعطاف قلبه حيرة يصعب تحديدها ، هذه الحيرة التي كانت تستولي على روح الاعرابي الذي كان عليه ان يقطع كل يوم صحاري لا نهاية لها ، محدقا في الآفاق التي تنتهي عند خط مستقيم دون حافز للتساؤل .

ولا ندعي القول بان الشعر العربي المعاصر قد احتفظ بماضيه المشرق ، ذلك لان ((فن القول)) في العالم قد تقهقر ازاء الاكتشافات العلمية الحديثة ، ولم تكن الثقافة تكتسب قيمتها من الخيال الفسيح ولا من الكلمة المؤثرة الجميلة ، **ولكن رغم كل ذلك ما زال الشعر العربي يحتفظ ـ باصالته وقدرته الهائلتين ـ** في مقل هذا الجنس ، وهذا عامل من الاهمية في شيء بالنسبة للنهوض العربي الفائق .

لا نقول ان الشعر العربي المعاصر يتميز بطابع معين يحدد هذا الشعر ، ذلك انه عانق كل ـ او تقريبا كل ـ القوالب المعقدة للحياة العصرية ، ولا نجزم بان الشعر العربي الحديث يسير في طريق محكم يسهل توضيحه بل انه قد تعرض لجميع المشاكل المتنوعة في حياتنا الراهنة .

ان المؤرخ النزيه الذي يؤرخ لتطور الشعر العربي المعاصر لا يستطيع الاستغناء عن ذكر ـ **ظاهرة من ظواهر هذا الشعر ـ التي تكاد تنفرد بنفسها بين تواريخ الادب عامة** . فاذا كان حقا ان الشعر العربي قد بلغ اوج عزه في مواطنه الاصلية ؛ فانه لحق كذلك ان **هذا الشعر قد اكتسب لمعانا واشراقا ملحوظين في بلاد امريكا** .

ان مئات من الآلاف المهاجرين وعلى الخصوص في الارجنتين والبرازيل ـ كان من بينهم شعراء كبار ، ساهموا مساهمة محمودة في الادب العربي .

ان سماء هاتين الجمهوريتين ، وجمهوريات اخرى قد جمعت تحتها كثيرا من الشعراء العرب الذين رفعوا عاليا امجاد اوطانهم النائية معبرين بدلك عن الحب الذي يكنونه لبلادهم الام الكائنة وراء البحار ، ومشيدين ـ في نفس الوقت ـ بعظمة الاثر المكتوب

ان هؤلاء الشعراء البعيدين عن مسقط رؤوسهم والذين كانوا ملجمين من طرف قوات اجنبية ، قد وجدوا فرصة نشر قصائدهم الحماسية بعد ان تهيا لهم جو من الحرية ، كانوا يتوقون اليه من قبل .

لقد وجد هؤلاء الشعراء في المواطن الارجنتين الاخ الذي فتح لهم ذراعيه بحرارة وصدق ـ ونحن نقول هذا عن تجربة ـ ووجدوا في الارجنتين نفسها الركن الذي رحب بهم أشد الترحيب ، وهو بالنسبة لهم ينبوع الهام لتفكيرهم وتاملاتهم .

بهذه الكلمات الختامية ، نقدم شكرنا عن هذا الكرم النبيل ، ونستأذن لنحمل لهذا الوطن الجديد تحية شعرية من اوطاننا الاصلية .. مرات تفوق الآلاف .

---

1) وفي رواية اخرى ان شاعرا زار شاعرا آخر ، فلما طرق باب بيته خرج خادمه ، فقال له : ان سيدي لا يستقبل الا من كان يحفظ ـ على الاقل ـ الف قصيدة ! . فاجابه الشاعر الزائر : اذهب وقل لسيدك هل يعني الف قصيدة من شعر الرجال أم من شعر النساء ! (المترجم)

الألقاب عند العرب والمسلمين

الشيخ طه الولي « بيروت »

اذا اردنا ان نتحدث عن الالقاب عند العرب والمسلمين ، فليس لنا بد من طي السنين بله القرون والعودة باذهاننا الى صدر الاسلام اذ نجد بين المؤرخين من يقول بأن الالقاب عرفت سبيلها الى العرب منذ هاتيك الايام. وبالفعل فاننا نعرف ان اول لقب اطلق بين يدي الاسلام كان ذلك الذى اطلقته قريش على النبي صلى الله عليه وسلم قبيل بعثته وهو « **الامين** » فلما كانت البعثة اصبح لقبه عليه السلام : « رسول الله » وبهذا اللقب كان يخاطب الناس ويكاتب رؤساء القبائل العربية وملوك الدول الاجنبية . وكانت كلمة « رسول الله » منقوشة على خاتمه الشريف الذى استعمله هو بنفسه كما استعمله من بعده ثلاثة من خلفائه الراشدين وهم ابو بكر وعمر وعثمان ، وفى عهد هذا الاخير سقط هذا الخاتم فى بئر اريس وفقد منذ ذلك الحين كما هو معروف فى التاريخ .

ثم ان **كبار الصحابة رضي الله عنهم عرفوا كذلك القابا** رافقت اسماءهم بل هي حلت محل هذه الاسماء فى بعض الاحيان حتى ان بعض هؤلاء الصحابة عرفوا بالقابهم دون اسمائهم لدى المؤرخين فيما بعد ، وكان عبد الله بن ابي قحافة ابو بكر الخليفة الاول يعرف باسم « الصديق » الذى لقبه به النبي صلى الله عليه وسلم . وكان عمر بن الخطاب الذى تولى الامر من بعده يعرف «**بالفاروق**» الذى قيل ان قوما من السريان اطلقوه عليه لان معناه فى لغتهم الرجل الذى يفرق بين الحق والباطل . وكان عثمان بن عفان يعرف «**بذي النورين**» لزواجه من اثنتين من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد اطلق على علي الخليفة الرابع بعد وفاته لقب « ابي تراب » هذا اللقب الذى قال قوم بانه من صنع خصومه الامويين لنبزه وتحقير شانه بنسبته الى التراب كما قال قوم ءاخرون بانه من صنع شيعته الذين ارادوا به التعبير عن تواضعه وكثرة التصاق جبهته بالتراب لملازمته الصلاة ءاناء الليل واطراف النهار . ولعلنا نستطيع ان نعتبر كلمة « **صحابي** » من الكلمات التي اصبحت لقبا على كل رجل ادرك النبي صلى الله عليه وسلم واجتمع اليه وآمن به كما نستطيع ان نعتبر كذلك كلمة «**تابعي**» من الكلمات التى اصبحت لقبا على كل رجل ادرك ، وهو مسلم ، واحدا او اكثر من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع اليه .

ولكي لا نقف طويلا عند عصر الرسالة النبوية والسنوات القليلة الاولى التى تلتها فاننا ناتي الى العصر الاموي الذى اختلف المؤرخون فيما نسب الى اركانه من الالقاب . فذهب قوم الى ان الخلائف من بني امية اتخذوا لانفسهم القابا . بينما ذهب قوم آخرون الى ان هؤلاء الخلفاء عرفوا باسمائهم من غير القاب اضيفت اليها او حلت محلها . وفى هذا يقول المسعودي فى كتابه « الاشراف والتنبيه » :

« وقد رأينا بعض المتاخرين من ينحرف عن الهاشميين ، الطالبيين منهم والعباسيين ، ويتحيز الى الامويين ويقول بامامتهم ، يذكر انه كانت لمن ملك من بني امية القاب كالقاب خلفاء العباسيين وذكر في ذلك روايتين :

احداهما : قال ، روى محمد بن عبد الله بن محمد القرشي ، قال حدثنا مصعب بن عبد الله عن ابيه عن جده ، قال ، حدثني سابق موسى عبد الملك بن مروان قال : « سمعت امير المؤمنين عبد الملك يقول : « تلقب امير المؤمنين معاوية بن ابي سفيان ، « **بالناصر لحق الله** » ويزيد بن ابي سفيان « **بالمستنصر** على الربيع » ومعاوية بن يزيد « **بالراجع الى الله** » ومروان **بالمؤمن بالله** » .

وبالثانية قال حدثنا ابو مطرف عن ابيه عن جده قال : تلقب عبد الملك « بالمؤثر لامر الله » والوليد بن عبد الملك « بالمنتقم لله » وسليمان بن عبد الملك « بالمهدي » لما احدث من قطع ما كان على المنبر ، وعهده الى عمر بن عبد العزيز وتلقب هو « بالداعي بصنع الله » وسمي هشام بن عبد الملك « بالمنصور » فلم يزل على ذلك حتى عهد اليه يزيد فلقب بالمتخير من آل الله . وتلقب الوليد بن يزيد « بالمكتفي بالله » ويزيد بن الوليد « بالشاكر لانعم الله » وابراهيم بن الوليد « بالمتعزز بالله » ومروان بن محمد بالقائم بحق الله . وكان عبد العزيز بن مروان ، وكان ولي العهد ، يدعى على المنابر « بالمعظم لحرمات الله » وكان مسلمة بن عبد الملك لما بنى مدينة على خليج القسطنطينية سماها « مدينة القهر » وتسمى هو « بالقاهر بعون الله » .

على ان المسعودي لم يكن مقتنعا بما نقل عن تلقيب ملوك بني امية فاردف قائلا على ما تقدم : ... ان الكافة على خلافه . فلو كان الامر على ما ذكر ، لظهر واشتهر واستفاض وجاء في الاخبار المنقولة القاطعة والاعمال الموروثة . فلما لم يذكره الجمهور من حملة ونقلة السير والآثار ولا دونه مصنفو الكتب في التواريخ والسير . من ذكر اخبارهم ووصف ايامهم من تولاهم او انحرف عنهم ، علم ان ذلك لا اصل له .. »

على انه ما ان ادبرت ايام الامويين واقبلت ايام العباسيين حتى اصبح لكل من هؤلاء الاخيرين لقب يرافق اسمه الى جانب « امير المؤمنين » **واول من تلقب منهم** كان اول خلائفهم : ابو العباس المعروف « **بالسفاح** » واختلف الناس في تفسير هذا اللقب، فقالت طائفة بان الرجل تلقب بالسفاح لكثرة ما سفح من الاموال في التمهيد لوثوبه بالدولة الاموية واحتلال مكانها في السلطان والحكم . كما قالت طائفة ثانية ان هذا اللقب التصق باسم اول خليفة عباسي بعد ان اكثر هذا من وضع السيف في اعيان بني امية سافحا دماءهم في سبيل تأثيل ملك قومه بعد اجتثات كل اثر لاي اموي تتوهم قدرته على الثورة او التفكير في العودة الى دست الولاية .

وبقي بنو العباس على ما ابتدأوا به من اعتماد الالقاب للخلفاء الى جانب اسمائهم الاصيلة الى اخر عهدهم بالخلافة حين انتقل السلطان سليم العثماني بالمتوكل على الله اخر الخلفاء العباسيين ، من مصر الى اسطمبول واضعا بذلك حدا للعباسيين وانصارهم من سلاطين المماليك في مصر والشام والعراق وباقي الجزيرة العربية . وهكذا كان **اول القاب العباسيين: السفاح ، واخرها : المتوكل على الله** .

ففي اليوم الثامن من شهر محرم الحرام 923 هجرية (1517 م) دخل الاتراك العثمانيون مدينة القاهرة واصبح سلطان اسطمبول سيد الشرق العربي بلا منازع وافلت دولة المماليك بغير رجعة . وفي ذلك يقول محمد فريد في كتابه « تاريخ الدولة العلية العثمانية » : « ومما جعل لفتح وادي النيل اهمية تاريخية عظمى ان اخر ذرية الدولة العباسية الذي حضر اجداده لمصر بعد سقوط بغداد مقر خلافة بني العباس في قبضة هولاكو خان التتري سنة 656 هـ (1091 م) وكانت له الخلافة بمصر اسما ، تنازل عن حقه في الخلافة الاسلامية الى السلطان سليم العثماني وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهي البيرق والسيف والبردة وسلمه ايضا مفاتيح الحرمين الشريفين ، ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني « **اميرا للمؤمنين** » و « **خليفة لرسول رب العالمين** » اسما وفعلا . » ا. هـ .

غير اننا نجد في كلام محمد فريد عن انتقال لقب « امير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين » الى السلطان سليم العثماني وزواله عن المتوكل على الله العباسي ، مجرد استنتاج لا تدعمه الوثائق التاريخية لاسيما تلك التي كتبت من قبل المؤرخين الذين عاصروا تلك الفترة ودونوا وقائعها وتفاصيلها، دون ان يدعوا من هذه الوقائع والتفاصيل لا شاردة

ولا واردة امثال ابن اياس الذى قال فى كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وهو من ادق ما كتب فى هذا الموضوع . قال هذا المؤرخ وهو شاهد عيان :

« .. وفى يوم الجمعة سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة .. خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة ، وقد ترجم له بعض الخطباء فقال : « .. وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، مالك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصرا عزيزا وافتح له فتحا مبينا ، يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين » .

وفى حوادث سنة 923 هجرية قال ابن اياس : « .. وفى يوم الثلاثاء ثاني عشر جمادى الاولى خرج امير المؤمنين المتوكل على الله قاصدا للسفر الى اسطمبول ، وخرج صحبته اولاد ابن عمه خليل وهما ابو بكر واحمد ، وخرج صحبته الناصري محمد بن العلاى علي بن خاص بك صهر الخليفة .. واخرون من الاعيان ، فتوجهوا الى بولاق ونزلوا من هناك فى المراكب ليتوجهوا الى ثغر رشيد . فحصل للناس على فقد امير المؤمنين من مصر غاية الاسف وقالوا : لقد انقطعت الخلافة من مصر وصارت فى اسطمبول، وهذه من الحوادث المهولة .. الخ » .

يتبين من هذا النص ان السلطان العثماني لم يجرد المتوكل على الله من لقب الخلافة وينتحله لنفسه وان الناس لم يقولوا يومئذ بان الخلافة انتقلت من بني العباس الى بني عثمان ، بل كل ما حصل هو ان السلطان التركي المنتصر اراد أن يفرض الاقامة الجبرية على الخليفة العباسي فى اسطمبول كيلا يشكل بقاؤه فى القاهرة سببا لاثارة الناس الى خلق المتاعب فى وجه العهد الجديد ، وربما لتصبح اسطمبول مقرا رسميا للخلافة .

غير انه مما لا شك فيه ، ان **المتوكل على الله** كان اخر من حمل لقبي « **الخليفة وامير المؤمنين** » **من العباسيين وان هذين اللقبين بقيا شاغرين لم يحملهما احد من ملوك بني عثمان الا ابتداء من السلطان محمود الثاني** ، فان هذا السلطان وجد ملكه يضطرب تحت وطأة ثورات داخلية اضرم نيرانها بعض حكام العرب المسلمين تحت شعارات اسلامية فما كان منه الا ان واجه هذه الشعارات بالالتجاء الى **لقب الخلافة العظمى** كي يفسد على الثائرين به خطتهم الدينية ويتقوى عليهم باللقب الذى كان اباؤه واجداده بغير حاجة اليه لتمكنهم من اسباب الغلبة والقوة العسكرية بحيث لم يكن لقب الخلافة عنصرا مؤثرا فى هذه الاسباب من قريب أو بعيد .

اما عندما كانت السلطة العثمانية فى اوج مجدها فان لقب ، أو بالاصح ، القاب ملوكها كانت كما ننقلها فيما يلي عن مقدمة الرسالة الجوابية التى ارسلها السلطان سليمان القانوني الى فرانسوا الاول ملك فرنسا الذى استنجد به على حماية مملكته من عدوه شارلكان ملك اسبانيا وذلك فى سنة 922 هجرية (1526 م) :

« الله العلي ، المغني ، المعطي ، المعين :

بعناية حضرة عزت الله جلت قدرته وعلت كلمته ، وبمعجزات سيد زمرة الانبياء وقدوة فرقة الاصفياء محمد صلى الله عليه وسلم الكثيرة البركات، وبمؤازرة قدس ارواح حماية الاربعة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم اجمعين وجميع اولياء الله ،

انا ، **سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوج الملوك** ، ظل الله فى الارض ، سلطان البحر الابيض والبحر والاسود ، والاناضول ، والروملي ، وقرمان الروم ، وولاية ذي القدرية ، وديار بكر وكردستان واذربيجان والعجم والشام ، وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن ، وممالك كثيرة فتحها ايضا اباءي الكرام واجدادي العظام ، بقوتهم القاهرة انار الله براهينهم ، وبلادا اخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر ، انا السلطان سليمان خان ، ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان ، ... الى فرنسيس ملك « ولاية » فرنسا ... وصل الى اعتاب ملجا السلاطين المكتوب الذي ارسلتموه مع تابعكم فرانقيان النشيط .. الخ ...»

اما بعد ان هرمت الدولة العثمانية وتقطعت منها الاوصال بانفصال ما كان تابعا لها من الولايات الاوروبية واحتلال الاجانب لكثير من ولاياتها العربية فى اسيا وافريقيا. بعد ان ءال امر هذه الامبراطورية الى هذه النهاية المحزنة فقد اصبح لقب السلطان العثماني فى ايام المغفور له ساكن الجنان عبد الحميد الثاني ، « **السلطان المعظم والخاقان الاعظم** ، **امير**

المؤمنين وخليفة المسلمين ومولانا السلطان ابن السلطان الغازي عبد الحميد خان .»

حتى اذا استمر دولاب عز العثمانيين في تقهقره الى الوراء اخذت المدارس الحكومية في عهد السلطان محمد رشاد الملقب بالخامس تعلم طلابها لقب العاهل التركي كما يلي :

« جناب رب ، منان ، باديشاه ، **خاقان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين** ، ولي نعمت بي منت ، امير المؤمنين ، محمد رشاد افنديمير ، حظرتلري .. »

وءاخر من حمل لقب « **امير المؤمنين الخليفة الاعظم** » من ملوك بني عثمان ، كان السلطان محمد وحيد الدين الملقب بمحمد السادس الذى اقاله مصطفى كمال باشا من السلطنة ثم من الخلافة سنة 1923 ميلادية وبانتهاء السلطنة والخلافة من بني عثمان اصبح لقب « **امير المؤمنين والخليفة الاعظم** » .. **في ذمة التاريخ** على الرغم من المحاولة التى قام بها الشريف حسين بن علي ملك الحجاز في بلدة الشويك الاردنية حينما استدعى اليه بعض اعيان البلاد لمبايعته « خليفة للمسلمين واميرا للمؤمنين » . وهي محاولة لم ياخذها احد في ذلك الحين على محمل الجد وسرعان ما تجاهلها المسلمون حينما تناقلت اسلاك البرق الانذار الذى وجهته الحكومة الانجليزية سنة 1922 الى حليفها بالامس القريب الذى طمع في الحلول محل سلاطين بني عثمان في حمل لقب « امارة المؤمنين وخلافة رسول رب العالمين » .. وهي البرقية التى تقول للحسين بن على شريف مكة وسليل اشرافها :

« ان حكومة بريطانيا تصر بالحاح على وجوب مغادرتكم العقبة ، ولا يمكنها ان تسمح لكم بالبقاء اكثر من ثلاثة اسابيع »

ومن العقبة الى قبرس ، ففي هذه الجزيرة كان ءاخر المطاف باللاهث وراء لقب « امير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين » وكان ذلك في سنة 1924 ميلادية .

ومنذ ذلك الحين .. لم يعد احد يحمل اعظم الالقاب الاسلامية : امير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ، بوصفه اعلى مرجع اسلامي في العالم . وان كان **ما يزال في بعض الاقطار العربية من يدعى الى الآن بلقب امير المؤمنين** . كما هي الحال في بلاد المملكة المغربية حيث لقب الملك فيها : امير المؤمنين . وكما هو الحال في المملكة المتوكلية اليمنية حيث يلقب امامها بأمير المؤمنين . وكما هو الحال كذلك في بعض الجماعات الدينية المنتشرة في جنوب الجزيرة العربية حيث توجد بقايا الخوارج من الطائفة الاباضية ببلاد عمان التى ما تزال تدعو امامها بلقب أمير المؤمنين .

وليس من شك في ان هذه البلدان وما فيها من فرق وطوائف ، حيث تلقب عاهلها او رئيسها بأمير المؤمنين فانما تعني في الواقع انه « امير المؤمنين الخاضعين بالفعل لسلطته السياسية في حدود بلاده الجغرافية » . ومن الطبيعي انه لا يخطر ببال احد أن هذا اللقب ينسحب في ايامنا على المعنى الذى كان يحمله صاحب الخلافة العظمى الذى كان ، ولو شكليا ، المرجع الاعلى لجميع المسلمين في العالم على اختلاف بلدانهم وطوائفهم .

وها نحن الآن ، ننتقل من لقب رئيس الدولة في الاسلام الى بيان لقب الشخص الذى كان يليه في حمل تبعات الادارة والاضطلاع بمسؤولية الحكم ، وهو الشخص الذى تواضع الناس من اهل زماننا على تسميته **برئيس الحكومة او رئيس الوزارة** .

قال القلقشندي : « كانوا في اوائل امر الخلافة يعبرون عنه **بالكاتب** ، لا يعرفون غير ذلك كما اشار اليه القضاعي في «عيون الاخبار» فلما جاءت الدولة العباسية ولقب ابو العباس اول خلفائهم كاتبه ابا سلمة الخلال «بالوزير» **استقر لقب الوزارة من حينئذ ورفض التلقيب بالكاتب** » .

ولقد استعملت كلمة « الوزير » مستقلة ، **للدلالة على الرجل الذى يختاره الخليفة لمعاونته في تحريك اطارات الدولة وضبط اجهزة الحكم وعناصره** . على ان كلمة « الوزير لم تبق منفردة لوحدها مدة طويلة ، اذ ان الشعراء ، ما لبثوا ان اضافوا اليها لقبا يتقدمها ، زيادة في تعظيم حاملها ، واشعارا للناس من خاصة او عامة ، بسمو المهمة التى يمارسها . فقد نقل الراغب الاصفهاني في محاضراته ان الشاعر جحظة البرمكي توجه الى الوزير الذى كان في ايامه بقوله :

قل للوزير ادام الله «دولته»
اذكر منادمتي والخبز خشكار

اذ ليس في الباب بواب «لدولتكم»
ولا حمار ولا في الشط طيار

فاضاف الشاعر لقب «الدولة» الى لقب «الوزير» فاصبح كلا اللقبين متلازمين لا يكاد يفترق احدهما عن الآخر منذ ذلك الحين الى ايامنا هذه ، رغم جميع القرارات « الثورية » التي صدرت في العهود الاخيرة ، بالغاء الالقاب وعدم استعمالها ، لاسيما في المكاتبات الرسمية .

ثم ما لبث لقب الوزير ان اضيف اليه فيما بعد لقب «اخر ، فكان ابو سلمة الخلال وزير السفاح يعرف بلقب « **وزير «ال محمد** » ولما ولي المهدي ابن ابي جعفر المنصور مدة الخلافة، لقب وزيره يعقوب بن داوود بن طهماز «الاخ في الله» ، والمامون بن هرون الرشيد لقب وزيره الفضل بن سهل حين استوزره « بذي الكفايتين » كما لقب اخوه الامين وزيره الحسن بن سهل « **بذي الرياستين** » .

وان ارباب السيوف من امراء الدولة العباسية وكبار عمالها ، اصابهم ما اصاب غيرهم من المدنيين في الادارة . فكان لقب ابي مسلم الخرساني « **امير «ال محمد**» وقيل «**سيف «ال محمد**» ولقب ابو الطيب طاهر بن محمد « **ذا اليمينين** » ولقب الخليفة المعتصم قائد عسكره حيدر بن طاووس «**بالافشين**» من حيث انه اشروسني والافشين لقب على ملك اشروسنة..»

والى جانب لقب دولة الوزير الذي كان يقال لمساعد الخليفة في نفس عاصمة ملكه فلقد عرف العهد العباسي لقبا «اخر استحدث فيما بعد لاطلاقه على ممثل الخليفة ، نفسه في البلدان التي كانت خاضعة لسلطانه . ذلكم هو لقب « **الاستاذ** » واستاذ ، كلمة فارسية الاروعة ، وكانت تكتب « اوستاد » ومعناها بلغة الفرس «معلم او سيد» وعن الفرس اخذها العرب بعد ان كثر بين الامتين التداخل والاختلاط بعد الاسلام .

واول ما استعمل لقب « استاذ » كان في العهد العباسي وذلك حين **اطلق على نائب الخليفة في الديار المصرية والبلاد الشامية ابي المسك كافور بن عبد الله الاخشيدي** ، الذي عرف باسم **الاستاذ كافور الاخشيدي** . وهو الخصي الاسود الذي اشتراه سيده ابو بكر محمد الاخشيدي بثمانية عشر دينارا ورباه واعتقه قبل ان اصبح الحاكم المطلق باسم الخليفة على مصر والشام وما اليهما من ثغور وبلاد. والاستاذ كافور هذا هو الذي بالغ في مدحه المتنبي عندما كان طامعا في بره وصلته ثم عاد فسلقه باهاجيه المقذعة عندما وجد أن طمعه فيه كان في غير محله .

وقد **استعملت كلمة «استاذ» في اوساط النخاسين** الذين كانوا يتعاطون تجارة الرقيق فكانت تتداولها الالسنة في هذه الاوساط للاشارة الى مالك رقبة المملوك فكانوا يقولون: فلان **استاذ المملوك** الفلاني اي صاحبه ومالك رقبته بالرق ، ثم ما لبثت كلمة استاذ ان تطورت في العهد العثماني لاسيما في الهزيع الاخير من ايامه ، كما تطورت طريقة التلفظ بها . فلقد **تحولت كلمة استاذ الى كلمة «اوسطا» او «اسطه»** وبهذا الشكل الاخير ما زالت تلفظ في ايامنا . وقد اصبح لقب **استاذ يطلق على ارباب الصنائع واصحاب الحرف اليدوية منهم على الاغلب** . والمعاصرون من اهل مصر كثيرا ما يستعملون كلمة « اوسطا » بقصد المناداة على الشخص الذي يجهلون اسمه ، وتقابلها في بلاد الشام سورية وفلسطين ولبنان ، كلمة « **معلم** » والغرض والمعنى، هنا وهناك واحد كما هو معروف .

على انه لابد من القول ، بان كلمة استاذ قد تشعبت فيها اساليب الاستعمال في ايامنا حتى انها كثيرا ما غدت تطلق على الشخص العادي من الناس، ولو كان من سوقة القوم وصعاليكهم او حتى اراذلهم، كما انها تطلق كذلك على واحد من اثنين من ارباب السن الفكرية . المحامي الذي يتوكل للترافع عن اصحاب القضايا العدلية ومعلم المدرسة مهما كانت درجته من الثقافة او رتبته من الوظيفة .

وعلى الجملة فان كلمة «استاذ» هي اليوم « عمومية » الاستعمال بدون ضابط ولا ميزان ، من اي انسان لاي انسان .

ونعود الى القاب حكم الولايات والاطراف في الدولة العباسية ، فنقول : انه عندما تراخت قبضة السلطة المركزية التي كانت تمارسها بغداد في علاقاتها مع عمالها في الولايات والاطراف التابعة لها ، واستشرى نفوذ هؤلاء العمال واصبحوا يتسامون الى الانفراد بالسلطة في مناطقهم ، عندما اصبح الامر كذلك نزع منهم الى مشاركة الخليفة بمظاهر الملك من مراسيم والقاب حتى اصبح الخليفة يجد نفسه

وقد اصبح شبه مجرد من كل حول ومن كل طول ، ان ينزل عند رغبات هؤلاء الموظفين الكبار في دولته، وان يلبي رغباتهم ويحقق مطالبهم وان يمنحهم من الالقاب السلطانية ما يتطلعون اليه راغبا أم كارها على حد سواء .

ويصف لنا ابن مسكويه في كتابه « تجارب الامم » حالة الخلافة في تلك الايام حين لم يبق للخليفة من ءاثار السلطان الا نقش-اسمه على السكة والدعاء له فوق اعواد المنابر ، لا اكثر ولا اقل ، فيروي لنا هذا المؤرخ عن المطيع لله العباسي (سنة 361 هـ) انه لما ساله بختيار تزويده بالمال لاجل الغزو والجهاد ، اجابه الخليفة على طلبه بقوله :

« ان الغزو يلزمني اذا كانت الدنيا في يدي ، والي تدبير الاموال والرجال ، واما الآن ، وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفائي ، وهي في ايديكم وايدي اصحاب الاطراف ، فما يلزمني غزو ولا حج ولا شيء ، مما تنظر الائمة فيه ، وانما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم ، تسكتون به رعاياكم ، فان احببتم ان اعتزل ، اعتزلت عن هذا المقدار ايضا ، وتركتكم والامر كله ! ... »

وهكذا ، لما اصبح لقب الخلافة في مثل هذا التهافت والوهن ، وعدم النفوذ وقلة الجدوى ، اذا بالقاب الحكم والسلطان تأخذ سبيلها الى اولئك العمال الذين هم من حيث المبدأ والوضع القانوني مجرد موظفين لدى الخليفة خاضعين لولايته في التعيين والعزل والسلطة والصلاحية .

ويقال ان اول من اتخذ الالقاب لنفسه من هؤلاء الموظفين هو الحسين بن قاسم بن عبد الله الذي لقبه الخليفة المكتفي « بولي الدولة » فكان هذا الامير اول من لقب بالاضافة الى الدولة في الاسلام

ثم وافت الدلالة لآل بويه الديلم ، فسمى الحسن بن بويه بن فناخسرو الديلمي « **بركن الدولة** » وهو الذي كان صاحب اصبهان والري وهمذان ، وجميع عراق العجم ، واستمر في الملك اربعا واربعين سنة وشهرا وتسعة ايام ، ونحا نحوه في اتخاذ الالقاب ابناؤه الذين قسم عليهم الممالك التي كانت تحت يده اثناء حياته فتلقب **بفخر الدولة**، حتى ان اولهم فنا خسرو اضاف الى لقبه **عضد الدولة** لقبا ثانيا طلبه من الخليفة الطائع لله ، وهو « **تاج الملة** » ثم انه لم يكتف بهذين اللقبين الساميين، وتطلع الى لقب ثالث ، يجعله فوق جميع اصحاب الالقاب من امثاله المعاصرين له ، فتلقب **بشاهنشاه** (**اي ملك الملوك**) وامر خطباء المساجد ان يشركوه بالدعاء الى جانب الخليفة نفسه بهذا اللقب الاخير وهذا اللقب الذي كان الفقهاء يمانعون في اطلاقه على اي انسان ، مهما سما مركزه وقويت شوكته ، لما فيه من المعاني التي لا يجوز ان تقال الا لله عز وجل الذي هو جلت قدرته ، ملك الملوك وحده دون سائر خلقه من بني الانسان .

ولقد كان اطلاق اللقب على احد الحكام من قبل الخليفة ، يتم وسط مراسم حكومية تجري في غاية الابهة والفخامة ، فلقد حكى صاحب تاريخ الاسلام في اثناء الكلام عن تلقيب عضد الدولة الذي اشرنا اليه من قبل ، بتاج الملة :

ان الخليفة ، الطائع لله ، جلس في هذه المناسبة على السرير ، وحوله مائة بالسيوف والزينة ، وبين يديه مصحف عثمان وعلى كتفه البردة وبيده القضيب ، وهو متقلد سيف النبي صلى الله عليه وسلم ، وضربت ستارة بعثها عضد الدولة ، وساله ان تكون حجابا للطائع حتى لا تقع عليه عين احد من الجند قبله . ودخل الاتراك والديلم وليس مع احد منهم حديد .. ووقف الاشراف واصحاب المراتب من الجانبين، ثم اذن لعضد الدولة ثم رفعت الستارة . فقبل عضد الدولة الارض ، فارتاع زياد القائد لذلك وقال ، بالفارسية : « ما هذا ايها الملك، اهذا هو الله عز وجل !؟.» فالتفت اليه عبد العزيز ابن يوسف وقال له : «فهمه» فقال له: «هذا خليفة الله في الارض» ثم استمر (اي عضد الدولة) يقبل الارض سبع مرات ، فالتفت الطائع الى خاص، الخادم، فقال : استدنه فصعد عضد الدولة ، فقبل الارض دفعتين ، فقال له ادن الي ، الى ان دنا وقبل رجله ، وثنى الطائع يمينه عليه ، وامره فجلس على كرسي بعد ان كرر عليه «اجلس» وهو يستعفي ، فقال له، اقسمت لتجلس ، فقال : عندي معلوم ، فقال ، نيتك موثوق بها ، وعقيدتك مسكون اليها ، فاوما براسه . ثم قال له الطائع : قد رايت ان افوض اليك ما وكل الله الي من امور الرعية في شرق الارض وغربها وتدبيرها في جميع جهاتها سوى خاصتي واسبابي . فتول ذلك مستخيرا بالله ، قال عضد الدولة يعينني الله على طاعة مولانا وخدمته ، واريد وجوه القواد ان يسمعوا لفظ امير المؤمنين ، فقال

الطائع : هاتوا الحسين بن موسى ، ومحمد بن عمر وابن معروف ، وابن أم شيبان ، والزينبي ، فقدموا. فأعاد الطائع لله القول بالتفويض ثم التفت الى طريف الخادم ، فقال ، يا طريف ، تفاض عليه الخلع ويتوج فنهض الى الرواق ، والبس الخلع - وخرج قاوما يقبل الارض ، فلم يطق لكثرة ما عليه ، فقال له الطائع : حسبك ، حسبك ، وأمره بالجلوس ، ثم استدعى الطائع تقديم الوينه ، فقدم لواءين واستخار الله ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعقدهما ثم قال : يقرأ كتابه فقريء فقال له الطائع: « خار الله لك ولنا وللمسلمين ، آمرك بما امرك الله ، وانهاك عما نهاك عنه ، وابراء الى الله مما سوى ذلك، انهض على اسم الله. »

ثم اخذ الطائع سيفا كان بين المخدتين فقلده به مضافا الى السيف الذى قلده مع الخلعة ، وخرج من باب الخاصة ، وسار فى البلد ! .. »

والجدير بالذكر ، أن حكام الديلم من بني بويه المذكورين ، كانوا قدوة فى هذا الباب ، لمن جاء بعدهم من ارباب الحكم فى ولايات الامبراطورية الاسلامية العباسية ، خارج بغداد ، فكثرت الاسماء التى التصقت بها الالقاب من مثل صمصام الدولة ، وغضنفر الدولة ، وشرف الدولة وما شابه ذلك .

تطور الفكر العلمي ولغة التقنيات بالمغرب منذ العصور الوسطى

الأستاذ : عبد العزيز بنعبد الله « الرباط »

لقد استعرضنا مختلف العوامل التي كان لها اثرتوي او ضعيف فى تطور الفكر واللغة بالمغرب ومن تلك المؤثرات العناصر الحضارية الاموية والقيروانية والاندلسية ثم الثقافية من قرآن ولغة ودين وادب وتصوف غير أن نظرتنا الى هذا التطور لن تتم ما لم نستشف من خلال البحوث والدراسات ذات الطابع العلمي **ما امكن للكيماويين والرياضيين والطبائعيين والاطباء والصيادلة والفلكيين والفلاسفة أن يسهموا به من آراء ونظريات ومصطلحات لبلورة اللغة العربية واستكمال تطورها فى المغرب** ، وبما أن المغرب الاقصى لم يكن يعيش فى قفص متقل بالنسبة للشرق العربي وانه دشن منذ القرن الثالث الهجري مع الاندلس عهد تبادل فكري أوثق فان من الضروري استكناه محتويات هذه الاواني المستطرقة (1) جميعها للتعرف على الهيكل العلمي ومقوماته ، فى خصوص الطب والصيدلة والكيمياء المستجدة فى المغرب الاقصى نلاحظ بأن الاندلس ، وبالتالي المغرب ، كانا عالة على الشرق حيث ظهر امثال جابر بن حيان والحسن بن النكد الموصلي وابن سينا والرازي وءاخرين ونظمت صناعة الطب منذ عام 295 هـ (2) باقرار الخليفة المقتدر نظام الامتحانات فتخرج فى عام 319 هـ وحدها ببغداد 860 طبيبا واجري اول امتحان للصيادلة ايام المعتصم عام 221 هـ واول مارستان بنى فى الاسلام كان بالشام فى عهد الوليد الأموي عام 86 هـ (3) ثم فى مصر فى عهد احمد بن طولون وكان فى المارستان العضدي اربعة وعشرون طبيبا فيهم الكحالون والطبائعيون والجراحون .

ومن اطباء الأندلس وصيادلته فى هذا العصر ابن جلجل (وهو اعظم طبيب طبائعي) والوليد المدحجي الذي دخل الأندلس مع عبد الرحمن بن معاوية وهو طبيبه الخاص، وعبد المالك بن حبيب السلمي المرداسي القرطبي المتوفى عام 238 هـ ، **واول من ادخل الطب الى المغرب هو** اسحاق بن عمران وابن الجزار صاحب « زاد المسافر وقوت الحاضر » وهو أحمد بن ابراهيم بن ابي خالد المتوفى عام 395 هـ (4) ومحمد بن عبدون الذي اشرف على مارستان القاهرة ورجع الى

1) وهو مبدأ غاليلي Galilée المعروف بـ Vases Communicants
2) (القطفي ص 130) .
3) المقريزي فى الخطط والآثار ج 2 ص 405 طبعة بولاق .
4) صبح الأعشى ج 3 ص 337 .